



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الكوفة

كلية الفقه

قسم علوم القرآن والحديث الشريف

حركة الكلمة في النص القرآني (الماء أنموذجاً) دراسة تفسيرية

رسالة تقدم بها

الطالب علي كاظم منهي الفياض

إلى مجلس كلية الفقه في جامعة الكوفة ، وهي جزء من
متطلبات شهادة الماجستير في علوم القرآن

إشراف

الأستاذ الدكتور صباح عباس عنوز

٢٠١٢ م

١٤٣٣ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

{ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا
الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } صدق الله العلي العظيم

فصلت ٣٩

الإهداء

الى سادتي وقدوتي أمتي الذين بهم ألوذ يوم حشري ولصفوفهم
أنتمي في حياتي ...

إلى من علمني ورباني ، ومنحني وأعطاني إلى من بذل ما
بوسعه لأجلي ، إلى الزاهد العابد ، عالي الخلق ، المتواضع
للخلق ، إلى عمي المرحوم السيد ياسر الفياض...

الى أرواح الشهداء السعداء الذين بذلوا مهجهم لأجل الإسلام
والعراق ...

إلى والدي ووالدتي اللذين أستظل بمحبتهما

إلى سندي إختوتي وهم يتسورون أضلعي أماناً وحباً ...

إلى أولادي أحبتي الذين زرعوا في وجداني إنتماءً وطمأنينة
وفيء فرح دائم...

إلى أصدقائي الذين زرعوا شجر الإيثار في أعماق روحي ...

إلى كل من يعنيني أمره ويعنيه أمري ...

أهدي جهدي المتواضع هذا...

المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	١ - ٣
التمهيد	٤ - ٢٦
الكلمة وأهميتها في تفسير القرآن الكريم	٥ - ١٣
معاني مفردة (الكلمة) في سياق الآيات القرآنية	١٣ - ١٧
الكلمة لغةً واصطلاحاً	١٧ - ١٩
أقسام الكلمة	١٩ - ٢٦
الفصل الأول : الدواعي التفسيرية لحركة (الكلمة) في القرآن الكريم	٢٧ - ٧٥
المبحث الأول : الدواعي اللغوية والسياقية (للكلمة) في النص القرآني	٢٨ - ٤٩
المبحث الثاني : الدواعي الفنية لحركة كلمة (الماء) في النص القرآني	٥٠ - ٦٣
المبحث الثالث : الأسس التفسيرية للكلمة في النص القرآني	٦٤ - ٧٥

١٣٦ - ٧٦	الفصل الثاني : الأغراض التفسيرية لاستعمال مفردة (الماء) في النص القرآني
١٠٠ - ٧٧	المبحث الأول : الأغراض التفسيرية لمفردة (الماء) ومرادفاتها في النص القرآني
١١٧-١٠١	المبحث الثاني : مفردة (الماء) ودلالاتها الأعجازية في النص القرآني
١٣٦-١١٨	المبحث الثالث : أثر مفردة (الماء) في القصص القرآني .
١٧٩-١٣٧	الفصل الثالث : وظائف مفردة (الماء) في القرآن الكريم
١٥٥-١٣٨	المبحث الأول : الوظيفة النفسية لمفردة (الماء) في النص القرآني
١٦٨-١٥٦	المبحث الثاني : الوظيفة الحياتية لمفردة (الماء) في النص القرآني

١٧٩-١٦٩	المبحث الثالث : الوظيفة الفقهية لمفردة (الماء) في النص القرآني
١٨٢ - ١٨٠	الخاتمة والنتائج
١٩١ - ١٨٣	المصادر والمراجع
	ملخص الرسالة باللغة الإنكليزية
	العنوان باللغة الإنكليزية

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لمن لا يكون الحمد إلا له الله ربي سبحانه وتعالى، ثم الصلاة والسلام على خير خلقه وأشرف بريته الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين.

وبعد :

إن القرآن الكريم المعجز الأبدي والسر السرمدي الذي لا يضاهيه إعجاز ولا يصل إليه بيان ولا يعرف مكنونه إلا مبدعه ومنزله على رسوله الأكرم محمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم).
ففيه من كل شيء لكل شيء ولم يقف على كنه معرفته أحد ، فقد أعيا المفسرين بما فيه من أسرار ربانية ، وبهرت أبصار العارفين الحقائق الملكوتية، فعجز كل من حاول الإلمام به والوقوف على أسرار ه ، فهو سفرٌ خالد لكل زمان ومكان .

وقد حاولت أن أخوض في أسرار هذا البحر الواسع الذي لا نهاية له ولا حد، وأن أتطلع بمحدودية علمي الى ما عن لي من فكرة البحث، ممنى نفسي بالسير على خطى من سبقني ، وإذا بقواي الفكرية تكلّ ، وتخور المعنويات، فأرجعني ذلك الى حيث ابتدأت، لكن همة إستاذي المشرف وتشجيعه وإلزامه لي دفعني مرة أخرى للبحث، فلم أرَ إلا ما أبصرت عيناى من مساحةٍ قريبةٍ وأسعفتني به قواى لأخرج بهذا البحث، فإن قصرت فذا جهد إنسان طالب للمعرفة يحبو في ساح المعرفة القرآنية، ومن له القدرة على أن يلم بحدود الأفكار التي في كتاب الله العزيز ؟

فكانت خطواتي الأولى أصعب الخطوات، وهي مرحلة اختيار الموضوع بعد أن أجهدت نفسي في إيجاد ما تصبو إليه، بأن أبحث في موضوع قريب إلى نفسي فلم أجد أقرب من كتاب الله (عز وجل) لها، كيف لا وهو كتاب البارئ المصور، الخالق القادر، المبدء المعيد، الأول الآخر، الظاهر الباطن، كتابُ الله المُنزل على رسوله المُرسل، وهو هدف دراستي الأخيرة ومجال الاختصاص الدقيق مستقبلاً - إذا وفق الرحمن ، وانتهت حيرتي باختياري موضوع يستحق البحث والعناء وهو (حركة الكلمة في النص القرآني "الماء أنموذجاً" دراسة تفسيرية) ، ولا أخفي ما كنت فيه من رهبةٍ وتردد، إذ كيف لي أن ألج موضوعاً كهذا ، كونه يبحث في كتاب الله العزيز ويتناول حركة (الكلمة) بصورة عامةٍ ومفردة (الماء) بوصفها نموذجاً لهذه الفكرة . فكانت الكتابة تحدياً كبيراً وعلى الرغم من كل ذلك فقد قررت اقتحام ميدانه للأسباب الأتية:

١ - لأهمية (الكلمة) في القرآن الكريم ولأن القرآن الكريم ما هو إلا كلمات أنزلها الله سبحانه وتعالى على شكل آياتٍ بيناتٍ أضاءت قلب الحقائق على مر العصور.

٢ - كون الكلمة هي الوساطة التي أراد الله سبحانه وتعالى بها إيصال مراده إلى نبيه الكريم (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ثم إلى جميع خلقه .

٣- لأن الكلمة في القرآن الكريم بينت أحكاماً ودلالات ، ونواهي وأوامر، وترغيباً وترهيباً ، وبياناً واستفهاماً ، وشملت كل صغير وكبير من نواحي الحياة ، وكان لمفردة (الماء) في القرآن الكريم أثر يستحق الدراسة والوقوف عنده .

٤- اخترت مفردة (الماء) من بين كلمات القرآن الكريم لأن (الماء) مثّل أساس الحياة ، وأساساً للرزق ، فضلاً عن ذلك كان (الماء) سبباً للجمال والبهجة والتجمل كما أوضحته الآيات القرآنية المباركة .

٥- كان لمفردة (الماء) أثر في الأحكام الالهية كما جاء ذلك في معظم الآيات القرآنية.

٦- كانت مفردة (الماء) معبرةً عن الترهيب تارةً ، والترغيب أخرى ، وسبباً للنعمة مرة وللعذاب مرةً أخرى على وفق ما يقتضيه سياق الخطاب القرآني المراعي لحال المخاطب .

ولهذه الأسباب وغيرها جاء البحث في هذا الموضوع مقسماً الرسالة على ثلاثة فصول وهي

الفصل الأول : أختص بدراسة (الدواعي التفسيرية لحركة الكلمة في القرآن الكريم) ، إذ اشتمل على ثلاثة مباحث موزعة على النحو الآتي:

المبحث الأول : (الدواعي اللغوية والسياقية للكلمة في النص القرآني)

المبحث الثاني : (الدواعي الفنية لحركة كلمة (الماء) في النص القرآني)

المبحث الثالث : (الأسس التفسيرية في النص القرآني)

الفصل الثاني : فقد عني بدراسة (الأغراض التفسيرية لاستعمال مفردة (الماء) في النص القرآني وهو على ثلاثة مباحث

المبحث الأول : (الأغراض التفسيرية لمفردة (الماء) ومرادفاتها في النص القرآني)

المبحث الثاني : (مفردة (الماء) ودلالاتها الأعجازية في النص القرآني)

المبحث الثالث : (أثر مفردة (الماء) في القصص القرآني)

الفصل الثالث : تحدث عن (وظائف مفردة (الماء) في القرآن الكريم) ، وكان على ثلاثة مباحث

المبحث الأول : تناول دراسة (الوظيفة النفسية لمفردة (الماء) في النص القرآني)

المبحث الثاني : خصص لدراسة (الوظيفة الحياتية لمفردة (الماء) في النص القرآني)

المبحث الثالث : تناول (الوظيفة الفقهية لمفردة (الماء) في النص القرآني)

وقد حاولت من خلال التقسيمات المتقدمة للبحث الوصول إلى الغاية المتوخاة منه، وهي دراسة حركة الكلمة مفردة (الماء) أنموذجاً وما ينتج عنها من دواعي تفسيرية ودلالات إيحائية ووظائف مختلفة ، وذلك بالإستناد الى الآيات القرآنية الكريمة ، وما جاء بتفسير المسلمين عامة مستقيداً من المصادر والمراجع القديمة والحديثة .

وانتهت الدراسة إلى خاتمة وقفت فيها على أهم النتائج التي توصل إليها البحث، ثم قائمة المصادر والمراجع وملخص الدراسة باللغة الانكليزية .

وختاماً إيماناً مني بالقول المأثور (إن من لم يشكر المخلوق لم يشكر الخالق)
أتقدم بالشكر الجزيل والعرفان الكبير إلى أستاذي المشرف الأستاذ الدكتور (صباح عباس عنوز) على ما
بذله من جهد وما أحاطني به من رعاية وتوجيه وكان لها الأثر البالغ والفاعل في إتمام هذا البحث ، سائلاً
المولى جل شأنه أن يكون جهده هذا في ميزان أعماله الحسنة وجزاه الله خير الجزاء، وأشكر بامتنان كل من
:

الأستاذ الأول المتمرس الدكتور محمد حسين علي الصغير لما قدّم للبحث من نصائح قيمة .
والأستاذ الدكتور محمد كاظم البكاء لإبداء المشورة والنصح عند الرجوع إليه .
وأشكر كل أساتذتي في الدراسات العليا وزملائي ، وكل من قدم وأسهم وأهتم في إتمام هذا البحث .
سائلاً المولى القدير أن يوفقهم جميعاً لمرضاته ، إنه سميع مجيب الدعاء.

التمهيد

- ١- الكلمة وأهميتها في تفسير القرآن الكريم
- ٢- معاني مفردة (الكلمة) في سياق الآيات القرآنية .
- ٣ - الكلمة لغةً واصطلاحاً .
- ٤ - أقسام الكلمة عند النحويين .

بسم الله الرحمن الرحيم

التمهيد : الكلمة وأهميتها في تفسير القرآن الكريم .

مَحَصَّ الباحثون ألفاظ القرآن الكريم وتدارسوا دلالات كلماته بعد أن دفعتهم الحاجة الى تفسيره تفسيراً لغوياً للوقوف على تلك الدلالات، وكثرت الحاجة إلى معرفة المفردات ومعانيها ، فزادت عناية العلماء بها، استجابة لتلك الحاجة، فالتفتوا إلى آثارها الأدبية التي تحمل في أطوائها ألفاظ العربية، وتراكيبها، وطرائقها في التعبير بعدما جمعوها ثم راحوا يستنبطون منها ما يحتاجون إليه، في فهم الكتاب العزيز، (وهكذا أقامت حلقات العلم، التي غرست في تربتها بذور الدرس اللغوي، مما أدى إلى إبتعاث اللغة ، ودراستها دراسة وضحت معاني مفرداتها، ومعالمها الصوتية والصرفية والنحوية، وتعاقبت على تلك

الدراسة أجيال من العلماء، لجعل اللغة علماً مضبوطاً، يسهل تعليمها، ومن ثم يمكن فهم القرآن والمحافظة عليه من اللحن ويسهم ذلك أيضاً في معرفة سر إعجازه^(١)، فقد نزل القرآن الكريم وبُهرَ به العربُ فُبُهِّتَتْ أمام عظمتِه قرائحُهم فركنوا الى الشعر وظلوا يتحاورون بنصوصه ولعل الاهتمام أنصبَ في بدايات تأملهم للنص القرآني حول أسلوبه وصوره وصياغة التركيب^(٢)، فللتركيب أثره الواضح في تسديد دلالة القول للكلمة بوصفها النواة الأثر الأوفر في ذلك، من هنا يجد الدارسون أن الرسالة السماوية قد أحتوت (من الخصائص ما ميزها على كل ما سبقها وهياًها لتؤدي أثراً حضارياً لم تقم بمثله الكتب المنزلة الأخرى، ومن أكبر خصائصها فضلاً عن جمعها بين البعد الروحي العقائدي والبعد الدنيوي المدني إنها اتخذت من شكلها اللغوي حجةً لنبوة الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) الذي اصطفاه الخالق ليبليغ عنه، فكانت معجزته من خصائص اللغة وجودتها زيادة عما يحتويه من أخبار عن الغيب وقصص عن الأمم السالفة)^(٣)، ومن هنا ربط ابن عباس (ت ٦٨ هـ) بين تفسير القرآن وبين دلالات الكلمة (إذا تعاجم شيء من القرآن فانظروا في الشعر فإن الشعر عربي)^(٤)، فكان السياق ذا تأثير واضح في عملية الاستدلال على كنه ما يحتويه من دلالات ونجدُ هذا السياق لا يقف إلا على انتظام لبنيةً بأختها، أي انتظام كلمةً بأخرى، فالكلمة هي الأس الأول الذي يعتمد عليه الخطاب؛ لأنها تؤدي غرضاً كلامياً وبها يتحرك المعنى ضمن حقل دلالي فتصبح ذات تأثير في الإقناع أو الاحتجاج أو غير ذلك، وقد أتصل المفسرون واللغويون والنحاة بالكلمة فتابعوها ولاحقوا معانيها حتى أحدث الأمر صراعاً بين اللغويين والنحاة والشعراء كان سببهُ الكلمة وإيحاءاتها وإشعاعاتها، وبسبب هذه الكلمة أفاد البلاغيون من كتب اللغويين، فقد عد ابن المقفع (ت ١٤٣ هـ) الكلمة المحرك الأساس للدلالة الإيحائية وهو يتحدث عن صياغة الكلام فقد قال : (فإذا خرج الناس من أن يكون لهم عملٌ وأن يقولوا قولاً بديعاً، فليعلم الواضعون المخبرون أن أحدهم وإن أحسن وأبلغ ليس زائداً على أن يكون كصاحب فصوص وجد ياقوتاً وزبرجداً ومرجاناً فنظمهُ كقلائد وسموطاً وأكاليل ووضع كل فص موضعه وجمع إلى كل لون شبههُ بما يزيدهُ بذلك حسناً فسمي بذلك صائغاً رقيقاً)^(٥)، ويعد سيبويه (ت ١٨٠ هـ) من الأوائل الذين وقفوا على المسند والمسند إليه وهو بذلك يشير بصورة غير مباشرة إلى حركة الكلمة إذا ما انتظمت في السياق وأخذت دلالتها خلال المسند والمسند إليه وكان للمعمر بن المثنى والمعروف بأبي عبيده (ت ٢٠٨ هـ) إشارات واضحة إلى فنون البلاغة وأساليب التعبير اعتماداً على الكلمة، وكذلك كان للمبرد (ت ٢٨٥ هـ) أثر في معرفة قيمة الكلمة من خلال كتابه (الكامل) وما درسه من دلالات الكلمات خلال مفهوم التشبيه، ثم كان لأبن فارس (ت ٣٩٥ هـ) في كتابه (الصاحبي) رؤيا واضحة لأهمية الكلمة في السياق حين درس الخبر

١ - مدخل الى دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية.

٢ - ظ : الأداء البياني في لغة القرآن الكريم ، د.صباح عنوز / ١١-١٢.

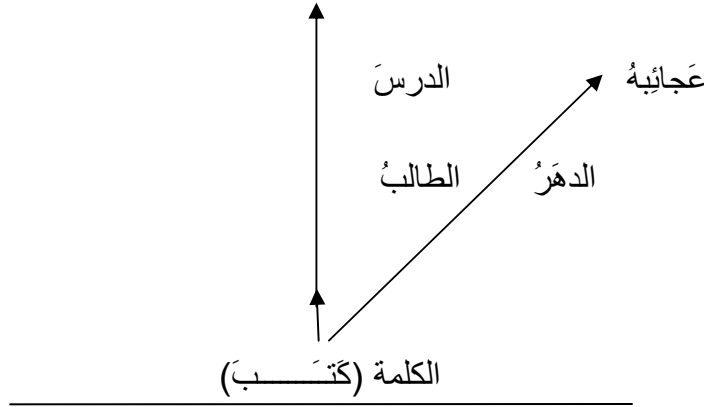
٣ - التفكير البلاغي عند العرب ، لحماصي صمود / ٣٣.

٤ - معاني القرآن ، للفراء: ١ / ٢٨٩-٢٩٠.

٥ - الأدب الصغير / ٣١٩.

والإنشاء وقسم الكلام إلى (خبر واستخبار وأمر ونهي، ودعاء وطلب، وعرض وتحضيض، وتمنن وتعجب)^(١).

ومن هنا استأثرت مسألة اللفظ والمعنى بمنحى واسع عند القدامى، ففرقوا بين اللفظ والمعنى وذهب آخرون الى التوازن بينهما كي تبنى الكلمة؛ لأن اللفظ بنية يتواجد في داخلها المعنى، وباصطفاف الكلمات يتم تحقيق المعنى، ولهذا عبر الأمام علي (عليه السلام) عن البلاغة في قوله (البلاغة إفصاح قول عن حكمة مستغلفة وإبانة عن مشكل)^(٢)، فهناك ترابط أو تآلف بين الكلمة وأختها يحقق لنا المجانسة أو ما يسمى بالاقتران وقد عبر عنه الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) (حتى كأن البيت بأسره كلمة واحده وحتى كأن الكلمة بأسرها حرف واحد)^(٣)، وقال أيضا (فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير)^(٤)، ولأهمية الكلمة وأثرها الكبير في تحريك الدلالة من ناحية إلى أخرى، لقد كان للعدول أمرٌ مهم في تفعيل تلك الحركة للكلمة، فإذا كانت وظيفة النحو تعتمد على مبادئ اللغة، فإن وظيفة البيان تتحدد بعدول الكلمة من معناها اللغوي إلى معنى آخر، أي الاستعمال الخاص لها، فهي توجد بحكم قصدية المتكلم، وتقوم على طريقة لغوية، من هنا كان للمجاز أثره الكبير في عملية حركة الكلمة فهو مولودٌ بسبب حركتها، لأن بتنازل هذه الكلمة عن معناها اللغوي إلى معاني أخرى يولد المجاز وتتضح الصورة وينفتح باب التأويل؛ لأن ((المجاز احتمال في اللغة وحدث طارئ على الحقيقة مرتبط بها في ثنائية لا تنفصم يطلق عليه ابن جني مصطلح (العدول)، وقد ربط هذا العدول جملة من الوظائف يكون بغيابها عبثاً وضرباً من اللغو، الأمر الذي يؤكد على أن (العدول)) في الدلالة مرتبطة بدلالات التعبير^(٥)، فالكلمة في حقيقتها ليس لها تعبير سوى المباشرة إذا كانت في السياق العادي، لكنها ستميل عن مباشرتها إلى أثر آخر حينما تتنازل عن معناها اللغوي فيحدث العدول كما يظهره المخطط الآتي:



- ١ - الصاحبى / ١٧٩.
- ٢ - كتاب الصنائع، لأبي هلال العسكري / ٥٨.
- ٣ - البيان والتبيين، للجاحظ : ١ / ٦٧.
- ٤ - الحيوان، للجاحظ : ٣ / ١٣٢.
- ٥ - التفكير البلاغي عند العرب ص ٥٢.

ففي المخطط المائل تتضح حركة الكلمة وتوليدها عدولاً وتفتح منافذ التأمل للوصول إلى الغاية وتتكشف الصورة ، وقد حملت الكلمة معنى جديداً في السياق الجديد ، على عكس الخط العمودي الذي كان الكلام فيه مباشراً .

وكان لمفردات القرآن الكريم دلالات عديدة وظفها الله سبحانه وتعالى في تركيب الصور البيانية في القرآن الكريم، ومن هذه المفردات لفظة (كلمة) التي أستمعت في عددٍ غير قليلٍ من آيات القرآن الكريم، إذ وردت بصورة اللفظة المفردة وبصورة جمع المؤنث السالم وأحياناً تكون مضافة إلى ضمير، نوردها في الآتي حسب الترتيب القرآني:-

(البقرة ، آل عمران وردت فيها (٣) مرات ، النساء، الأنعام ، الأعراف ، التوبة وردت فيها (مرتين)، يونس، هود وردت فيها (مرتين)، إبراهيم وردت فيها (مرتين)، الكهف، طه، المؤمنون، لقمان، الزمر وردت فيها (مرتين)، غافر ، فصلت، الشورى وردت فيها (مرتين)، الزخرف، الفتح).

وقد وردت لفظة (كلمة) بالتاء المربوطة وبصيغة المفرد :

١ - (فَتَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ

الصَّالِحِينَ) ^(١) .

٢ - (إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ

الْمُقَرَّبِينَ) ^(٢)

٣ - (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا آَمْرًا بَأَمْرِ

دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) ^(٣)

١ - آل عمران ٣٩ .

٢ - آل عمران ٤٥ .

٣ - آل عمران ٦٤ .

٤ - (إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَامِرِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ

سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)^(١)

٥ - (يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَتُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا يَنَالُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ

وَمُرْسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتُوبُوا يَعِدْهُمْ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ)^(٢)

٦ - (وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّي بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)^(٣)

٧ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَلَهُمْ لَئِي شَكَّ مِنْهُ مُرِيبٌ)^(٤)

٨ - (إِلَّا مَنْ رَجَعُ رَبُّكَ وَكَذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا مَلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ)^(٥)

٩ - (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ)^(٦)

١٠ - (وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ)^(٧)

١١ - (مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا)^(٨)

١٢ - (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِنَرَامَا وَأَجَلٌ مُسَمًّى)^(٩)

١ - التوبة ٤٠ .

٢ - التوبة ٧٤ .

٣ - يونس ١٩ .

٤ - هود ١١٠ .

٥ - هود ١١٩ .

٦ - ابراهيم ٢٤ .

٧ - ابراهيم ٢٦ .

٨ - الكهف ٥ .

٩ - طه ١٢٥ .

١٣ - (لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)^(١)

١٤ - (أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ أَفَأَنْتَ تُتَّقِدُ مَنْ فِي النَّارِ)^(٢)

١٥ - (وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ نُرْمَأَ حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا قُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ

يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ)^(٣)

١٦ - (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)^(٤)

١٧ - (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا

الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)^(٥)

١٨ - (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْ لَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ

أَلِيمٌ)^(٦)

١٩ - (وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)^(٧)

٢٠ - (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالزَّمِيمُ كَلِمَةَ

التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)^(٨)

١ - المؤمنون ١٠٠ .

٢ - الزمر ١٩ .

٣ - الزمر ٧١ .

٤ - فصلت ٤٥ .

٥ - الشورى ١٤ .

٦ - الشورى ٢١ .

٧ - الزخرف ٢٨ .

٨ - الفتح ٢٦ .

وقد مفردة (كلمت) بالتاء الممدودة في القرآن الكريم بـ (٧) آيات فقط نوردتها بالآتي

١ - (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُفٍّهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انَّهُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا)^(١)

٢ - (وَنَسْتَ كَلِمَتِ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)^(٢)

٣ - (وَأَوْمَرْنَاهُ الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَايَعْنَا فِيهَا وَنَسْتَ كَلِمَتِ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ)^(٣)

٤ - (كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)^(٤)

٥ - (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ)^(٥)

٦ - (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ)^(٦)

٧ - (وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ)^(٧)

الآيات التي وردت مفردة (كلمه) بصيغة الجمع (كلمات) بعد أن تكررت في سورة الكهف في الآية (١٠٩) فهي تسع آيات هي:

١ - (فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ)^(٨)

٢ - (قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)^(٩)

١ - النساء ١٧١ .

٢ - الانعام ١١٥ .

٣ - الاعراف ١٣٧ .

٤ - يونس ٣٣ .

٥ - يونس ٩٦ .

٦ - الصافات ١٧١ .

٧ - غافر ٦ .

٨ - البقرة ٣٧ .

٩ - الكهف ١٠٩ .

٣- (وَذُيْعِدْكُمْ اللَّهُ إِخْدَى الطَّافَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ

وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ^(١))

٤- (وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ^(٢))

٥- (أَمْ يَقُولُونَ اقْسِرْ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ يَشَأِ اللَّهُ يُخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ^(٣))

٦- (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى آتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيٍّ

الْمُرْسَلِينَ^(٤)) .

٧- (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُخَيِّ وَيُمِيتُ فَاْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ

الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ^(٥)) .

٨- (لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ^(٦)) .

٩- (وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ^(٧)) .

وفي كل هذه الموارد تنوع الموقع الإعرابي وحركة اللفظ (الكلمة) فلم تأت في موقع إعرابي محدد ولم تأخذ حركة إعرابية معينة، وللوقوف على مفهوم لفظة (كلمة) لا بد من مراجعة التفسير لغرض بيان معنى هذه

١ - الانفال / ٧ .

٢ - يونس / ٨٢ .

٣ - الشورى / ٢٤ .

٤ - الانعام / ٣٤ .

٥ - الاعراف / ١٥٨ .

٦ - يونس / ٦٤ .

٧ - لقمان / ٢٧ .

المفردة ودلالاتها المتنوعة فمنها ما يعطي معنى غيبياً خاصاً تتجسد فيه الإرادة الإلهية تارةً كما في قوله تعالى: (وَكُنَّا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)^(١)

و تارةً أخرى يتجسد في المعنى الغيبي القضاء الإلهي كما في قوله تعالى:

(وَإِذْ يَبْعِدُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ)^(٢)

ومرة يتجسد المعنى الظاهري العام الذي استعمله الله سبحانه وتعالى لبيان قدرته وعظمته وهدايته لعباده من خلال هذه المفردة (كلمة) كما في قوله تعالى:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا)^(٣) .

هذه مجمل الآيات القرآنية التي وردت فيها مفردة الكلمة، إلا أنها جاءت في السياق القرآني بمعان متعددة فقد رفع الله تعالى من مكانة الكلمة في كتابه العزيز، وأسبغ عليها من الشرف والسمو • فقربها تارة بذاته القدسية كما في قوله تعالى :

(قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا)^(٤)

وتارة بمشيئته القدسية كما في قوله تعالى :

(وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَفَى فِيهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ)^(٥)

١ - لقمان/ ٢٧ .

٢ - الانفال/ ٧ .

٣ - النساء/ ١٧١ .

٤ - الكهف/ ١٠٩ .

٥ - هود/ ١١٠ .

والكلمة في اللغة : (هي اللفظة الواحدة التي يحسن السكوت عليها)^(١) ، وعند النحاة (اللفظة الدالة على معنى مفرد بالوضع)

فقد تناول القرآن الكريم الكلمة من وجوه شتى منها

كلمة الله : وهو المسيح عيسى بن مريم عليه السلام وسمى عيسى كلمة الله ؛ لأنه خلق بكلمة (كن) فكان من غير أب.

قال تعالى : (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ

أَنقَاطًا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَأَمْنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انَّهُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي

السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا)^(٢)

معاني مفردة (الكلمة) في سياق الآيات القرآنية

الكلمة السواء :

وهي كلمة التوحيد وعدم الشرك بالله سبحانه، قال تعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا

نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ)^(٣)

الكلمة الحسنى :

وهو تمام فضل الله تعالى على من يشاء من عباده قال تعالى:

(وَأَوْمَرْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ

بِمَا صَبَرُوا وَدَرَسْنَا مَا كَانِ يَصْنَعُ فَرَعُونَ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ)^(٤).

أي حين قال لهم موسى (عليه السلام) استعينوا بالله سبحانه واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين.

الكلمة العليا والكلمة السفلى :

١ - شرح ابن عقيل ، ابن عقيل الهمداني : ١٥/١ .

٢ - النساء/ ١٧١ .

٣ - ال عمران/ ٦٤ .

٤ - الاعراف/ ١٣٧ .

فكلمة الله تعالى هي العليا دائماً أي الكلمة القدريّة العالية على غيرها من الكلمات والكلمة السفلى هي الكلمة الساقطة المخذولة من دون كلمات الله عز وجل.

قال تعالى: (إِلَّا تَصْرِوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِي اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَامِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَخْزِنِي إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) ^(١).

كلمة الكفر :

فهو القول الذي يخرج من الملة قال تعالى :

(يُخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا يَنَالُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتُوبُوا يَعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَمْرِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) ^(٢)

كلمة السبق :

بإمهال العاصين وعدم معاملتهم بذنوبهم قال تعالى :

(وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِي مَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ) ^(٣)

وقال تعالى: (وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لَكُمْ مَا وَاجِلٌ مُسَمًّى) ^(٤)

كلمة الأحقاق :

هي وجوب تنفيذها يقول تعالى :

(كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) ^(٥)

١ - التوبة/ ٤٠ .

٢ - التوبة/ ٧٤ .

٣ - يونس/ ١٩ .

٤ - طه/ ١٢٩ .

٥ - يونس/ ٣٣ .

وقال تعالى : (أَمْ يَقُولُونَ اقْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَإِنْ شَاءَ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ

الصدور) (١)

كلمة التمام :

وهي كلمة تمام تحقق الأمر الإلهي ونفاذه يقول تعالى :

(وَمَنْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (٢)

صدقًا في الأخبار وعدًا في الأمر والنهي إذ قال تعالى :

(... وَتَنْتَ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا تُنَالُ مِنْ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) (٣)

الكلمة الطيبة :

وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله وكذلك كل ما يعبر عن الحق والخير والعدل والإصلاح يقول تعالى :

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ) (٤)

الكلمة الخبيثة :

هي كلمة الشرك بالله تعالى ، وكل ما يعبر عن الباطل والشر والظلم والفساد يقول تعالى :

(وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ) (٥)

كلمة الشرك الكبرى :

وهي أن يجعل لله سبحانه وتعالى ولدا قال تعالى :

(وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا * مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا) (٦)

١ - الشورى / ٢٤ .

٢ - الانعام / ١١٥ .

٣ - هود / ١١٩ .

٤ - ابراهيم / ٢٤ .

٥ - ابراهيم / ٢٦ .

٦ - الكهف / ٤-٥ .

كلمة العذاب :

قال تعالى :

(أَمَنَ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي الْكَافِرِ)^(١)

وقال تعالى :

(وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرُورًا حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا قُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ)^(٢)

كلمة الفصل :

(أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ وَكُلُوا كَلِمَةَ الْفَصْلِ لِقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)^(٣)

الكلمة الباقية :

هي كلمة التوحيد لله تعالى الباقية في ذرية إبراهيم عليه السلام من بعده يقول تعالى :

(وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)^(٤)

كلمة التقوى :

أي كلمة التوحيد والإخلاص قال تعالى :

(إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ فَأُنْزِلَ اللَّهُ سَكِينَتُهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالنَّارِ لَهُمْ كَلِمَةُ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا)^(٥)

١ - الزمر / ١٩ .

٢ - الزمر / ٧١ .

٣ - الشورى / ٢١ .

٤ - الزخرف / ٢٨ .

٥ - الفتح / ٢٦ .

كلمة التسوية :

وهي كلمة الكافر يوم القيامة للهروب من النار قال تعالى :

(لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) ^(١).

أو بغيره بحسب وظيفة الكلمة وأدائها القرآني والتي سيوضحها البحث من خلال مفردة الماء ومرادفاته في السياق القرآني ولا بد لنا أن نتطرق إلى مفهوم الكلمة لغة واصطلاحاً وما كتبه علماء اللغة حول الكلمة .

الكلمة لغة :

أولاً : معناها . تستعمل الكلمة في ثلاثة معان لغوية^(٢):

الأول: الحرف الواحد من حروف الهجاء .

الثاني: اللفظة الواحدة المؤلفة من بضعة حروف ذات معنى .

الثالث: الجملة المفيدة والقصيدة والخطبة .

وقد أشار بعض العلماء إلى أن استعمال الكلمة في المعنى الأخير من المجاز اللغوي (من باب تسمية الشيء باسم بعضه ، كتسميتهم ربيّة القوم عينا ، والبيت من الشعر قافية ، لاشتماله عليها، وهو مجاز مهمل في عرف النحاة)^(٣)، أي أنهم لا يستعملون الكلمة بمعنى الكلام أصلاً^(٤)، ومن ثم اعترضوا على ابن مالك حينما قال في ألفيته: (وكلمة بها كلام قد يؤم)، وعدوه من أمراض الألفية التي لا دواء لها^(٥).

وقد ذكر الشنواني دفاعاً عن صاحب الألفية- أن (الكلمة تطلق لغة واصطلاحاً مجازاً على الكلام وحقيقة على المفرد)^(٦)، وهي دعوى تحتاج إلى دليل من استعمالات النحاة.

ويظهر من ابن الخشاب (ت: ٥٦٧هـ) ذهابه إلى أن استعمال الكلمة في المعنى الأول مجاز لغوي أيضاً، إذ قال: (أما الكلمة فمنطلقة في أصل الوضع على الجزء الواحد من الكلم الثلاث)^(٧)، أي: الاسم والفعل والحرف، وهي الألفاظ الدالة على معنى، فيكون إطلاقها على أحد حروف الهجاء مجازاً، من باب تسمية الجزء باسم الكل، كإطلاق اليد على الإصبع .

^١ - المؤمنون/ ١٠٠.

^٢ - ظ : تهذيب اللغة ، للأزهري ، مادة (كلم) ، أوضح المسالك في شرح ألفية ابن مالك ، لابن هشام : ١ / ١٢ ، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك : ١ / ١٦ ، همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، للسيوطي ، تحقيق عبد السلام هارون وعبد العال سالم مكرم : ٣ / ١.

^٣ - حاشية الصبان على شرح الأشموني : ١ / ٢٨ - ٢٩ ، البهجة المرضية ، للسيوطي : ١ / ١٠ .

^٤ - ظ : المصدر نفسه : ١ / ٢٩ .

^٥ - ظ : حاشية الخضري على شرح ابن عقيل : ١ / ١٧ ، همع الهوامع : ١ / ٤ ، حاشية الصبان : ١ / ٢٩ .

^٦ - حاشية السجاعي ، على شرح قطر الندى / ٧ .

^٧ - المرتجل ، لابن الخشاب / ٢١ .

ثانيا - لغات الكلمة :

في الكلمة ثلاث لغات^(١):

الأولى: كلمة، على وزن نَبَقَة، وهي الفصحى ولغة أهل الحجاز، وبها جاء التنزيل.

الثانية: كلمة، على وزن سِدْرَة، وهي لغة تميم.

الثالثة: كلمة، على وزن ضَرْبَة، وأول من نص على هذه اللغة الجوهري دون نسبة^(٢)، ثم نسبها ابن هشام إلى تميم^(٣).

ثالثا - اشتقاق الكلمة .

ذكر بعض العلماء أن الكلمة مشتقة لغة من الكلم، وهو الجرح، لتأثيرها في النفس^(٤).

وقال الرضي: (وهو اشتقاق بعيد)^(٥)، لبعد المناسبة اللغوية التي يتوقف عليها الاشتقاق بين المشتقين^(٦).

وقال ابن فارس: (الكاف واللام والميم أصلان، أحدهما يدل على نطق مفهم، والآخر على جراح)^(٧)، وفي ضوء كلام ابن فارس تكون الكلمة أصلا مستقلا، وليست مشتقة من الكلم بمعنى الجرح .

الكلمة اصطلاحا

بعد استعراضنا بعض ما قاله العلماء في تعريف (الكلمة) لغة نستعرض ما قاله بعض علماء اللغة في تعريف (الكلمة) اصطلاحا ، إذ كان لقدماء الأصوليين نهجهم الخاص في تقسيم الكلمة وتعريف أقسامها ، فقد عرفها الغزالي (ت: ٥٠٥ هـ) : (الاسم وحده يعني الاسم: ما يشعر بمسمى من غير إشارة إلى زمن محصل ، والفعل يخالف الاسم في خاصيته وهي: صيغ دالة على أحداث مشعرة بزمان منقسم انقسام الزمان من ماضي وحاضر ومستقبل، وأما الحرف فهو الذي جاء لمعنى تنعدم خاصية الاسم والفعل فيه ويظهر المعنى في غيره)^(٨) ويلحظ إن قدماء الأصوليين قد تأثروا في حصرهم للكلمة بهذه الأقسام الثلاثة بوجهتي النظر للنحويين التي سيتم الإشارة لهما لاحقا في أطواء البحث، وجاءت عدة تعريفات للكلمة اصطلاحا ، منها :

١ - ظ : مادة (كلم) في كل من : صحاح اللغة ، للجوهري وتهذيب اللغة ، للأزهري ولسان العرب ، لابن منظور ، الخصائص ، لابن جني : ٢٧ / ١ ، شرح شذور الذهب ، لابن هشام / ١١ ، شرح الأشموني : ٢٦ / ١ .

٢ - ظ : صحاح اللغة ، مادة (كلم) .

٣ - ظ : شرح شذور الذهب ، لابن هشام / ١١ ، شرح اللمحة البدرية ، لابن هشام : ٢٠٦ / ١ .

٤ - ظ : شرح المفصل ، لابن يعيش : ٥١ / ١ ، المرتجل ، لابن الخشاب / ١٨ ، شرح الكفاية لرضي الدين للاستبرادي ، تحقيق الدكتور يوسف حسن عمر : ٢٠ / ١ .

٥ - شرح الكافية : ٢٠ / ١ .

٦ - ظ : حاشية شرح الرضي على الكافية (طبعة بولاق) : ٢ / ١ .

٧ - مقاييس اللغة ، لابن فارس : مادة (كلم) .

٨ - التحول من تعليقات الأصول ، الغزالي / ٧٩ - ٨٠ .

قول الزمخشري (ت: ٥٣٨هـ): (الكلمة هي اللفظة الدالة على معنى مفرد بالوضع)^(١)، وتابعه المطرزي (ت: ٦١٠هـ)^(٢).

ومما قاله ابن يعيش في شرح هذا التعريف :

(فاللفظة جنس للكلمة، وذلك لأنها تشمل المهمل والمستعمل... وقوله: الدالة على معنى... فصله من المهمل الذي لا يدل على معنى ... وقوله: مفرد... فصله من المركب... وقوله: بالوضع... أحترز به عن أمور منها ما قد يدل بالطبع ... وذلك كقول النائم: آخ ، فإنه يفهم منه استغراقه في النوم)^(٣).

وعرفها كل من ابن الخشاب (ت: ٥٦٧هـ) وأبي البقاء العكبري (ت: ٦١٦هـ) بأنها (اللفظة المفردة)^(٤). وواضح أن عدم تقييد اللفظة بالمستعملة أو الدالة على معنى يجعل تعريفها غير مانع من دخول الألفاظ المهملة.

أما ابن الحاجب (ت: ٦٤٦هـ) فقد عرفها بما يشابه تعريف الزمخشري مضموناً، وإن كان أخصر

عبارة، قال : (الكلمة لفظ وضع لمعنى مفرد)^(٥)، وتابعه في ذلك ابن عقيل (ت: ٧٦٩هـ)^(٦).

ولأبي حيان الأندلسي (ت: ٧٤٥هـ) تعريفان للكلمة :

أولهما: (الكلمة قول أو منوي معه، دال على معنى مفرد)^(٧).

والثاني: (الكلمة قول موضوع لمعنى مفرد)^(٨)، بحذف عبارة (أو منوي معه) وهو الأولى، لما تقدم من أن كون الكلمة ملفوظة أو منوية ليس من ذاتياتها.

أقسام الكلمة

لقد كان للنحويين العرب جهد دقيق في محاولتهم تحديد مفهوم الكلمة فاستقروا على أنها لفظ وضع لمعنى مفرد أي لا يدل جزؤها على جزء معناها.

وقد حاول النحويون في العصر الحديث أن يعيدوا النظر في مفهوم الكلمة وتقسيمها؛ فالمخزومي قسمها أربعة أقسام، أضاف إلى أقسامها المعروفة لدى القدماء قسمًا رابعًا هو الكناية، فصلها عن الاسم وجعل تحت عنوانها

١ - المفصل في علم العربية ، جار الله الزمخشري / ٦ .

٢ - المصباح في علم النحو ، أبو الفتح المطرزي / ٣٧ .

٣ - شرح المفصل لابن يعيش ١ / ١٨ - ١٩ .

٤ - المرتجل لابن الخشاب / ٤ - ٥ ، مسائل خلافة في النحو ، لأبي البقاء العكبري / ٣١ .

٥ - شرح الرضي على الكافية ١ / ١٩ .

٦ - شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ١ / ١٥ .

٧ - غاية الإحسان في علم اللسان ، لأبي حيان ، مخطوط ١ / ب .

٨ - شرح اللمحة البدرية ، لابن هشام ، تحقيق الدكتور هادي نهر ، ١ / ٢٠٠ .

الضمائر والإشارة والموصولات وكنائيات الاستفهام وكلمات الشرط^(١)، ولم يزد على مفهوم القدماء فيها. وبعد المخزومي كانت محاولة تمام حسان الذي اعتمد في تقسيمه الكلمة الشكل، أي المبنى، والوظيفة، أي المعنى، ورأى أنّ التعريف على أساس المبنى فقط أو المعنى فقط ليس هو الطريقة المثلى التي يمكن الاستعانة بها في أمر التمييز بين أقسام الكلم فأمثل الطرق أن يتم التفريق على أساس من الاعتبارين مجتمعين؛ لذلك قسّم الكلم على سبعة أقسام هي^(٢): الاسم و الصفة والفعل والضمير والخالفة والظرف والأداة .

وقد فرّق بين الكلمة واللفظ تفریقاً دقيقاً، ففرّق ما بين الكلمة واللفظ هو فرّق ما بين اللغة والكلام، فاللغة، والكلمة وحدة من وحداتها صامتة، والكلام، واللفظ جزء من نسقه، محسوس، واللغة سكون والكلام حركة. وهذا أحد أوجه الاعتراض على من عرّف الكلمة من الناحية بأنها "اللفظ المفرد" أو "لفظ وضع لمعنى"؛ لأنّ هذا التعريف يغفل عن حقيقة الفرق بين الكلمة وبين اللفظ^(٣)، وذكر محاولة اللغويين المحدثين من الغربيين تحديدهم الكلمة وإيجادهم القواعد التي يمكن على أساسها يوجد الحد الفاصل بين كلمة وكلمة في السياق^(٤)، فذكر تعريف بلومفيلد: (الكلمة أصغر صيغة حرة) ونقده بأنه فيه شيء من الغموض يفتقد تحديد نوع الكلمة، كما ذكر تعريف سابير: (إنّ العناصر اللغوية ذات المعاني هي بصفة عامة أنساق من الأصوات، إمّا أن تكون كلمات أو أجزاء ذات معان من الكلمات أو مجموعات من الكلمات...)، وعدّه شبيهاً بالتعريفات العربية التي اعترض عليها. ثم ذكر تعريف جاردنر: (إنّ الكلمات ذات وجهين في طبيعتها، فوجه هو المعنى، ووجه آخر هو الصوت، وحيث تكون الكلمات في ملك كل شخص تكون من ناحية جواهر طبيعية مكوّنة من منطقة المعنى من جهة ومن صورة صوت معيّن من جهة أخرى...) ، وقد جعل هذا التعريف (ثنائية ديكراتية واقعة تحت نفوذ دي سوسير اللغوية وجانحة بلا مواربة إلى غموض عالم النفس)^(٥)، وهو تعريف في مجموعه مبنيّ على المجازات أكثر مما هو مبنيّ على اصطلاحات لغوية.

ولقد وافق من يرى أنّ الكلمات وحدات لغوية لا صوتية، هكذا عدّها الجميع حتى هؤلاء الذين يخلطون بين الكلمة واللفظ، واستشهد بقول بلومفيلد: (ليست الكلمة وحدة صوتية بصفة مبدئية، فلنأخذ أجزاء كلامنا التي يمكن استقلالها بسكتات أو مظاهر صوتية أخرى، ومع ذلك تمنح اللغات المختلفة اعترافاً صوتياً

١ - ظ : النحو العربي قواعد وتطبيق ، د. مهدي المخزومي / ٤٦ .

٢ - ظ : العربية معناها ومبناها ، د. تمام حسان / ٨٦ - ٩٠ .

٣ - ظ : العربية معناها ومبناها ، د. تمام حسان / ٣١٧ .

٤ - ظ : مناهج البحث في اللغة ، د. تمام حسان / ٢٦٠ - ٢٦٦ .

٥ - المصدر السابق / ٢٦١ - ٢٦٢ .

للوحدات الكلامية بطرق متعددة، يفعل البعض ذلك قليلاً كالفرنسية والبعض الآخر كثيراً كالإنجليزية^(١) ولقد وضع تمام حسّان أسساً في تحديد الكلمة العربية، زعم أنه ينقض تعريف القدماء كما نقض تقسيمهم لها، فتقسيمهم لا يحل المشكلة من الناحية المعجمية من جهة، ولا يشمل جميع أقسام الكلام العربي من جهة أخرى، ووضع تعريفاً لها يتصل بوظيفتها أكثر مما يتصل بتقسيمها؛ قال: (الكلمة العربية في تعريفها صيغة ذات وظيفة لغوية معيّنة في تركيب الجملة تقوم بأثر وحدة من وحدات المعجم، وتصلح لأن تفرد أو تحذف أو تحشى أو يغيّر موضعها أو يستبدل بها غيرها في السياق، وترجع في مادتها غالباً إلى أصول ثلاثة وقد تلحق بها زوائد)^(٢).

يتصل هذا التعريف بوظيفة الكلمة أكثر مما يتصل بتقسيمها، أي مبناها وشكلها، وبهذا خالف موقفه من تقسيمها في كتابه "العربية معناها ومبناها" في هذا التعريف ينظر إلى الضمائر نظرتين: فهي حين تكون مستقلة في حالة الرفع كلمات مثل (أنا وهم) وإذا كانت في حالة الرفع أو النصب متصلة فهي جزء من كلمة مثل (أكرمنا ورأيتهم)^(٣)، وكذلك حروف المعاني كباء الجر وكاف التشبيه وواو العطف وفاؤه وغيرها. وفي هذه الحال تكون حروف الزيادة في الأفعال كالضمائر المتصلة هي أيضاً أجزاء من كلمات على قوله . وفي هذا يكمن الالتباس والغموض أيضاً، فكان له قولان في الكلمة: أحدهما يأخذ بتقسيمها على أساس المبنى والمعنى، والآخر على أساس الوظيفة.

لقد رأيت تعريف الكلمة لأولمان مقبولاً إذ يرى: (إنها أصغر الوحدات ذات المعنى في الكلام المتصل) ثم قال: (يبدو أنه ليس هناك تعريف وحيد لمثل هذا النوع من المصطلحات المجردة، فهي مصطلحات يصعب تعريفها وإن كان من السهل التعرف عليها)^(٤).

ويقول فندريس: (تحمل الكلمة في نفسها علامة استخدامها والتعبير عن قيمتها الصرفية فلها بنفسها كمال لا يدع الحاجة ماسة إلى شيء)^(٥).

ولابد من الإشارة إلى ما ذهب إليه المدرسة الأصولية الحديثة في النجف الأشرف فهي وإن قسمت الكلمة على أقسامها الثلاثة المعروفة نرى تكيفها لهذه القسمة وتحديد لها للأقسام بطبيعة يختلف عن نهج النحويين

١ - وظيفة النبر في الإنجليزية في تحديد الكلمة فعلاً كانت أو اسماً. فإذا كان النبر على المقطع الأول كانت اسماً، وإذا كان على المقطع الثاني كانت فعلاً مثل con'duct سلوك، تصرّف conduct يسلك، يتصرف وإلى حد ما يكون للنبر وظيفة في الفرنسية كما ذكر بلومفيلد).

٢ - مناهج البحث في اللغة / ٢٦٠ ، علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، محمود السعران / ١٩٠ ، ١٩١ ، أثر الكلمة في اللغة / ٤٩ .

٣ - اللغة لفندريس / ٨٧ ، ٨٨ ، ١٦١ .

٤ - مناهج البحث في اللغة / ٢٦٦ .

٥ - أثر الكلمة في اللغة / ٤٩ .

٥ - اللغة، فندريس / ١٧٨ ، وانظر مناهج البحث في اللغة / ٢٦٢ .

وقدماء الأصوليين وذلك لتوسع نظرهم إلى (دلالة) الكلمات على معانيها من حيث الوضع والموضوع له، وسبب هذا الفرق في تصنيف المفردات وتمايزها بين النحويين ومن تبعهم من الأصوليين :-

١- إنهم لا يقرون دلالة الفعل على الزمان لا بمادته ولا بهيئته لذلك لم يجعلوا الاقتران الزماني مانزا بين الاسم والفعل .

٢- إنهم حين حللوا أوضاع المفردات اللغوية من حيث دلالتها على معانيها وهو أساس التمايز عندهم وجدوها مصنفة في صنفين :

أ- فئة المعاني الاسمية : أي التي يمكن إدراكها بصورة مستقلة عن الجمل وأدخلوها في فئة الأسماء وموارد الأفعال أي أصول اشتقاقها .

ب- فئة المعاني الحرفية : وهي التي لا يمكن إدراكها بصورة مستقلة عن الجمل وإنما هي (روابط) لا يتم تأليف الجملة بدونها وبهذه الفئة أدخلوا حروف المعاني وهاءات الجمل وعلامات الإعراب وبعض الضمائر واللواحق التي تؤدي معنى غير مستقل بما تتعلق به ومقتضى هذا التصنيف، وأن يكون التقسيم عندهم ثنائيا أي أسم وحرف إلا أن طبيعة الفعل وأساس تكوينه من (مادة) تلحقه بالأسماء و(هيئته) تلحقه بالحروف جعلهم يبذلون جهدا ملحوظا في جعله قسما مميزا عن الاسم والحرف^(١).

ونلاحظ أن الكلمة القرآنية وقد أخذت أهميتها التفسيرية في القرآن الكريم، من خلال تخير اللفظ، فهي لا توضع في السياق القرآني ما لم يكن متعشقا بها، ومحتاجا إليها، فثمة علاقة بين الكلمة والسياق والصورة البيانية والتفسير في النص القرآني، كما نلاحظ ذلك في مواضع كثيرة منها، اختيار مفردة الريح معبرة عن الهلاك والعقوبة الربانية في بعض الآيات قال تعالى :-

١ - (مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)^(٢).

٢ - (مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ)^(٣).

١ - ظ : البحث النحوي عند الأصوليين ، مصطفى جمال الدين / ٦٢-٦٣.

٢ - آل عمران / ١١٧.

٣ - إبراهيم / ١٨.

٣ - (أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَأْمِرَةٌ أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْهَا بِتَبِيعًا) ^(١).

٤ - (حَقَّاءَ لِلَّهِ غَيْرِ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ) ^(٢).

٥ - (وَلَنْ أَمْرُسَكُنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ) ^(٣).

٦ - (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) ^(٤).

٧ - (فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ) ^(٥).

٨ - (فَلَمَّا رَأَوْهُ صَارًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَامِرٌ مِنْ مُطَرِّئَاتِ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ) ^(٦).

٩ - (وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ) ^(٧).

١٠ - (إِنَّا أَمْرُسَكُنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمٍ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ) ^(٨).

١١ - (وَأَمَّا عَادُ فَاهْلِكُوا بِرِيحِ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ) ^(٩).

بينما نجد كلمة (رياح) في بعض الآيات جاءت بمعنى الخير واليسر :-

١ - (إِنِّي فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ

١ - الأسراء / ٦٩.

٢ - الحج / ٣١.

٣ - الروم / ٥١.

٤ - الأحزاب / ٩.

٥ - فصلت / ١٦.

٦ - الأحقاف / ٢٤.

٧ - آل عمران / ٤١.

٨ - القمر / ١٩.

٩ - الحاقة / ٦.

فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَنَضْرَفَ الرِّيحَ وَالسَّحَابَ الْمُسَخَّرَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ^(١).

٢ - (وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثَقَالًا فَسَفَّاهُ لِبَدٍ مِثَّتِ فَاَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ

الشَّجَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ^(٢)).

٣ - (وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحِجٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَائِرِينَ^(٣)).

٤ - (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا^(٤)).

٥ - (أَمْ نَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْبَسَ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ^(٥)).

٦ - (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيَذِّقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِيَجْزِيَ الْفُلْكَ بِأَمْرِهِ وَلِيَبْتَلُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ^(٦)).

(٦)

٧ - (اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيُبْسِطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ

يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ^(٧)).

٨ - (وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَدٍ مِثَّتِ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ^(٨)).

وكذلك الأمر نفسه في كلمتي مطر ، وغيث فمفردة مطر أيضا توعده بالويل والهلاك والأذى والعقاب الإلهي كما توضح ذلك الآيات القرآنية الآتية:-

١ - البقرة / ١٦٤.

٢ - الأعراف / ٥٧.

٣ - الحجر / ٢٢.

٤ - الفرقان / ٤٨.

٥ - النمل / ٦٣.

٦ - الروم / ٤٦.

٧ - الروم / ٤٨.

٨ - فاطر / ٩.

- ١ - (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَتَقُمْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَاءَكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَهُمْ وَذَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جَنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أَذًى مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا)^(١).
- ٢ - (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظِرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ)^(٢).
- ٣ - (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بَعْدَابٍ أَلَيْمٌ)^(٣).
- ٤ - (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَحَابٍ مَتَدُونٍ)^(٤).
- ٥ - (فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَابًا مِنْ سَحَابٍ)^(٥).
- ٦ - (وَقَدْ آتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا السَّوَاءَ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنها بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا)^(٦).
- ٧ - (وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ)^(٧).
- ٨ - (فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُنْظَرٌ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ)^(٨).
- الآيات التي وردت فيها مفردة (غيث) دالة على الخير هي :

١ - النساء / ١٠٢.

٢ - الاعراف / ٨٤.

٣ - الانفال / ٣٢.

٤ - هود / ٨٢.

٥ - الحجر / ٧٤.

٦ - الفرقان / ٤٠.

٧ - الشعراء / ١٧٣.

٨ - الاحقاف / ٢٤.

١ - (إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْمِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْمِي نَفْسٌ بَأْيَ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)^(١).

٢ - (وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَطَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ)^(٢).

٣ - (اَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوٌّ مَرِيئَةٌ وَفَخْرِ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بَبَائِهِ ثُمَّ يَهِيجُ فَتْرَاهُ مُمْضِرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ)^(٣).

وهكذا نجد الكلمات القرآنية جميعها في موقعها المناسب من الآيات القرآنية ،فالكلمة القرآنية عليها المدار وبها يتم التفسير، ولا نستطيع اليوم أن نلج عالم القرآن الكريم وان نتغلغل في أعماقه إلا بعد الاقتراب منها ومحاولة التمكن من مضامينها ومفاهيمها من طريق الدراسة المستفيضة والمتعمقة للوقوف على بعض أسرار إحياءات المفردة القرآنية التي لا يعلمها إلا الراسخون في العلم، ولا يخفى على الدارس بأن، حاجة الناس إلى التفسير للقرآن الكريم قد زادت؛ (فإذا كان المسلمون في بادئ الأمر لا حاجة لهم في التحدي الحضاري لأن مسألة التفوق البياني للقرآن الكريم أقر بها العرب وأنتهى الأمر، فإن، مسألة تحليل مقومات روع الكتاب وتعليلها قد هيأت إلى ظهور مسألة الأعجاز)^(٤)، فكان لإيحائية الكلمة أثرها الفاعل في إثراء العقل العربي و(الغوص إلى مكونات المعنى وتحريك دوائره والوقوف عند المبتغى الدلالي الذي ينسجم مع توجهاتهم التفسيرية والتحليلية)^(٥)، فقد أدت الكلمة وظيفتها في النص القرآني وكانت وظيفة مقصودة ؛ لأن الله (سبحانه وتعالى) بني النص عليها، فيها تجلت قصدية النص القرآني ومنها أتسع الأفق الدلالي له فحركها في أطواء السياق القرآني حركة إعجازية مزجت بين الإحياء الدلالي والتعبير الفني وأسباب النزول.

ومن هنا يتحدد إعجاز وجودها في السياق القرآني ، والكلمة القرآنية خالدة متجددة في كل عصر وزمان وهي لا تتأثر في العصور؛ لأنها ثابتة مصانة في كتاب الله عز وجل إذ قال جل من قائل :-

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)^(٦)

١ - لقمان / ٣٤.

٢ - الشورى / ٢٨ .

٣ - الحديد / ٢٠.

٤ - الأداء البياني بين التأويل وتفسير النص القرآني ، د . صباح عنوز / ١١

٥ - المصدر نفسه / ١١

٦ - الحجر / ٩.

الفصل الأول

الدواعي التفسيرية لحركة

الكلمة في القرآن الكريم

المبحث الأول

الدواعي اللغوية والسياقية

لكلمة في النص القرآني

قبل أن أُلج في حركة كلمة (الماء) في القرآن الكريم لابد من إيضاح تطبيقي كما يتوخاه، البحث بالاستعانة ببعض من المفردات التي تمهد إلى استعمال كلمة (الماء) عبر حركتها التفسيرية داخل إطار النص القرآني ولما كانت اللغة العربية بأبنيتها وسياقاتها محل تحدي القرآن للعرب ، فلا يخفى على دارس أو ناقد أن القرآن الكريم جاء معجزاً للعرب فتحداهم في أعظم شيء إنتموا إليه وعدوه هويتهم ، إذ بلغوا شأناً كبيراً باللغة (ويصح لنا تحديد هذا التراث الإنساني للعرب بالبيان فهو كل شيء بحياتهم وكل شيء بعد مماتهم)^(١)، فحين

^١ - أصول البيان العربي ، د. محمد حسين الصغير / ١٣

جاء القرآن الكريم وتقهقرت القدرة اللغوية للعرب أمامه ، صاروا يتدارسون القرآن الكريم ويبحثون فيه وينقبون عن ذلك السر الذي أفحمهم فقد (صار القرآن الكريم بؤرة الإشعاع الذي تستدير حولها الدراسات والمجهودات البحثية في الفكر والعقائد الإسلامية)^(١) القرآن الكريم أورثنا مدرسة لغوية ونقدية في آن واحد، فكثرت المدارس وتعددت الآراء وأصبح للعلماء أثر في بلورة تلك الأفكار لاسيما التي تتصل باللغة فكانت المدرستين الكوفية والبصرية التي بدأت بعمر بن العلاء والخليل بن احمد ثم المبرد التي آلت إليه رئاسة هذه المدرسة في القرن الثالث الهجري ، وكان لمدرسة الكوفة علماؤها، أمثال (أبن الأعرابي وأبي زياد الكلابي و يحيى بن سعيد الأموي وأبي عمر الشيباني والفراء والكسائي..) ^(٢)، وقد ثورت هذه المدرسة الفكر العربي فراح يبحث في مسائل البلاغة والأعجاز فوجدنا عبد القاهر الجرجاني قد أصدر نظرية النظم والتي تعد بحق التنظير الفكري القويم لمسألة السياق اللغوي وخير ما عبر عن ذلك كتاباه (دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة) فقامت نظريته على ستة أسس :-

((١ - ليس للفظ في حال إنفرادها مزية أو فضل

٢- إن دخول اللفظة في السياق هو الذي يضع التناسق الدلالي

٣- اللفظ تبعٌ للمعنى بحسب ترتيبه بالنفس

٤- الصواب والخطأ مرجعه معنىً من معاني النحو

٥- النظم عنده أن يوضع الكلام الوضع الذي يقتضيه علم النحو

٦- المعنى معنيان الأول دلالة اللفظ والثاني معنى المعنى)) ^(٣)

وبذلك صار النص القرآني محركا للطاقت العقلية، وراح الباحث العربي يلاحق الدلالات الإيحائية للفظ القرآنية وأثرها في تحريك السياق وتقديم المعنى^(٤)، وجاءت لهم بذلك آراء كثيرة تعد مساراً صالحاً للذين ينقبون أو يبحثون عن المعنى والكلام السليم ووازنوا بين اللفظ والمعنى، فهم رأوا إذا سلم المعنى وأختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه^(٥)، فاهتموا بالسياق وتخصصوا فيه؛ ولأن (الإبداع يبدو في خصوصية الصياغة أو الأسلوب الذي يقوم عليه النص فقد رأى ذوو النظر من القدماء في الأساليب على هذا وتأملوا المعاني الجديدة)^(٦)، وقد جعلهم الأسلوب القرآني يتمحصون الكلام ويناقشوا الصياغات ويتدبروا المعاني وكأن الجاحظ عبر عن رؤيتهم هذه حين قال (المعاني مطروحة بالطريق يعرفها العجمي والعربي

١ - الأداء البياني في لغة القرآن الكريم ، د . صباح عباس عنوز / ١٣

٢ - معجم المؤلفين ، عمر كحالة : ٨ / ١٠١

٣ - دلائل الأعجاز ، عبد القاهر الجرجاني / ٦٤ ، ٦٥ ، ١٠٨ ، ١٠٩

٤ - ظ : محاضرات د. صباح عنوز/ الأداء البياني في لغة القرآن الكريم ، القاها على طلبة الماجستير في كلية الفقه جامعة الكوفة لعام ٢٠٠٩ - ٢٠١٠ .

٥ - ظ : العمدة بن رشيق / ٢٧٠ - ١٢٤ .

٦ - النص الأدبي من التكوين الشعري إلى أنماط الصورة البيانية ، د. صباح عباس عنوز / ٩ .

والبدوي والقروي والمدني، وإنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وفي صحة الطبع وجودة السبك، فإنما الشعر صناعة وضرب من اللفظ وجنس من التصوير^(١) وتشتق من قوله (جودة السبك) و(ضرب من النسج) إشارة واضحة إلى السياق ؛ لأن السياق ما هو إلا نسق من الكلمات التي تألفت ألفاظها ومعانيها لإعطاء المراد الدلالي، وإذا كان هذا الأمر هو ما نتوخاه من السياق في أي نص فلا بد أن تكون للنص القرآني صفة أخرى أكثر شأناً وأجل معنى فإذا كان (الكلام عمليات عقلية متتابعة، وهذه العمليات تستلزم عند ارسطو مبدأ العالمية في المعاني، وهو ما تستخدم به اللغة أداة للصلاة بين الناس)^(٢)، فإن السياق هو خير من يمثل هذه الصلاة بين الباث والمستلم، والكلمة هي التي تعد أس للسياق ونواة للكلام؛ لأنه (إذا كانت الكلمة حركة عضوية ترمز إلى شيء حقيقي، فالكلام الممثل في الجمل على العكس من ذلك، إذ هو عملية عقلية متميزة عن طبيعة الأشياء الحقيقية، والكلمة ترمز إلى شيء أما دون أن تثبت له صفة أو تنفيها، والجمل وحدها هي التي يمكن أن يوجه لها التصديق والتكذيب)^(٣)، فحقيقة الأمر ما الجمل إلا سياقٌ تركيبى ويبنى على تراص الكلمات، وما يهمنا هو الدواعي اللغوية السياقية لتفسير النص القرآني إذ نجد في النص القرآني هذه الدواعي منتشرة في عموم القرآن الكريم، فإذا كان (الفرق بين استعمال اللغة لغاية علمية واستعمالها لغاية عملية أساسه العام هو أنها في الحالة الأولى أقيسة وبراهين للوقوف على خصائص الأشياء الثابتة لها، وفي الحالة الثانية يُقصد منها الإثارة لعمل الخير أو التعبير عن آثارها)^(٤) فالنص القرآني الكريم قد جمع بين هاتين الميزتين إذ أنه تميز بوحدة فنية بالتنظيم، فكانت اللغة من مقتضيات الحياة الإنسانية ومستلزماتها في النص القرآني، بمعنى أن الإنسان بحاجة إليها عادةً وفكراً، فهي مصدر تربيته، ومصدر فكره ومصدر علمه، ومن هنا كانت الدواعي اللغوية السياقية تُبنى على هذا الأمر، فالدواعي السياقية هي عملية مجيء السياق القرآني على النحو الذي هو فيه، لغاية ألّهيّة جمعت بين أسس الخطاب القرآني إسلوبياً وبين قصديّة فأنصهر المضمون ببنية النص.

قال تعالى: (لَا يَغْنُرُكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبُسَّ الْمِهَادُ * لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ

جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ)^(٥) فنجد السياق القرآني بدأ بالنهاي

مؤكداً الفعل بنون التوكيد الثقيلة عدم اغترار المخاطب بتقلب اللذين كفروا في البلاد ، فجاء السياق بمستواه الظاهري ليحقق لنا نتيجة مفادها أن متاع هؤلاء قليلٌ ومن بعد ذلك فإن جهنم مأواهم، ثم وصف مهادهم الذي

١ - الحيوان ، للجاحظ : ٣ / ١٣١.

٢ - النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال / ٤٢.

٣ - المصدر نفسه ٤٢.

٤ - النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال / ٤٨.

٥ - آل عمران / ١٩٦ - ١٩٨.

يؤولون إليه وبعد ذلك جاء التعبير في السياق اللغوي المتصل، قبالة أولئك الذين يعيشون في البلاد فساداً المتقينَ بسياق استدراكي بدأ بـ(لكن) المخففة غير العاملة مؤكداً بضمير الفصل أيضاً بأن لهم جنات وهم (خَالِدِينَ فِيهَا نُنْزِلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ) فنشاهد في السياقين وجود التوكيد ووجود الوصف ووجود النتيجة التي يؤول أمر

كل منها (الَّذِينَ كَفَرُوا) و(الَّذِينَ اتَّقَوْا) ، وعند عودتنا إلى تفسير هذين النصين نجد السياق اللغوي قد تناغم تماماً مع ما جاء في أسباب النزول، إذ فسر الشيخ الطوسي في كتابه التبيان: قوله تعالى: ((لَا يَغُرُّكَ قَلْبُ الَّذِينَ

كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبُسْ الْمِهَادُ) - آيتان بلا خلاف.

المعنى: هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وآله. وقيل في معناه قولان: أحدهما - إن ذلك على وجه التأديب والتحذير؛ لأن النبي(صلى الله عليه وعلى آله وسلم) لا تجوز عليه المعاصي لما كان التحذير من الله (سبحانه وتعالى)، والتخويف، كما قال: (... لَنْ أَشْرَكَكَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ)^(١) الثاني - إن الخطاب وان

توجه إليه، فالمراد به جميع المؤمنين، وتقديره لا يغرنكم أيها المؤمنون ما ترون أن قوما من الكفار كانوا يتجرون ويربحون في الأسفار التي كانوا يسافرونها، ويسلمون فيها لكونهم في الحرم، فأعلم الله تعالى أن ذلك مما لا ينبغي أن يغبطوا به؛ لأن مأواهم ومصيرهم بكفرهم إلى النار، ولا خير بخير بعده النار. وقوله: "متاع قليل" معناه ذلك الكسب، والربح الذي يربحونه متاع قليل وسماء متاعاً؛ لأنهم متعوا به في الدنيا، والمتاع النفع الذي تتعجل به اللذة أما بوجود اللذة أو بما يكون به اللذة نحو المال الجليل، والملك، وغير ذلك من الأولاد والأخوان.

فقوله: ((لَا يَغُرُّكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ))^(٢) يتضمن معنى فما لهم كبير نفع، فجاء على ذلك، ((لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا

رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتُ) وقوله: ((تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ)) معناه تجري من تحت شجرها. ويقال إنها تجري معلقة من

غير أخدود لها))^(٣).

وقد رأى ابن جرير الطبري في تفسير هذه الآية: ((قوله تعالى: ((لَا يَغُرُّكَ قَلْبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ

ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبُسْ الْمِهَادُ) الآية .

^١ - الزمر / ٦٥.

^٢ - ال عمران/ ١٩٦.

^٣ - تفسير التبيان ، الشيخ الطوسي: ٣ / ٩٠ - ٩٣.

يعني بذلك جل ثناؤه: ولا يغرنك يا محمد تقلب الذين كفروا في البلاد، يعني: تصرفهم في الأرض وضربهم فيها.

فنهى الله تعالى ذكره نبيه (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) عن الاغترار بضربهم في البلاد، وإمهال الله إياهم مع شركهم وجحودهم نعمه، وعبادتهم غيره.

وخرج الخطاب بذلك للنبي (صلى الله عليه وعلى آله وسلم)، والمعني به غيره من أتباعه وأصحابه، كما قد بينا فيما مضى قبل من أمر الله تعالى، ولكن كان بأمر الله (جل وعلا) صادعا، وإلى الحق داعيا.

وأما قوله: (مَتَاعٌ قَلِيلٌ) فإنه يعني: أن تقلبهم في البلاد وتصرفهم فيها متعة يمتعون بها قليلا، حتى يبلغوا آجالهم،

فتخترهم منياتهم، ثم مأواهم جهنم بعد مماتهم، والمأوى: المصير الذي يأوون إليه يوم القيامة، فيصيرون فيه.

ويعني بقوله: (وَبُسْ أَلْمِهَادُ) وبُس الفراش والمضجع جهنم. القول في تأويل قوله تعالى:

(لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُنْزِلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ). يعني بذلك

جل ثناؤه: (لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ): لكن الذين اتقوا الله سبحانه بطاعته، وإتباع مرضاته، في العمل بما أمرهم

به، واجتناب ما نهاهم عنه.

(لَهُمْ جَنَّاتٌ) يعني (جل ثناؤه): بساتين، (تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا)، يقول: باقين فيها أبدا، (نُنْزِلُ مِنْ عِنْدِ

اللَّهِ)، يعني: إنزالا من الله (جل شأنه) إياهم فيها أنزلتموها، ونصب نزلا على التفسير، من قوله: لهم جنات

تجري من تحتها الأنهار، كما يقال: لك عند الله (عز وجل) جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا، وكما يقال:

هو لك صدقة، وهو لك هبة. وقوله: (من عند الله)، يعني: من قبل الله سبحانه، ومن كرامة الله إياهم،

وعطاياهم لهم. وقوله: (وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ) الآية، يقول: وما عند الله تعالى من الحياة والكرامة، وحسن

المآب خير للأبرار، مما يتقلب فيه الذين كفروا فإن الذي يتقلبون فيه زائل فان، وهو قليل من المتاع خسيس،

وما عند الله خير من كرامته للأبرار، وهم أهل طاعته، باق غير فان ولا زائل))^(١).

وعند النظر إلى ما جاء في تفسير كنز الدقائق (لَا يَغُرُّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ: الخطاب للنبي (صلى الله

عليه وآله وسلم) والمراد أمته، أو تنبئته على ما كان عليه .

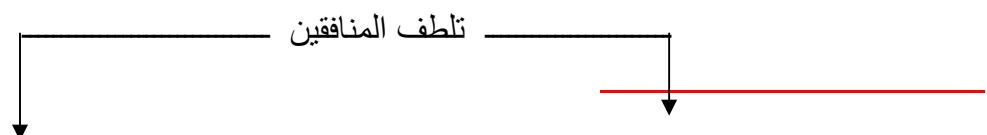
^١ - تفسير جامع البيان ، ابن جرير الطبري : ٤ / ٢٨٧ - ٢٨٨ .

وفي الحديث النبوي: ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع... ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد: ما مهدوا لأنفسهم. "لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نَزِلًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ" : النزول والنزل ما يعد للنازل من طعام وشراب وصلة وانتصابه على الحال من "جنت" والعامل فيها الظرف.

وقيل: إنه مصدر مؤكد، والتقدير أنزلوها نزلاً. وما عند الله: لكثرتة ودوامه^(١).
ويأخذ السياق وظيفة إقناعية لدى المتلقي فهو يعمل على ضم طاقات اللغة (وفي ظل ذلك تتألف الألفاظ في سياقات وأبنية ويظهر الأبداع في خصوصية الصياغة وطريقة تقديم المعنى)^(٢)، فالسياق القرآني يمتاز بأسلوبية ارتقت أعلى قمم البناء الفني وجمعت سمو التصوير البياني فأصبحت إبداعاً سنئياً حمل معه الوظائف التي تخص اللغة ومراميها ، قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ)^(٣)، لاحقت هذه الآية القرآنية الكريمة حال المنافق فهو يظهر خلاف ما يظهر فبدأت الآية (ومن

الناس) أي بعض الناس ثم تلتها بعد ذلك بـ(مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ) وأردفت (وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ) ثم قالت (هُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ) وأستمر السياق ليؤكد أن هذا الصنف من الناس وهو المنافقون يعطون من لسانهم الحلاوة ويضمرون في قلوبهم العداوة ولأجل استمرار المتلقي لمتابعة أحوال هؤلاء جاءت (إذا الحينية) لتخبرنا بأن هذا الصنف (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ)^(٤)، فدل السياق على أن

هناك عملاً تدريجياً يبدأ هؤلاء بمكرهم فهم يقدمون للرأي أو السامع الوجه والكلام الحسنين، غير أنهم يضمرون في قلوبهم العداوة، وهم يرمون من وراء ذلك أن يمسكوا بشيء ثم يبدأ بالتدريج بحسب السياق فإذا تولوا وهي نتيجة تالية لما سبق سوف يكون الفساد من مهامهم ثم بعد ذلك يتشعب هذا الفساد بهلاك الحرث والنسل وأكمل لنا السياق أن هؤلاء وعملهم لا قربة له من الله سبحانه وتعالى، (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ) فنجد التحولات المعنوية قد رافقها سياق قرآني جمع بين قصديه اختيار اللفظة ودقة موضعها والتدرج وكأنه يبين لنا النحو الآتي :

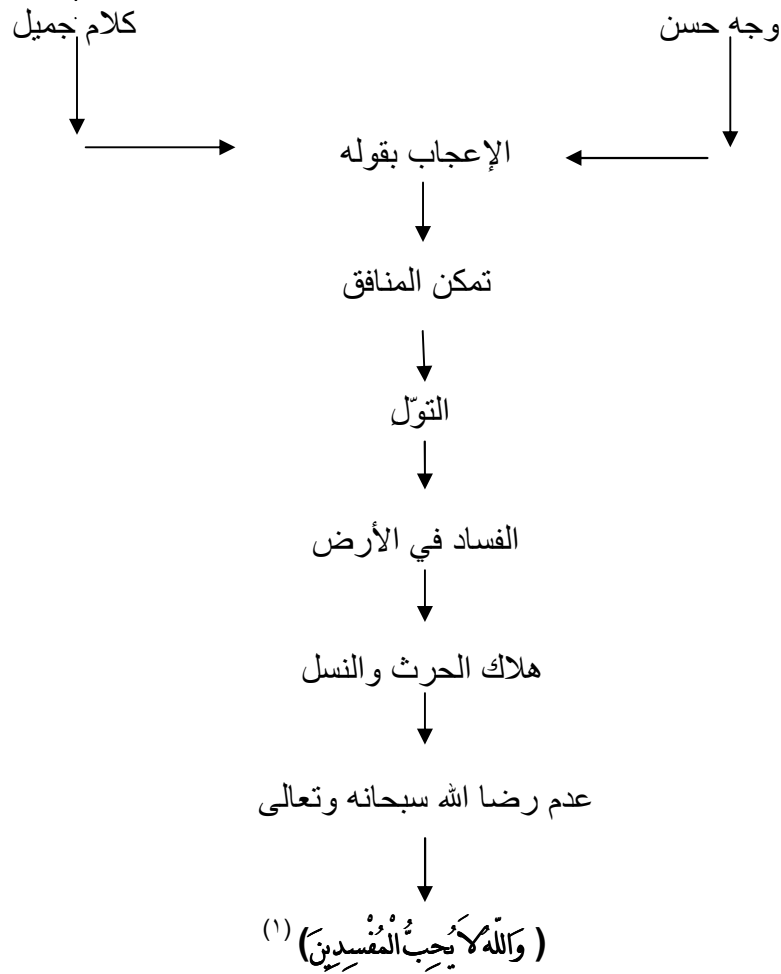


^١ - تفسير كنز الدقائق ، الميرزا محمد المشهدي : ٢ / ٣٢٦ - ٣٢٧.

^٢ - أثر البواعث في تكوين الدلالة البيانية ، د. صباح عنوز / ١٠٣.

^٣ - البقرة/ ٢٠٤.

^٤ - البقرة/ ٢٠٥.



فكان السياق القرآني بارعاً في جمعه بين المستويين الظاهري الذي تمثل باختيار اللفظ وترتيب المفردات بحسب الإرادة الإلهية، والمستوى الباطني الذي أفضى إليه هذا السياق بما تضمنه من معنى، وقد فسر السيد الطباطبائي الآية الكريمة: ((وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْسَ الْمِهَادُ * وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ مُرُوفٌ بِالْعِبَادِ)^(٢). تشتمل الآيات على تقسيم آخر للناس من حيث نتائج صفاتهم ... (فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا ...) (٣)، تشتمل على تقسيم لهم غير أن تلك الآيات

١ - المائدة/ ٦٤.

٢ - البقرة ، الآيات / ٢٠٤ و ٢٠٥ و ٢٠٦ و ٢٠٧.

٣ - البقرة / ٢٠٠.

تقسمهم من حيث طلب الدنيا أو الآخرة، وهذه الآيات تقسمهم من حيث النفاق والخلوص في الإيمان فمناسبة الآيات مع آيات حج التمتع ظاهرة. قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا...) أعجبه الشيء أي راقه وسره، وقوله: (فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)، متعلق بقوله: (يُعْجِبُكَ)، أي إن الإعجاب في الدنيا من جهة أن هذه الحياة نوع حياة لا تحكم إلا على الظاهر، وأما الباطن والسريرة فتحت الستر ووراء الحجاب، قوله تعالى: (يُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ)، والمعنى أنه يتكلم بما يعجبك كلامه وهو أشد الخصماء للحق خصومة، قوله تعالى: (وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا... الخ) التولي هو تملك الولاية والسلطان، ويؤيده قوله تعالى في الآية التالية: (أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ)، الدال على أن له عزة مكتسبة بالإثم الذي يَأْتُم به قلبه غير الموافق للسانه، والسعي هو العمل والإسراع في المشي، فالمعنى وإذا تمكن هذا المنافق الشديد الخصومة من العمل وأوتي سلطانا وتولى أمر الناس سعى في الأرض ليفسد فيها، قوله تعالى: (لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ)، ظاهرة أنه بيان لقوله تعالى: (لِيُفْسِدَ فِيهَا) أي يفسد فيها بإهلاك الحرث والنسل، ولما كان قوام النوع الإنساني من حيث الحياة والبقاء بالتغذي والتوليد فهما الركنان القويمان للذان لا غناء عنهما للنوع في حال: أما التوليد فظاهر، وأما التغذية فإنما يركن الإنسان فيه إلى الحيوان والنبات، والحيوان يركن إلى النبات، فالنبات هو الأصل ويحتفظ بالحرث وهو تربية النبات، فلذلك علق الفساد على الحرث والنسل فالمعنى أنه يفسد في الأرض بإفناء الإنسان وإبادة هذا النوع بإهلاك الحرث والنسل.

قوله تعالى: (وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ)، المراد بالفساد ليس ما هو فساد في الكون والوجود (الفساد التكويني) فإن النشأة نشأة الكون والفساد، وعالم التنازع في البقاء ولا كون إلا بفساد، ولا حياة إلا بموت، وهما متعاقبان في هذا الوجود الطبيعي في النشأة الطبيعية، وحاشا أن ييغض الله سبحانه ما هو مقدره وقاضيه.

وإنما هو الفساد المتعلق بالتشريع فإن الله (سبحانه وتعالى) إنما شرع ما شرعه من الدين ليصلح به أعمال عباده فيصلح أخلاقهم وملكات نفوسهم فيعتدل بذلك حال الإنسانية والجامعة البشرية، وعند ذلك تسعد حياتهم في الدنيا وحياتهم في الآخرة...^(١).

^١ - تفسير الميزان ، السيد الطباطبائي : ٢ / ٩٥ و ٩٦ و ٩٧.

وقد فسر ابن جرير الطبري قوله تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ

الْخِصَامِ)^(١)، ((وهذا نعت من الله تبارك وتعالى للمنافقين، يقول جل ثناؤه: ومن الناس من يعجبك يا محمد

ظاهر قوله وعلا نيته، ويستشهد الله على ما في قلبه، وهو ألد الخصام، جدل بالباطل.

ثم اختلف أهل التأويل فيمن نزلت فيه هذه الآية، قال بعضهم: نزلت في الأخنس بن شريق، قدم على رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم)، فزعم أنه يريد الإسلام، وحلف أنه ما قدم إلا لذلك، ثم خرج فأفسد أموالاً من أموال المسلمين، وأما ألد الخصام: فأعوج الخصام، وفيه نزلت: ويل لكل همزة لمزه ونزلت فيه: ولا تطع كل حلاف مهين إلى عتل بعد ذلك زنيم.

وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله الذين شروا أنفسهم لله بالجهد في سبيل الله والقيام بحقه حتى هلكوا على ذلك يعني هذه السرية))^(٢).

ومثل ذلك ذكر الطبرسي (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى

فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَاسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ

الْمِهَادُ)، (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ)^(٣).

((اللغة: الإعجاب: هو سرور المعجب بما يستحسن، ومنه العجب بالنفس: وهو سرور المعجب من الشيء استحساناً له، وذلك إذا تعجب من شدة حسنه، تقول: عجب وتعجب، وعجبه غيره، وأعجبه واستعجب الرجل: إذا اشتد تعجبه.

والإهلاك: العمل الذي ينفي الانتفاع، والحرث: الزرع، (والنسل): العقب من الولد.

قال الحسن: نزلت في المنافقين، وقال السدي: نزلت في الأخنس بن شريق، وكان يظهر الجميل بالنبى، والمحبة له، والرغبة في دينه، ويبطن خلاف ذلك. المعنى: ثم بين سبحانه حال المنافقين بعد ذكره أحوال المؤمنين والكافرين فقال: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُ قَوْلُهُ) أي: تستحسن كلامه يا محمد ويعظم موقعه من قلبك (في

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) أي: يقول آمنت بك، وأنا صاحب لك، ونحو ذلك

١ - البقرة / ٢٠٤

٢ - تفسير جامع البيان ، ابن جرير الطبري : ٢ / ٤٢٥ - ٤٢٦.

٣ - البقرة ، الآيات / ٢٠٤ و ٢٠٥ و ٢٠٦ و ٢٠٧.

(وَيُشْهِدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ) أي: يحلف بالله ويشهده على أنه مضمّر ما يقول، فيقول: اللهم اشهد علي به وضميره

على خلافه. (وَهُوَ أَلَدُ الْخِصَامِ) أي: وهو أشد المخاصمين خصومة.

ومعناه: إذا ولي سلطانا جاز. وقيل: ولي عن قوله الذي أعطاه، عن ابن جريج. (سَعَى فِي الْأَرْضِ) أي: أسرع في المشي من عندك. وقيل: عمل في الأرض (لِيُفْسِدَ فِيهَا) قيل: ليقطع الرحم، ويسفك الدماء، عن ابن جريج.

وقيل: ليظهر الفساد، ويعمل المعاصي. (وَيُهْلِكُ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ) أي: البنات والأولاد. وذكر الأزهري أن الحرث

النساء، والنسل الأولاد، لقوله (نساؤكم حرث لكم).

وروي عن الصادق " عليه السلام " إن الحرث في الموضع الدين، والنسل الناس.

(وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ) أي: العمل بالفساد.

وقيل: أهل الفساد. وفيه دلالة على بطلان قول المجبرة: إن الله تعالى يريد القبائح، لأنه تعالى نفى عن نفسه محبة الفساد، والمحبة: هي الإرادة؛ لأن كل ما أحب الله أن يكون، وما لا يحب أن يكون، لا يريد أن يكون.))^(١)

ومن تتبع تفسير الآية عند المفسرين يتبين إنها تعني كل منافق يظهر ما لا يخفي فـ (العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب)^(٢).

فالمنافقون هؤلاء ((لا يعرفون في كلامهم حقيقتهم وهم يسعون لفساد الأرض وإهلاك الذرية الصالحة لآل محمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) فهم الظالمون المتجبرون المتكبرون المفسدون))^(٣) ويقوم السياق اللغوي القرآني بمهمة كبرى باعتماده على حركة الكلمة وما توحى بها من دلالات وما تفرضه على السياق كي يؤدي أثره المعنوي، لنتبع مثلاً الحركة في مفردة (قال) (في السياق اللغوي الآتي ونتحرى الدواعي لذلك) (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبُلَى) ^(٤) إن تتبعنا للسياق اللغوي الأول (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ) يجعلنا نشعر ونستفهم بماذا وسوس ذلك الشيطان لآدم (عليه السلام) فتأتي كلمة (قال) محركاً للسياق

اللغوي الثاني (قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ....) لتجعل من السياق اللغوي الثاني بياناً للسياق اللغوي الأول فالكلمة لها

١ - تفسير مجمع البيان ، الشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي : ٢ / ٥٤ - ٥٧ .

٢ - علوم القرآن ، محمد باقر الحكيم (قدس) / ٤٢ .

٣ - أثر تعدد المعنى في تفسير النص القرآني ، أطروحة دكتوراه ، هدى عبد الحسين مير زوين / ١٩ .

٤ - طه / ١٢٠ .

تأثير في إضاءة النص بما تحمله من فاعلية في أثناء تمركزها في أطواء السياق فكان وجودها من الدواعي اللغوية السياقية التي أدت إلى التفسير .

وقد جاء في تفسير هذه الآية المباركة (فإنّ الشيطان قد ربط رباط العداوة حول آدم، ولهذا لم يهدأ له بال: (فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى) . "الوسوسة" في الأصل تعني الصوت المنخفض

جداً، ثمّ قيلت لخطورة الأفكار السافلة والخواطر السيئة سواء كانت تنبع من داخل الإنسان، أو من خارجة. إنّ الشيطان تتبّع رغبة آدم وأثما في أي شيء، فوجد أنّ رغبته في الحياة الخالدة والوصول إلى القدرة الأزليّة، ولذلك جاء إليه عن هذين العاملين وأستغلّهما في سبيل جرّه إلى مخالفة أمر الله. وبتعبير آخر: فكما أنّ الله قد وعد آدم بأنك إن تجبّبت الشيطان وخالفته فستحظى بالنتعم في الجنة دائماً، فإنّ الشيطان قد وسوس إليه عن هذا الطريق "أي أنّه سيخلد في الجنة أيضاً".

وأخيراً وقع المحذور، وأكل آدم وحواء من الشجرة الممنوعة، فتساقط عنهما لباس الجنة، فبدت أعضاؤهما: (فَاكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا) ^(١) فلما رأى آدم وحواء ذلك استحييا (وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ) ^(٢).

نعم، لقد كانت العاقبة المؤسفة (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى) ^(٣).

"غوى" أخذت من مادة الغي

"الغي" يقابل "الرشد"، والرشد هو أن يسلك الإنسان طريقاً يوصله إلى هدفه ومقصده، أمّا الغي فهو عدم الوصول إلى المقصود.

ولكن لما كان آدم نقيّاً ومؤمناً في ذاته، وكان يسير في طريق رضى الله سبحانه، وكان لهذا الخطأ الذي أحاط به نتيجة وسوسة الشيطان صفة استثنائية، فإنّ الله سبحانه لم يبعده عن رحمته إلى الأبد، بل (ثُمَّ اجْبَأَهُ رَبُّهُ فَتَابَ

عَلَيْهِ وَهَدَى) ^(٤) ^(٥).

وقد جاء في تفسير الميزان ((عن الصادق عليه السلام قال: أمر إبليس بالسجود لآدم فقال: يا رب وعزتك إن أعفيتني من السجود لآدم لأعبدنك عبادة ما عبدك أحد قط مثلاً، قال الله جل جلاله: إني أحب أن أطاع من حيث أريد وقال: إن إبليس رن أربع رنات: أولهن يوم لعن، ويوم أهبط إلى الأرض، ويوم بعث محمد صلى

١ - طه/ ١٢١.

٢ - طه/ ١٢١.

٣ - طه/ ١٢١.

٤ - طه/ ١٢٢.

٥ - تفسير الأمل ، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : ١٠ / ٩٤ - ٩٥ ،

الله عليه وآله وسلم على فترة من الرسل، وحين أنزلت أم الكتاب، ونخر نخرتين: حين أكل آدم من الشجرة، وحين أهبط من الجنة، وقال في قوله تعالى: فبدت لهما سواتهما، وكانت سواتهما لا ترى فصارت ترى بارزة، وقال الشجرة التي نهى عنها آدم هي السنبلة.

قال تعالى: وأخرجهما مما كانا فيه وأيضا هو تعالى غفر خطيئتهما بعد ما تابا ولم يرجعهما إلى الجنة بل أهبطهما إلى الدنيا ليحييا فيها ولو لم تكن الحياة الأرضية مع أكل الشجرة وظهور السواة حتما مقضيا، والرجوع إلى الجنة مع ذلك محالا، لرجعا إليها بعد حط الخطيئة، فالعامل في خروجهما من الجنة وهبوطهما هو الأكل من الشجرة وظهور السواة، وكان ذلك بوسوسة الشيطان اللعين، وقد قال تعالى في سورة طه في صدر القصة: (وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ قَنُوسٍ وَكَمْ نَجِدُهُ غَافًا) (١).

ثم ساق تعالى القصة، فهل هذا العهد هو قوله تعالى: (لَا تَقْرَبُوا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَكُونُوا مِنَ الظَّالِمِينَ) (٢)؟

أو أنه قوله تعالى: (إِنْ هَذَا عَدُو لَكَ وَلِزَوْجِكَ) أو أنه العهد بمعنى الميثاق العمومي المأخوذ من جميع الإنسان، ومن الأنبياء خاصة بوجه أكد وأغلظ، والاحتمال الأول غير صحيح لقوله تعالى: (فَوَسَّوْا لَهُمَا الشَّيْطَانُ

لِيُؤْيِيَهُمَا مَا وَوَرِيَّ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاءٍ إِنَّهُمَا وَقَالَ مَا تَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَائِكَةً أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ)*

وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لِنَاصِحٍ) (٣) الآيتان فهما قد كانا حين اقتراف الخطيئة واقترباب الشجرة على ذكر من

النهى، وقد قال تعالى: (فَنَسِيَ وَكَمْ نَجِدُهُ غَافًا) (٤) فالعهد المذكور ليس هو النهى عن قرب الشجرة وأما

الاحتمال الثاني (وهو ان يكون العهد المذكور هو التحذير عن إتباع إبليس فهو وان لم يكن بالبعيد كل البعيد، لكن ظواهر الآيات لا تساعد عليه فإن العهد مخصوص بآدم عليه السلام كما هو ظاهر الآية. مع إن التحذير عن إبليس كان لهما معا، وأيضا ذيل الآيات وهو على طبق صدرها في سورة طه يناسب العهد بمعنى الميثاق

الكلي، لا العهد بمعنى التحذير عن إبليس، قال تعالى: (فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى)* وَمَنْ

١ - طه / ١١٥.

٢ - الأعراف / ١٩.

٣ - الأعراف / ٢٠ - ٢١.

٤ - طه / ١١٥.

أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى^(١) فبحسب التطبيق ينطبق قوله تعالى على نسيان

العهد وهو كما ترى مع العهد بمعنى الميثاق على الربوبية والعبودية أنسب منه مع التحذير من إبليس، إذ لا كثير مناسبة بحسب المفهوم بين الإعراض عن الذكر وإتباع إبليس، وأما الميثاق على الربوبية فهو له أنسب، فإن الميثاق على الربوبية هو أن لا ينسى الإنسان كونه تعالى ربا له أي مالكا مدبرا أي لا ينسى الإنسان أبدا ولا في حال أنه مملوك طلق لا يملك لنفسه شيئا لا نفعا وضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، أي لا ذاتا ولا وصفا ولا فعلا، والخطيئة التي تقابله هو إعراض الإنسان عن ذكر مقام ربه والغفلة عنه بالالتفات إلى نفسه أو ما يعود ويرجع إلى نفسه من زخارف الحياة الدنيا الفانية البالية .

وهذا هو الذي يشعر به كلامه سبحانه حيث أتى بالتكليف الجامع لأهل الدنيا في سورة طه فقال تعالى: (فَإِمَّا

يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى * وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)^(٢).

وبدل ذلك في هذه السورة بقوله: (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَخْوَفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)^(٣).

أن الشجرة كانت شجرة في اقترابها تعب الحياة الدنيا وشقائها، وهو أن يعيش الإنسان في الدنيا ناسيا لربه، غافلا عن مقامه، وأن آدم (عليه السلام) كأنه أراد أن يجمع بينها وبين الميثاق المأخوذ عليه، فلم يتمكن فنسي الميثاق ووقع في تعب الحياة الدنيا...)^(٤). وتتألف الكلمة في النص القرآني وهي تجعل من الدواعي اللغوية السياقية طريقاً موصلاً إلى التفسير كما نجده في كلمة (أمدكم) قال تعالى: (وَأَتَقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ *

أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ * وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ)^(٥)، (فأمدكم) هنا عملت حركة سياقية جعلت الدواعي اللغوية تتمركز في

وجودها إذ غيرت المعنى فجعلت السياق اللغوي الثاني بدل بعض أو جزء من الجملة الثانية ؛ لان المتفحص للنص القرآني الكريم في سياقه اللغوي الأول يجد المعنى في ما وهبه الله للبشر بكل ما يعلمون به فجاءت (ما) شاملة عامة أراد الله سبحانه أن يذكر الناس بأن كل ما تواجد عندهم من خلق أو ما اكتسبوه في دنياهم انه من

١ - طه / ١٢٤.

٢ - طه / ١٢٤.

٣ - البقرة / ٣٨.

٤ - تفسير الميزان ، السيد الطباطبائي : ١ / ١٢٥ - ١٣٠.

٥ - الشعراء / ١٣٢ - ١٣٤.

الله سبحانه وتعالى ، لكنه تعالى أراد أن يؤكد على جزء من هذه القضايا التي وهبها للناس فجاءت كلمة (أمدكم) بتكرارها لتؤدي هذه الوظيفة فأصبح التركيز على الأنعام والبنين والجنات والعيون من عموم ما أعطى ، فتجلت حركة الكلمة هنا بدواعيها التفسيرية في إنها جزأت المطلوب وجعلته بدلاً من الجملة الأولى فتقدمت كلمة (أمدكم) السياق اللغوي الثاني لتؤدي بحركتها المعنوية هذه من خلال انضمامها للسياق تلك الوظيفة، وعند عودتنا إلى أسباب النزول وتفسير هذه الآية نجد الذي يؤكد ما ذهب إليه البحث .

و جاء في تفسير قوله تعالى: ((وَاقْتُوا الَّذِي آَمَدَكُم بِمَا تَعْلَمُونَ * آَمَدَكُم بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ * وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ))^(١)

أنكم تعلمون أن هذه النعم من إمداده تعالى وصنعه لا يشاركه في إيجادها والإمداد بها غيره فهو الذي يجب لكم أن تنقوه بالشكر والعبادة دون الأوثان والأصنام فالكلام متضمن للحجة. قوله تعالى: " إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم " تعليل للأمر بالتقوى أي إني آمركم بالتقوى شكراً لأنني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم إن تكفروا ولم تشكروا، والظاهر أن المراد باليوم العظيم يوم القيامة وإن جوز بعضهم أن يكون المراد به يوم عذاب الاستئصال.^(٢)

وقد جاء في تفسير آخر لهذه الآيات المباركة : ((فَاقْتُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ * وَاقْتُوا الَّذِي آَمَدَكُم بِمَا تَعْلَمُونَ))، أي أعطاكم

من الخير ما تعلمون ، ثم ذكر ما أعطاهم فقال : (آَمَدَكُم بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ * وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ)، يعني بساتين وأنهار^(٣).

وجاء في تفسير الطبرسي تفسيراً لهذه الآيات الكريمة : ((وَاقْتُوا الَّذِي آَمَدَكُم بِمَا تَعْلَمُونَ)) أي: أعطاكم ما تعلمون من الخير.

والإمداد: إتباع الثاني ما قبله شيئاً بعد شيء على انتظام. وهؤلاء أمدوا بأنواع من النعم، وهو قوله (آَمَدَكُم

بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ * وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ) فأعطاهم رزقهم على إدراك^(٤).

إن حركة الكلمة مهمة داخل السياق إذ فيها يتواجد الصوت اللغوي وفيها يتواجد المعنى إذا ما انتظمت في السياق ؛ لأن اللغة في كل ميادينها رموز لأفكار أي حاجة وأقيسه للوصول إلى نتائج من نوع ما، والكلام

١ - الشعراء / ١٣٢ - ١٣٤.

٢ - تفسير الميزان ، السيد الطباطبائي : ١٥ / ٣٠١.

٣ - تفسير البغوي ، البغوي : ٣ / ٣٩٤ .

٤ - تفسير مجمع البيان ، الشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي : ٧ / ٣٤٤.

جسم مادته الكلمات^(١)، فضلاً عن ذلك فإن للكلمة علاقة بين الأسلوب المتخذ بطريقة القول وبين المعنى اللائح بالأفق عن طريق رصّ الكلمات إذ تصبح الكلمة علاقة في السياق تجاور الكلمة الثانية والتي تصبح هي الأخرى علاقة ثانية في السياق وهكذا^(٢). فيصبح للكلمة سببٌ ينتج لنا الدواعي اللغوية التي تهيج لمجيء ذلك السياق من دون سواء لتأمل السياقين اللغويين القرآنيين الآتيين ونرصد حركة المفردة (كأن) وما تؤسسه من دواعي مجيء ذلك السياق على النحو الآتي قال تعالى: (وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قُورًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ)^(٣).

فجاءت (كأن) هنا لتجعل الجملة الثانية (كَأَن فِي أُذُنِهِ قُورًا) بمنزلة التأكيد المعنوي من الجملة الأولى (كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا) فكان السياق اللغوي الثاني مقررًا لما أفاده الأول ولأجل أن يؤكد ذلك السياق عدمية السماع تحركت دلالة مفردة (كأن) فأنتجت لنا هذا المعنى وفي الوقت نفسه كانت أساءاً للدواعي اللغوية التي جاء عليها هذا السياق . ولنتابع ذلك في آراء المفسرين ، جاء في تفسير السمعاني لهذه الآية المباركة : ((كَأَن فِي أُذُنِهِ قُورًا)، أي صمماً، وإنما جعله كذلك، لأنه لم ينتفع بما يسمع ، فصار بمنزلة الأصم ، والوقر هو الثقل في الأذن))^(٤).

وقد فسر الطبري قوله تعالى: ((وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قُورًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ))^(٥).

١ - ظ : النقد الأدبي الحديث / ٤٣ .

٢ - ظ: أثر البواعث / ١٤٨ .

٣ - لقمان / ٧ .

٤ - تفسير السمعاني ، السمعاني : ٤ / ٢٢٧ .

٥ - لقمان / ٧ .

يقول تعالى ذكره: وإذا تتلى على هذا الذي اشترى لهو الحديث للإضلال عن سبيل الله، آيات كتاب الله، فقرئت عليه ولى مستكبرا يقول: أدبر عنها، واستكبر استكبارا، وأعرض عن سماع الحق والإجابة عنه كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقرا يقول: ثقلا، فلا يطيق من أجله سماعه^(١)،

وجاء تفسير لهذه الآية الكريمة في الأمثل : ((تشير الآية التالية إلى كيفية اتخاذهم لموضع الخصام هذا، فتقول: (يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَى عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا...) ^(٢)، ولهذا فإنه بحكم تلوثه بالذنوب والكذب، والغرور والكبر والعجب، يمر كأن لم يسمع كل هذه الآيات، وكأنه أصم أو أنه يعد نفسه كذلك، كما ورد لك في الآية: (وَإِذَا تُلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّىٰ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي أُذُنِهِ قُورًا) ^(٣).

وتهدده الآية في نهايتها بالعذاب الشديد، فتقول: (فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) فكما أنه أذى قلب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) والمؤمنين وآلمهم، فإننا سنبتليه بعذاب أليم أيضاً، لأن عذاب القيامة تجسم لأعمال البشر في الحياة الدنيا.

فلا تعارض بين هذه الآية والتي قبلها حيث أنها تقول أولاً:

(وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هُزُوًا ...) ^(٤) ثم لا تقول: إنه يستهزئ فيما بعد بما علم، بل تقول: إنه يتخذ كل

آياتنا هزواً، سواء التي علمها والتي لم يعلمها، وغاية الجهل أن ينكر الإنسان شيئاً أو يستهزئ به وهو لم يفهمه أصلاً، وهذا خير دليل على عناد أولئك وتعصبهم^(٥)

وتبقى لحركة الكلمة في السياق اللغوي منقبة مهمة ؛ لأنها تمثل قصدية النص القرآني من خلال قيام الدواعي اللغوية بوصفها مقصوداً قرآنياً ونتاج أبنية قرآنية حددها الباري (عز وجل) بهذا النحو من السياق، فلكل حرف وكلمة أثر فاعل في تبيان ماهية تلك الدواعي اللغوية فهناك ، كلمة تتحرك في السياق اللغوي لتؤدي إلى قصد قرآني وهذا القصد ابتنى على تلك الدواعي اللغوية، أي أن الأخيرة كانت سبباً لمجيء النص على شاكلته الموضوعية في القرآن الكريم، بمعنى ما الداعي اللغوي لمجيء تلك الكلمة من دون سواها، أو لمجيء ذلك السياق من دون سواه، فيكون الجواب.

أن الداعي اللغوي لمجيء الكلمة أو السياق كي نحصل على المعنى المراد من النص القرآني .

١ - تفسير جامع البيان ، أبي جعفر محمد بن جرير الطبري : ٢١ / ٧٨.

٢ - الجاثية / ٨.

٣ - لقمان / ٧.

٤ - الجاثية / ٩.

٥ - تفسير الأمثل ، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : ١٦ / ١٩٢ - ١٩٣.

قال تعالى: (وَمَا أَبرَأُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)^(١) لو تفحصت هذا النص لوجدت حركة كلمة النفس أنها جاءت

بدواع لغوية مقصودة إذ أنها بمجيئها في السياق اللغوي الثاني جعلت الجملة الثانية (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ)

جواباً للجملة الأولى فكان سؤالاً انبثق من الجملة الأولى مفاده هل النفس أمارة بالسوء فجاء الجواب أن النفس أمارة بالسوء، فكانت الحركة الدلالية للكلمة (النفس) في هذا السياق قد بينت مرام القول وفي الوقت نفسه أسهمت في تفعيل التأمل حتى خلص التأمل إلى هذه النتيجة فتحددت الدواعي اللغوية السياقية هنا بهذا المراد اللغوي وقد أكد ذلك المفسرون حيث جاء في تفسير مجمع البيان: ((وَمَا أَبرَأُ نَفْسِي)) هذا من كلام يوسف، عند أكثر المفسرين.

وقيل: بل هو من كلام امرأة العزيز، عن الجبائي أي: ما أبرأ نفسي عن السوء والخيانة في أمر يوسف (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) أي كثيرة الأمر بالسوء، والشهوة قد تدعو الإنسان إلى المعصية.

ومن قال إنه من كلام يوسف، قال: إنه أراد الدعاء والمنازعة والشهوة، ولم يرد العزم على المعصية أي: لا أبرأ نفسي مما لا تعرى منه طباع البشر، وإنما امتنعت عن الفاحشة بحول الله ولطفه وهدايته، لا بنفسي. قال الحسن: إنما قال: (وَمَا أَبرَأُ نَفْسِي) لأنه كره أن يكون قد زكى نفسه (إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) بعباده (رحيم بهم))^(٢).

وهناك رأي آخر في تفسير هذه الآيات المباركة فقد فسرهما القرطبي: ((...ثم قالت: (وَمَا أَبرَأُ نَفْسِي) بل أنا راودته، وعلى هذا هي كانت مقرة بالصانع، ولهذا قالت: (إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ)).

وقيل: هو من قول يوسف، أي قال يوسف: ذلك الأمر الذي فعلته، من رد الرسول (لِيَعْلَمَ) العزيز (أَنِّي لَمْ أَخْنُهِ بِالْغَيْبِ) قاله الحسن وقتادة وغيرهما. ومعنى (بِالْغَيْبِ) وهو غائب. وإنما قال يوسف ذلك بحضرة الملك، وقال: " ليعلم " على الغائب توقيرا للملك.

^١ - يوسف / ٥٣.

^٢ - تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي: ٥ / ٤١٤ - ٤١٥.

وقيل: قاله إذ عاد إليه الرسول وهو في السجن بعد، قال ابن عباس: جاء الرسول إلى يوسف عليه السلام بالخبر وجبريل معه يحدثه، فقال يوسف: (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)^(١) أي لم أخن سيدي بالغيب، فقال له جبريل عليه السلام: يا يوسف! ولا حين حللت الإزار، وجلست مجلس الرجل من المرأة ؟ ! فقال يوسف: (وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي) الآية. وقال السدي: إنما قالت له امرأة العزيز ولا حين حللت سراويلك يا يوسف ؟ ! فقال يوسف: (وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي). وقيل: (ذَلِكَ لِيَعْلَمَ) من قول العزيز، أي ذلك ليعلم يوسف أنني لم أخنه بالغيب، وأنني لم أغفل عن مجازاته على أمانته. (وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ)^(٢) معناه: أن الله لا يهدي الخائنين بكيدهم. قوله تعالى: (إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ) قيل: هو من قول المرأة.

وقال القشيري: فالظاهر أن قوله: " ذَلِكَ لِيَعْلَمَ " وقوله: " وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي " من قول يوسف.

قلت: إذا أحتمل أن يكون من قول المرأة فالقول به أولى حتى نبرئ يوسف من حل الإزار والسراويل، وإذا قدرناه من قول يوسف فيكون مما خطر بقلبه، على ما قدمناه من القول المختار في قوله: (وهم بها.))^(٣). فتخير الكلمة في النص القرآني واضح لا لبس فيه ، فهو يعد مصداقاً للدواعي اللغوية ، التي تجعل من السياق القرآني على نحوه اللغوي ، فمثلاً كلمة (عيون) وكلمة (أعين) فلم تأتي الأولى إلا بمعنى (عيون الماء) في حين جاءت كلمة (أعين) بمعنى العين الباصرة ، قال تعالى : (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)^(٤).

فقد جاء في تفسير هذا النص القرآني المبارك : ((إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)) . وقيل: في كل قصر من قصور أهل الجنة، ثمّة "عين جارية"، وهو المراد في الآية، ومن ميزة تلك الأنهار أنّها تجري بحسب رغبة أهل الجنة، فلا داعي معها لشقّ أرض أو وضع سد. وينهل أهل الجنة أشربة طاهرة ومتنوعة، فتلك العيون وعلى ما لها من رونق وروعة، فكلّ منها شراب معين له مواصفاته الخاصة به)^(٥).

١ - يوسف / ٥٢.

٢ - يوسف / ٥٢.

٣ - تفسير القرطبي ، القرطبي : ٩ / ٢٠٩ - ٢١٠.

٤ - الحجر / ٤٥.

٥ - تفسير الأمثل ، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : ٢٠ / ١٥٥.

وقد جاء في تفسير القرطبي عند تعرضه للآية الكريمة : ((ويروى أن سلمان الفارسي (رضي الله عنه) لما سمع هذه الآية " وإن جهنم لموعدهم أجمعين " فر ثلاثة أيام من الخوف لا يعقل، فجئ به إلى رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) فسأله فقال: يا رسول الله، أنزلت هذه الآية " وإن جهنم لموعدهم أجمعين " ؟ فو الذي بعثك بالحق لقد قطعت قلبي، فأنزل قوله تعالى: (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِينَ)^(١) أي الذين اتقوا الفواحش والشرك لهم بساتين وعيون" والعيون هي المذكورة في سورة الإنسان: الكافور والزنجبيل والسلسبيل))^(٢)،

لو تأملنا ما تعنيه مفردة (أعين) عند اصطفاها مع مفردات الآية القرآنية في قوله تعالى : (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)^(٣)، كما جاء تفسير في التبيان،) بلا خلاف. هذا وصف للذين آمنوا من هؤلاء النصارى الذين ذكرهم الله أنهم أقرب مودة للمؤمنين بأنهم إذا سمعوا ما أنزل الله من القرآن يتلى (تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ) يعني من آمن من هؤلاء النصارى. وفيض العين من الدمع امتلاؤها منه سيلاً ومنه فيض النهر من الماء وفيض الإناء، وهو سيلانه عن شدة امتلاء، وقوله "مما عرفوا من الحق" أي مما علموه من صدق النبي وصحة ما أتى به (يَقُولُونَ رَبَّنَا) في موضع الحال، وتقديره قائلين (رَبَّنَا آمَنَّا) أي صدقنا بما أنزلت (فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) قيل في معناه قولان: أحدهما - فاجعلنا مع الشاهدين فيكون بمنزلة ما قد كتب ودون.

الثاني - فاكْتُبْنَا معهم في أم الكتاب وهو اللوح المحفوظ. و (الشَّاهِدِينَ) قال ابن عباس وابن جريج: مع أمة محمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) الذين يشهدون بالحق...^(٤) .

وقد جاء في تفسير جامع البيان ((قوله تعالى: (وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ)^(٥)).

١ - الحجر / ٤٥ - ٤٦.

٢ - تفسير القرطبي ، القرطبي : ١٠ / ٣١ - ٣٢.

٣ - المائدة / ٨٣.

٤ - تفسير التبيان ، الشيخ الطوسي : ٤ / ٣.

٥ - المائدة / ٨٣.

يقول تعالى ذكره: وإذا سمع هؤلاء الذين قالوا إنا نصارى الذين وصفت لك يا محمد صفتهم أنك تجدهم أقرب الناس مودة للذين آمنوا، ما أنزل إليك من الكتاب يتلى، ترى أعينهم تفيض من الدمع. وفيض العين من الدمع: امتلاؤها منه ثم سيلانه منها كفيض النهر من الماء، وفيض الإناء، وذلك سيلانه عن شدة امتلائه، وقوله: مما عرفوا من الحق يقول: فيض دموعهم لمعرفةهم بأن الذي يتلى عليهم من كتاب الله سبحانه الذي أنزله إلى رسول الله حق^(١).

وقال تعالى: (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ)^(٢)، فالسياق اللغوي هنا جاء مبني على التوكيد وقد أدت

مفردة (الماء) المعنوي من خلال إسناد الفعل (طَغَى) أي بمعنى (زاد الماء) فكان الطغيان هو المشبه به أو المستعار له بجامع المجاورة فأشتق من الطغيان بمعنى الزيادة على سبيل التشبيه والتبعية فأدت مفردة (الماء) أثرها الدلالي ، وكان الدواعي اللغوية لوجودها هنا لإظهار الصورة المريعة لزيادة ذلك (الماء) مفردة (طَغَى) بإسنادها إلى (الماء) أنتجت لنا حركة دلالية داخل السياق تبين هول الأمر فكانت الدواعي اللغوية متوافرة من خلال المسند والمسند إليه تبياناً لهول وعظمه ذلك الحدث .

وكما جاء في تفسير التبيان : (واصله تجاوز الحد في العظم ومنه قوله (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ) وطغيانهم كفرهم بالله، لأنهم تجاوزوا في ذلك الحد)^(٣).

وقد جاء في تفسير ابن كثير (قال تعالى: (وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ)^(٤) ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط وقد لبث

فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى الله عز وجل ويحذرهم نقمه (وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ)^(٥) ولهذا أغرقهم الله

جميعا ولم يبق منهم أحدا ولم يترك من بني آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط

(وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً)^(٦) أي عبرة يعتبرون بها كما قال تعالى: (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ * لِنَجْعَلَهَا

لَكُمْ تَذْكِرَةً وَبَعِثْنَا نُوحًا وَآدَمَ)^(١)، أي وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لجج البحار لتذكروا نعمة الله عليكم

من إنجائكم من الغرق وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمره)^(٢).

^١ - تفسير جامع البيان ، ابن جرير الطبري : ٧ / ٨ - ٩ .

^٢ - الحاقة / ١١

^٣ - التبيان ، الشيخ الطوسي : ٨ / ٩١

^٤ - الفرقان / ٣٧ .

^٥ - هود / ٤٠ .

^٦ - الفرقان / ٣٧ .

خلاصة البحث

للکلمة أثر مهم في منح السياق اللغوي حركة ينتج عنها المعنى القرآني المقصود ، وإن مجيء الكلمة في السياق القرآني هو الآخر مقصود ، إذ نلاحظ تخير اللفظ قد تواجد في النصوص القرآنية وكأن البناء الفني يقوم عليه لأنه مقصود بذاته ، وهذا ينتج بسبب الدواعي اللغوية التي فرضت هيمنتها على النص القرآني وأضحت سبباً لمجيء ذلك النص المقدس بالسياق اللغوي الذي هو عليه في كل نصوص القرآن الكريم متطابقة مع سبب النزول ، وما اقتضاه المراد الإلهي من نزول النص القرآني ، وهكذا نجد السياق اللغوي في

^١ - الحاقّة / ١١-١٢.

^٢ - تفسير ابن كثير ، ابن كثير : ٣ / ٣٣٠ - ٣٣١.

النص القرآني الذي قام على مستويين : المستوى السطحي والمستوى العميق للبنية الذي تربطه بصاحبه خصائص إعجازية لا يمكن أن تتحقق في النص البشري ، فثمة علاقة بين المستويين ، فالمعنى السطحي جاء ليحقق المعنى العميق والأخير جاء ليبين نساعة المستوى السطحي للنص ، فكل منهما يتباهى للآخر ويبين خصائص صاحبه ، لذلك فالنص القرآني وحدة سياقية تنصهر فيها الألفاظ ، لتتحد مع المعاني متحققة بسبب دواع لغوية أرادها الباري (عز وجل) فأودعها قرآنه المجيد.

المبحث الثاني

الدواعي الفنية لحركة كلمة

(الماء)

في النص القرآني

المبحث الثاني : الدواعي الفنية لحركة كلمة (الماء) في النص القرآني

تأتي الدواعي الفنية إشارة واضحة على قوة التعبير القرآني ؛ لأن القرآن الكريم معجزٌ بمفرداته وبسياقاته وبإيحاءاته وبكل ما يتصل بالنص، ولذا خضعت اللغة العربية إلى فطرة أهلها التي كانت منبثقة من قوتها

الكامنة فيهم، فوصلت الطاقة اللغوية عندهم إلى أرقى مراحلها، ولو لم يكن الأمر كذلك لما جاء القرآن متحدياً لهم في لغتهم (وهذا اعتراف ضماني بالرقى البياني عند هذه الأمة لأنهم لو لم يكونوا كذلك ما تحداهم القرآن الكريم في لغتهم)^(١)، ولما كانت الكلمات هي المهاد الأساس الذي تنمو به الفكرة فتصل إلى المتلقي بالصياغة فإن المعنى ينهض على وفق الصياغة الفنية فتصبح الدواعي الفنية أثراً مهماً في إيصال الفكرة إيصالاً محفوفاً بالذلة والاستئناس لدى المتلقي، لأن العمل الأدبي يتوقف على دقة الصياغة فضلاً عن الاعتماد على ما في قوة التعبير من الإيحاء بالمعاني عبر اللغة التطويرية الخاصة^(٢)، فالمعاني الجمالية وصلتها بالخلق الفني والأصالة وما تقدمه من صور تسهم في عملية تثبيت المعنى كلما تركز إلى الدواعي الفنية، مثلما القصد ألقولي باعث يكمن وراء صيرورته فإن الدواعي الفنية يكمن خلفها هي الأخرى باعث فني يؤدي إلى تركيز المعنى في ذهن المتلقي ويتم في الوقت نفسه بالصياغة الجميلة فيخترق أسوار المألوف سواء كانت القيم فنية خالصة أم تعبيرية خالية المضمون^(٣)، ومثلما تتكون الاستجابة الوجدانية لحركة الإبداع حين يأتي النص مكتنزاً بفنيته فإن الباعث يقف وراء الفعل الإبداعي^(٤)، فالدواعي الفنية ما هي إلا صياغات جمالية، نهضت على قصدية قرآنية، فأصبحت معبرةً بأساليب بلاغية من خلال احتوائها لمعنى الكلمة وحركتها في السياق؛ وبذلك باتت نتاج التفاعل بين القصد القرآني من جهة، وبين الصياغة المطلوبة لحمل ذلك القصد فنياً من جهة أخرى، وقد حفل القرآن الكريم بهذا الأمر فقد وجد البحث علاقة كبيرة بين هدف النص القرآني وبين الفنية التي جاء بموجبها، وكان الهدف القرآني أو الغرض المقدس لم يرتض إلا هذا الأسلوب الفني خياراً لإيصاله إلى المتلقي، من هنا كانت الدواعي الفنية حاضرةً في النص القرآني الكريم فلنتأمل النصوص القرآنية الكريمة ونشاهد العملية الوثيقة بين الداعي الفني والقصد القرآني والكلمة المنتقاة لتصبح بؤرة الحركة للسياق القرآني

الكلمة بؤرة الحركة في السياق القرآني

١ - البيان في مهمته البلاغية والوظيفة التأويلية ، د. صباح عنوز / ٢٧.

٢ - ظ: النقد الأدبي الحديث : محمد غنيمي هلال / ٤٠٨.

٣ - ظ: أثر البواعث في تكوين الدلالة البيانية ، د. صباح عنوز / ٥٢.

٤ - ظ: الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي ، د. عبد القادر فيدوح / ١٢٥.

قال تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ...)^(١)، إن نظرة على هذا النص

القرآني الكريم نجد لحركة الكلمة (مثل) حركة كبيرة إذ أنها ربطت السياق القرآني كاملاً وأصبحت البؤرة التي استندار حولها المعنى من جهة وفي الوقت نفسه أضحت الأساس للدواعي الفنية فمن حيث القصد القرآني إن الله (سبحانه وتعالى) مثل اليهود الذين أوتوا التوراة فحملوا على العمل بها وقد ذكرت فيها نبوة الرسول الأعظم (صلى الله عليه وعلى اله وسلم) لكنهم حين أمروا بالتصديق بها لم يتبعوه ولم يصدقوه فكان مثلهم في حمل التوراة وعدم العمل بها تمثل الحمار الذي يحمل الكتب على ظهره ولا ينتفع بها بل لا يعقل ما فيها وليس له إلا حمل الأثقال والتعب^(٢)، فكانت كلمة (مثل) التي وظفت حركتها ليبنى عليها التشبيه المركب القائم باعتبار وجه الشبه وبين المشبه به أساساً لقيام الدواعي الفنية ، التي أخذت بيد المعنى للوصول إلى هذا التفسير الذي ينص على أن (الحمار يحمل الكتب ولا يعلم ما فيها ولا يعمل بها كذلك بنوا إسرائيل قد حملوا مثل الحمار)^(٣)، فكان الغرض هو تشبيه حال اليهود بسبب جهلهم بما معهم من التوراة فمثلما يحمل الحمار أسفار الحكمة فهو لم يفهم ما فيها وليس له إلا الثقل والتعب من غير فائدة^(٤).

فقد تجلت الدواعي الفنية التي قام عليها النص القرآني عبر التشبيه المركب المنتزع من أحوال الحمار والتي حدثت فيها مقارنة بين حاله وهو يحمل خزائن وثمار العقل وبين جهله لما يحمل هذا من جانب ومن جانب آخر أعطت الدواعي الفنية صورة واضحة عن حال اليهود وركونهم الى الجهل وعدم الاعتراف بنبوة الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) ولما كان التشبيه أسلوباً فنياً مؤسساً للدواعي الفنية في هذا النص فإنه يوصف أداء بيانياً يصبح مثل (الوعاء الذي ينقل المحتوى إلى المتلقي فيتلون بشكل الوعاء هذا بثقافة المنشئ وقدراته التعبيرية وتفننه الإبداعي فكيف إذا كان المنشئ هو الله (سبحانه وتعالى) ، فالدواعي النفسية على علاقة وثيقة جداً بقصديه النص القرآني لأنها أداء (يحمل توافقاً بين الصورة والحدث والمراد والعلوم الأخرى بتوافق معلوماتي عجيب غريب ولا يقدر عليه البشر فضلاً عن الإحصاء الدقيق مع فنية النص القرآني)^(٥).

قال تعالى: (خَلَقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ)^(٦) جاء في تفسير هذه الآية الكريمة: ((الدفق - صب فيه دفع والدفق في الحقيقة

لصاحبه والإسناد إلى الماء مجاز، وعن بعض أهل اللغة، دفقت الماء دفقاً، صببته، ودفق الماء بنفسه: أي أنصب ولم يقل ماءين لامتزاجهما في الرحم وإتحادهما حين أبتدئ في خلقه...))^(٧).

١ - الجمعة / ٥.

٢ - ظ : جامع البيان في تأويل آية القرآن ، الطبري : ٢٨ / ١٢٤ و ظ : زاد المسير ، ابن الجوزي : ٨ / ٢١.

٣ - التفسير ، علي بن إبراهيم الكوفي : ٢ / ٣٦٦.

٤ - ظ : البرهان في علوم القرآن ، الزركشي : ١ / ٩٣.

٥ - الأداء البياني في لغة القرآن الكريم د. صباح عنوز / ٢٥.

٦ - الطارق / ٦ .

٧ - تفسير النسفي ، النسفي : ٤ / ٣٣١.

وقد فسرت الآية الكريمة في موضع آخر: ((بين تعالى من ماذا خلقهم فقال الدفق هو صب الماء الكثير باعتماد قوي، ومثله الدفع، فالماء الذي يكون منه الولد يكون دفقا وهي النطفة التي يخلق الله منها الولد إنسانا أو غيره، وماء دافق معناه مدفوق، ومثله شر كاتم، وعيشة راضية. ثم بين ذلك من أي موضع يخرج هذا الماء، فقال (يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ) فالصلب هو الظهر، والترائب جمع تربيته وهو موضع القلادة من صدر المرأة - في قول ابن عباس - وهو مأخوذ من تذليل حركتها كالتراب...وقيل: إن نطفة الرجل تخرج من ظهره، ونطفة المرأة من صدرها، فإذا غلب ماء الرجل خرج الولد إلى شبه أهل بيت أبيه وإذا غلب ماء المرأة خرج إلى شبه أهل بيت أمه.

وقوله (إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ) قال عكرمة ومجاهد: معناه إنه تعالى على رد الماء في الصلب قادر. وقال الضحاك: إنه على رد الإنسان ماء كما كان قادر، والرجع للماء...ومعنى الآية إن الذي ابتداء الخلق من ماء دافق أخرجه من بين الصلب والترائب حيا قادر على إعادته (يَوْمَ بَلَى السَّرَائِرُ) لأن الإعادة أهون من ابتداء النشأة...^(١)

وقد جاء في تفسير القرطبي تفسير لهذه الآية الكريمة: ((قوله تعالى: "خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ" ^(٢) والمراد منه أصلاب الرجال وترائب النساء، على ما يأتي بيانه.

وأما ما احتجوا به فليس فيه أكثر من أن الله تعالى ذكر خلق الإنسان من الماء والسلالة والنطفة ولم يضيفها إلى أحد الأبوين دون الآخر... وقد قال في قصة نوح "وَجَعَلْنَا الْأَرْضَ عَيُْونًا فَالْتَمَى الْمَاءَ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ" ^(٣) وإنما أراد ماء السماء وماء الأرض، لأن الالتقاء لا يكون إلا من اثنين، فلا ينكر أن يكون (ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ) ^(٤).

وقوله تعالى: (الْمَن خَلَقَكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ) ^(٥)، ويريد ماءين^(٦)

لنرصد هذا الأمر في كلمة (الماء) وهي تأتي بؤرة تستند عليها معاني النص القرآني في الوقت نفسه تصبح بؤرة للدواعي الفنية التي تجمع بين المعنى وبين الصياغة فإضافة الصفة (دافق) إلى (الماء) جعلت لمعنى المدفوق وهو مجاز عقلي بعلاقته من باب إطلاق اسم الفاعل على اسم المفعول فالأساس في (الماء) مدفوق؛

١ - تفسير التبيان ، الشيخ أبي جعفر محمد ابن الحسن ابن علي ابن الحسن الطوسي : ١٠ / ٣٢٤ - ٣٢٥.

٢ - الطارق/ ٦.

٣ - القمر/ ١٢.

٤ - السجدة/ ٨.

٥ - المرسلات/ ٢٠.

٦ - تفسير القرطبي، القرطبي: ٤٣٤/١٦.

لأنه يقع عليه التأثير فيندفق وليس هو الفاعل وهذا المعنى المجازي الذي كان أساساً للدواعي الفنية جاء ليؤكد المعنى القرآني والقصدية التي أقيم عليها هذا النص (ماء دافق) فالغرض هو إيصال هذا المعنى التفسيري إذ كانت الدواعي الفنية حاضرة فيه فجاءت الزيادة في المبالغة لقوة الماء الذي يخرج من الأصلاب لم تحمله قناة بيانية إلا المجاز العقلي عبر هذه العلاقة وهي علاقة المفعولية فقد أصبح المدفوق دافق مبالغة في سرعة اندفاعه فكانت العلاقة المفعولية هي الأساس الذي بنيت عليه الدواعي الفنية ؛ لأن العلاقة المجازية (مهمة في إيصال الدلالة الإيحائية عبر الترابط الوثيق بين العلاقة وفحوى الكلام في الإعجاز العقلي)^(١)، وهذا ما أكدته التفسير القرآني، إذا كانت الدواعي الفنية متعشقة مع فحوى الكلام التفسيري الذي اشرنا إليه ومن هنا فإن الترابط الوثيق بين الدواعي الفنية في النص القرآني وبين مراميها الموجه إلى المخاطب تلتحم التحاماً وثيقاً في إيصال المعنى الكلي المطلوب، فثمة كلمة تتحرك في السياق وتنتج سياقاً مبنياً على فنيته يقوم ببنائها صنف بلاغي يؤدي في نتيجته إلى المراد الإلهي ، والحق إن الدواعي الفنية تأخذ مجاًلاً إعجازياً كبيراً حين ندقق في صيرورتها وتعشيقها مع المعنى لنلاحظ قوله تعالى (وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ

مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)^(٢) إذا نظرنا إلى هذا السياق القرآني الكريم نجد كلمة (الماء) قد أدت أثرها في

عملية إنتاج المعنى ؛ لأن المعاني تقوم أساساً على نواة هي (الكلمة) تحرك سياقاتها وأبنيتهما وعبرها يتجه النص القرآني لإثبات قصدية أرادها الباري (عز وجل) لأن لدلالة كلمة (الماء) أثراً في منح النص المراد، فدلالة الكلمة على ما وضعت له من معنى حقيقي لا يمنع مطلقاً أن تنتشعب منها دلالات ترمز إلى فكرة معينه^(٣)، فحركة كلمة (الماء) كانت حلقة موصولة بين المعنى المراد والدواعي الفنية التي أريد منها أن تأتي حاملة لهذا القصد، فكان المجاز العقلي بحسب طرفية المسند والمسد إليه الطرفين المجازيين قد أسس لصورة حسية حركية أتت بها مفردتا (أنزل) و(أحيا) وهذه الدواعي الفنية أدت الغرض التفسيري الذي جاء في كتب التفسير.

فقد جاء في تفسير الميزان: ((وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ)^(٤) يريد إنبات الأرض بعدما انقطعت عنه بحلول الشتاء بماء السماء الذين هو المطر فتأخذ أصول النباتات وبزورها في

١ - الأداء البياني في لغة الحديث الشريف ، د. صباح عنوز / ٨٢.

٢ - النحل / ٦٥.

٣ - ظ : المعاني الثانية في الأسلوب القرآني، د. فتحي أحمد عامر / ٦٤.

٤ - النحل / ٦٥.

النمو بعد سكونها وهى حياة من سنخ الحياة الحيوانية وإن كانت اضعف منها وقد اتضح بالأبحاث الحديث إن للنبات من جراثيم الحياة ما للحيوان وان اختلفتا صورة وأثراً^(١).

وقد جاء في الأمثل تفسير هذه الآية الكريمة: ((وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ))^(٢).

لقد تناولت آيات قرآنية كثيرة مسألة إحياء الأرض بواسطة نزول الأمطار من السماء، فكم من أرض يابسة أو ميتة أحياناً أو أصابها الجفاف فأخرجها عن مجال الاستفادة من قبل الإنسان، ونتيجة لما وصلت إليه من وضع قد يخيل للإنسان أنها أرض غير منبثة أصلاً، ولا يصدق بأنها ستكون أرضاً معطاء مستقبلاً - ولكن، بتوالي سقوط المطر عليها وما يبث عليها من أشعة الشمس، ترى وكأنها ميت قد تحرك حينما تدب فيه الروح من جديد، فتسري في عروقها دماء المطر وتعادلها الحياة، فتعمل بحيوية ونشاط وتقدم أنواع الورود والنباتات، ومن ثم تتجه إليها الحشرات والطيور وأنواع الحيوانات الأخرى من كل جانب، وبذلك... تبدأ عجلة الحياة على ظهرها بالدوران من جديد. وخلاصة المقال أنه سيبقى الإنسان مبهوراً أمام تحول الأرض الميتة إلى مسرح جديد للحياة، وهذا بحق من أعظم عجائب الخلق. وهذا المظهر من مظاهر قدرة الخالق وعظمته (عز وجل) يدل بما لا يقبل الشك على إمكان المعاد، وما ارتداء الأموات لباس الحياة الجديد إلا أمر خاضع لقدرته سبحانه. وإنّ نعمة الأمطار (التي لا يتحمل الإنسان أي قسط من أمر إيجادها) دليل آخر على قدرة الخالق وعظمته سبحانه^(٣).

وجاء في تفسير الألوسي لهذه الآية الكريمة: ((... الله سبحانه وتعالى هو الحق أي الواجب الوجود لذاته لما شوه بعض الممكنات من الإنسان والنبات وغيرها وبالتالي باطل ضرورة فأنه تعالى هو الحق، ودليل الملازمة برهان التمانع، واستنتاج الثانية بأنه لو لم يكن سبحانه قادر على إحياء الموتى لما طور الإنسان في أطوار مختلفة حتى جعله حياً وأنزل من السماء ماء فأحى به الأرض بعد موتها والتالي باطل ضرورة إن الخصم لا ينكر أنه تعالى أحيا الإنسان وأحى الأرض فأنه تعالى قادر على إحياء الموتى ووجه الملازمة ظاهر.

واستنتاج الثالثة بأنه إذا كان الله تعالى قادراً على إحياء الموتى فهو سبحانه على كل شيء قدير لكنه تعالى قادر على إحياء الموتى فهو على كل شيء قدير، ووجه الملازمة أن المراد من الشيء الممكن وأحياء الموتى والقدرة على بعض الممكنات من دون بعض تنافي وجوب وجوده تعالى الذاتي ؛ وأيضاً إحياء الموتى أصعب الأمور عند الخصم المجادل حتى زعم أنه من الممتنعات فإذا ثبت أنه سبحانه قادر عليه بما سبق ثبت أنه

^١ - تفسير الميزان ، السيد الطباطبائي : ١٢ / ٢٨٨ .

^٢ - النحل / ٦٥ .

^٣ - تفسير الأمثل ، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : ٨ / ٢٣١ - ٢٣٢ .

تعالى قادر على سائر الممكنات بالطريق الأولى^(١)، ومهما يكن من أمر فإن المعنى التفسيري الذي ورد آنفا جاء متطابقاً مع الدواعي الفنية، فالمجاز العقلي الذي أسس لحركة آنية تمثلت في نزول المطر وبث الحياة واخضرار الأرض متطابقة تماماً مع حركة (الماء) التي أسهمت هي الأخرى في تثوير طاقات النص الإيحائية .

العلاقة بين الدواعي الفنية والغرض التفسيري

قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا)^(٢)، لقد جاءت الدواعي الفنية مرسومة

على مهاد التشبيه فأدت الفعل (جعل) ليؤدي الغرض التشبيهي ويمنحه قوةً في الدلالة على تحقق التشبيه وتيقنه فالدواعي الفنية كان ثوبها هنا التشبيه الذي أوصل لنا معنى فحواه إن (الماء) هو أصل نما منه البشر فكان الجعل التكويني له مبنياً عليه تأكيداً لقوله تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ)^(٣) فالدواعي الفنية إذ ما

قورنت علمياً بتكوين الإنسان فإن ذلك ينطبق على ما ذهب البحث إليه من أن الدواعي الفنية اتصالاً وثيقاً بالمعنى لأن الإنسان مثلاً خلق من (الْمَرْيَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِي يُمْنَى)^(٤)، وهذا ما يتماشى مع رؤية المفسرين، إذ جاء في

تفسير الصافي: ((وهو الذي خلق من الماء بشرا قيل يعني الذي خمر به طينة آدم (ع) ثم جعله جزء من مادة البشر ليجتمع ويسلسل ويقبل الأشكال بسهولة أو النطفة فجعله نسبا وصهرا فقسمه على قسمين ذوي نسب أي ذكورا ينسب إليهم وذوات صهر أي إناثا يصاهر بهن وكان ربك قديرا حيث خلق من مادة واحدة بشرا ذا أعضاء مختلفة وطباع متباعدة وجعله قسمين متقابلين، في الكافي عن الباقر عليه السلام والقمي عن الصادق عليه السلام انه سئل عن هذه الآية فقال إن الله تبارك وتعالى خلق آدم من الماء العذب وخلق زوجته من سنخه فبرأها من أسفل أضلاعه فجرى بذلك الضلع بينهما سبباً ونسباً ثم زوجها إياه فجرى بينهما بسبب ذلك صهراً فذلك قوله نسبا وصهرا فالنسب ما كان بسبب الرجال والصهر ما كان بسبب النساء وفي المجمع عن ابن سيرين نزلت في النبي (صلى الله عليه وآله) وعلي بن أبي طالب (عليه السلام) زوج فاطمة عليها وهو ابن عمه وزوج ابنته فكانت نسبا وصهرا وفي المعاني عن الباقر عن أمير المؤمنين (عليهما السلام) قال: إلا وإني مخصوص في القرآن بأسماء احذروا إن تغلبوا عليها فتضلوا في دينكم أنا الصهر يقول الله عز وجل وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وفي الأمالي بإسناده إلى انس بن مالك عن النبي (صلى الله عليه وآله) قال قلت له يا رسول الله علي أخوك قال نعم علي أخي قلت يا رسول الله صف لي كيف علي

١ - تفسير الألوسي ، الألوسي : ١٧ / ١٢١ .

٢ - الفرقان / ٥٤ .

٣ - النور / ٤٥ .

٤ - القيامة / ٣٧ .

أخوك قال إن الله عز وجل خلق ماء تحت العرش قبل أن يخلق آدم بثلاثة آلاف عام واسكنه في لؤلؤة خضراء في غامض علمه إلى أن خلق آدم فلما خلق آدم نقل ذلك الماء من اللؤلؤة فأجراه في صلب آدم إلى أن قبضه الله تعالى (سبحانه وتعالى) ثم نقله إلى صلب شيث فلم يزل ذلك الماء ينقل من ظهر إلى ظهر حتى صار في عبد المطلب ثم شقه عز وجل نصفين فصار نصفه في أبي عبد الله بن عبد المطلب ونصفه في أبي طالب فانا من نصف الماء وعلي من النصف الآخر فعلي أخي في الدنيا والآخرة ثم قرأ رسول الله (صلى الله عليه وآله) وهو الذي خلق من الماء بشرا الآية، وفي روضة الواعظين قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : خلق الله عز وجل نطفة بيضاء مكونة فنقلها من صلب إلى صلب حتى نقلت النطفة إلى صلب عبد المطلب فجعل نصفين فصار نصفها في عبد الله ونصفها في أبي طالب فانا من عبد الله وعلي من أبي طالب...))^(١).

وقد فسر القرطبي: ((قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا) فيه مسألتان:

الأولى - قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا) أي خلق من النطفة إنسانا. (فجعله) أي جعل الإنسان " نسبا وصهرا " .

وقيل: "من الماء" إشارة إلى أصل الخلقة في أن كل حي مخلوق من الماء. وفي هذه الآية تعديد النعمة على الناس في إيجادهم بعد العدم، والتنبيه على العبرة في ذلك. الثانية - قوله تعالى: (فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا) النسب

والصهر معنيان يعلمان كل قربي تكون بين آدميين. قال ابن العربي: النسب عبارة عن خلط الماء بين الذكر والأنثى على وجه الشرع، فإن كان بمعصية كان خلقا مطلقا ولم يكن نسبا محققا، ولذلك لم يدخل تحت قوله: "حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم" بنته من الزنا ؛ لأنها ليست ببنت له في أصح القولين لعلماننا وأصح القولين في الدين، وإذا لم يكن نسب شرعا فلا صهر شرعا، فلا يحرم الزنا بنت أم ولا أم بنت، وما يحرم من الحلال لا يحرم من الحرام، لان الله امتن بالنسب والصهر على عباده ورفع قدرهما، وعلق الأحكام في الحل والحرمة عليهما فلا يلحق الباطل بهما ولا يساويهما .)^(٢).

وجاء في تفسير نور الثقلين: ((حدثني أبي عن الحسن بن محبوب عن هشام بن سالم عن بريد العجلي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله عز وجل: وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا فقال: إن الله تبارك وتعالى خلق آدم من الماء العذب، وخلق زوجته من سنخه، فبرأها من أسفل أضلاعها، فجرى بذلك الضلع بينهما سبب نسب، ثم زوجها إياه فجرى بينهما بسبب ذلك صهرا، فذلك قوله: (نسبا

^١ - تفسير الصافي ، الفيض الكاشاني : ٤ / ١٩ - ٢٠ .

^٢ - تفسير القرطبي ، القرطبي : ١٣ / ٥٩ - ٦٠ .

وصهرا) فالنسب يا أبا بني عجل ما كان من نسب الرجال والصهر ما كان بسبب نسب النساء^(١)، فكان التشبيه يحمل سمات هذا المعنى ولا يتم المعنى إلا به ؛ لأن التشبيه قدرة في إيضاح الدلالة وبيان حال المشبه البشر فكانت كلمة (الماء) هي النواة التي بني عليها المراد الإلهي من كونها الأساس الذي خلق منها البشر ثم جاءت عبارة (فجعلله نسباً وصهراً مرتبطاً فنياً بكلمة (الماء) فأصبحت هذه المفردة متوسطة بين خلق البشر منها من جهة ومن كونها الأساس في جعل البشر نسباً وصهراً فالدواعي الفنية هذه أسست للمعنى وأصبحت حاملة له معتمدة على حركة الكلمة ؛ لان للكلمة أسساً تقوم عليها الوسائل اللغوية التي (لا يعتد بها إلا إذا كانت تساعد على الإفضاء إلى البغية أو تعين على بلوغ الغرض)^(٢)، فضلا عن إن أساس الدواعي الفنية هي اللغة التي تقع عليها (وجوه تصريف الكلام لأداء مختلف الوظائف لاسيما الوظيفة (الفهم والإفهام)^(٣)، فالعلاقة بين الدواعي الفنية والأبنية السياقية اللغوية مهمة في إظهار الدلالة بتقنية عالية ، وتعتمد هذه التقنية على علمي (المعاني والبيان) فهما علمان مختصان بالقران وأساس علم التفسير وعلى صلة كبيرة بتركيب الجملة^(٤)، ومن هنا فان الدواعي الفنية أكثر ما ترسم على هذين العلمين .

قال تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)^(٥).

(الماء . بالفتح ، مياه وأمواه ، سائل تستمد منه جميع الكائنات حياتها وهو ما ينبع من الأرض أو ينزل من السماء لا طعم له ولا رائحة ولا لون ...) ^(٦).

لنتأمل هذه الآية المباركة وما جاء فيها من أعجاز ، فقد علل الله سبحانه وتعالى سبب الحياة في الخلق هو وجود (الماء) فيه فلو لا مشيئة الله و(الماء) الذي هو سبب للحياة لما كان هنالك وجود لها ، فقد (نسب الله سبحانه وتعالى كل شيء حي إلى الماء ولم ينسب الماء لشيء)^(٧) وجاء عن أمير المؤمنين (عليه السلام) (قال: (الماء سيد الشراب في الدنيا والآخرة)^(٨)، وجاء عن الإمام الصادق (عليه السلام) حينما سأله رجل عن طعم الماء: (سل تفقها ، ولا تسأل تعنتا ، طعم الماء طعم الحياة)^(٩).

وجاء في تفسير الآية الكريمة : ((إن الله (سبحانه وتعالى) خلق جميع الأحياء من ماء الذكر والأنثى، وإن كل شيء من الكائنات الحية يحتاج إلى الماء في حياته،... لأن الماء يدخل في بناء أي جسم حي إذ هو في الحقيقة

١ - تفسير نور الثقلين ، الشيخ الحويزي : ٤ / ٢٣ .

٢ - التفكير البلاغي عند العرب ، حمادي صمود / ٢٠٠ .

٣ - المصدر نفسه / ٢٠٢ .

٤ - ظ: الكشاف الزمخشري : ١ / ١٣ و ١ / ٩٥ .

٥ - الأنبياء / ٣٠ .

٦ - معجم لغة الفقهاء ، محمد قلعجي / ٣٩٥ .

٧ - تفسير القمي : ٢ / ٤٥ .

٨ - وسائل الشيعة ، الحر العاملي : ٢٥ / ٢٣٤ ، الباب الأول من أبواب الاشرية المباحة ، الحديث ٦ .

٩ - المصدر نفسه .

قوام حياته، فالماء في نظر العلم هو المكون الأصلي في تركيب مادة الخلية، كما إن علم الكيمياء في أبحاثه الحديثة قد أثبت إن الماء عنصر لازم وفعال في كل ما يحدث من التحولات والتفاعلات التي تتم داخل الأجسام فهو إما وسط أو عامل مساعد أو داخل في هذا التفاعل أو ناتج عنه، وتقول الآيات الكريمة في قصة خلق آدم... (عليه السلام) إنه خلق من طين، والطين هو خليط من الماء والتراب أي إن الماء عنصر أساسي في تكوين أي شيء حي^(١).

وجاء في تفسير القرطبي (قوله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ) ثلاث تأويلات: أحدها: أنه خلق كل شيء من الماء، قاله قتادة.

الثاني - حفظ حياة كل شيء بالماء.

الثالث - وجعلنا من ماء الصلب كل شيء حي، قاله قطرب.

"وجعلنا " بمعنى خلقنا.

وروى أبو حاتم البستي في المسند الصحيح له من حديث أبي هريرة قال: قلت يا رسول الله ! إذا رأيتك طابت نفسي، وقرت عيني، أنبئني عن كل شيء، قال: (كُلُّ شَيْءٍ حَيٍّ أَقْلًا يُؤْمِنُونَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ) الحديث، قال أبو حاتم قول أبي هريرة: " أنبئني عن كل شيء " أراد به عن كل شيء خلق من الماء " والدليل على صحة هذا جواب المصطفى إياه حيث قال: (كل شيء خلق من الماء) وإن لم يكن مخلوقا^(٢).

وقال تعالى : (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا

يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا)^(٣) أنت كلمة (الماء) لتكون بحركتها رابطة بين

الاستغاثة فهي المغيث وبين التشبيه المرسل الذي بني عليها بأداة التشبيه فذكرت الأداة هنا لتبين قوة المقارنة وإظهار التميز ؛ لان من ميزة هذا التعبير (حصول حالة الاستقرار الفكري على شيتين لتبيان حالة المقارنة فيهما ومن ثم الحكم على قصدية الكلام)^(٤) فكانت الدواعي الفنية مؤسسه على التشبيه المرسل فأصبح (الماء الحار هنا هو المغيث لهم، أي إن العذاب يقع في أشده من دون رحمة فكانت هذه العودة التي أسستها حركة كلمة (الماء) قد أعطت بعدا معنويا يفيد في جعل المتلقي أكثر تأمل ومقارنة في استنتاج المعاني الواقفة خلف هذا التعبير ومن المعروف إن هذه الصورة المخيفة المرعبة التي جاءت بأسلوب بياني وقفت وراءه دواع فنية

١ - القرآن وإعجازه العلمي ، محمد إسماعيل إبراهيم / ٨٥ - ٨٦.

٢ - تفسير القرطبي ، أبي عبد الله محمد بن احمد الأنصاري القرطبي : ١١ / ٢٨٤.

٣ - الكهف / ٢٩.

٤ - الأداء البياني في لغة القرآن الكريم ، د . صباح عنوز / ٣٤.

لم تبعد كثيراً عن المعنى الذي نصت عليه أسباب النزول بل طابقتها، إذ إن المجرمين يلاقون اشد العذاب وأكثره إيلا ما اقترفوه في دنياهم .

جاء في تفسير الآية الكريمة: ((أَنَّ الْقُرْآنَ يَقُولُ لِلرَّسُولِ (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) - بصراحة - في الآية التي بعدها: (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ)).

ولكن اعلّموا أَنَّ هؤلاء عباد الدنيا الذين يسخرون من الألبسة الخشنة التي يرتديها أمثال سلمان وأبي ذر خاصة، والذين يعيشون حياة مُرفهة باذخة وملينة بالزينة، ستنتهي عاقبتهم إلى سوء وظلام وعذاب: (وَقُلِ الْحَقُّ

مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِسُرِّ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا^(١) .

نعم، إنهم كانوا إذا عطشوا في هذه الدنيا كان الخدم يطلبون لهم أنواع المشروبات، ولكنهم عندما يطلبون الماء في جهنم يوتي إليهم بماء كالمهل: (وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ). (بِسْرِ الشَّرَابِ). ثم (وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا).

١- "مهل" على وزن "فعل" وهي تعني كما يقول الراغب في المفردات: هي المقدار المترسب من الدهن والذي يكون عادة ملوثاً بأشياء وسخة وردئة الطعم، إلا أنَّ بعضاً آخر من المفسرين يقولون بأنها تعني أي معدن مذاب ، والظاهر أنَّ تعبير (يَشْوِي الْوُجُوهَ) يُرَجَّحُ المعنى الثاني.

٢- "مرتفق" من كلمة "رفق ورفيق" بمعنى محل اجتماع الأصدقاء. تصوروا هل يمكن شرب الماء الذي إذا اقترب من الوجه فإنَّ حرارته تشوي الوجه؟ إن ذلك بسبب أنَّهم شربوا في الدنيا أنواع المشروبات المُنعشة والباردة، في حين أنَّهم أججوا في قلوب المحرومين نيراناً، إنَّ هذه النار هي نفسها التي تجسدت في الآخرة بهذا الشكل. والطريف في أمر هؤلاء أنَّ القرآن ذكر لهم بعض "التشريفات" وهم في جهنم. لقد كان لهؤلاء في حياتهم الدنيا (سرادق) عالية وباذخة ليسَ فيها نصيب للفقراء، وهذه السرادق ستحوّل إلى خيام عظيمة من لهيب نار جهنم! وفي هذه الدنيا تتوفر لديهم أنواع المشروبات التي تحضر بين أيديهم بمجرد مُناداة الساقى، وفي جهنم يوجد أيضاً ساق وأشربة، أمّا ما هو نوع الشراب؟ إنَّه ماء كالمعدن المذاب! حرارته كحرارة دموع اليتامى وآهات المستضعفين والفقراء الذين ظلمهم هؤلاء الأغنياء! نعم، إنَّ كل ما هو موجود هناك (في الآخرة) هو تجسيد لما هو موجود هنا (في الدنيا). وبما إنَّ أسلوب القرآن أسلوب تربوي وتطبيقي، فإنَّه بعدما

بيّن أوصاف وجزاء عبيد الدنيا، ذكر حال المؤمنين الحقيقيين وجوائزهم الثمينة الغالية التي تنتظرهم جزاء ما فعلوا. لقد أجملت الآية كل ذلك بشكل مُختصر، ثم بشكل تفصيلي نوعاً ما^(١).

وقد جاء أيضاً في تفسير قوله تعالى: ((وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ...))^(٢) يتجرعه يتكلف جرعه

ولا يكاد يسيغه ولا يقارب أن يسيغه فكيف يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان أي أسبابه من الشدائد فيحيط به من جميع الجهات وما هو بميت فيستريح ومن ورائه ومن بين يديه عذاب غليظ أي يستقبل في كل وقت عذاباً أشد مما هو عليه. عن العياشي عن الصادق عليه السلام عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين عليهم السلام: إن أهل النار لما غلى الزقوم والضريع في بطونهم كغلي الحميم سألوا الشراب فأتوا بشراب غساق وصيد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ حميم تغلي به جهنم منذ خلقت كالمُهْل يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَقَاً^(٣).

وجاء في تفسير ابن كثير بخصوص هذه الآية الكريمة: ((قوله: (وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ...))

قال ابن عباس: المهل الماء الغليظ مثل دردي الزيت، وقال مجاهد: هو كالدّم والقح، وجاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد بإسناده المتقدم في سرائق النار عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال "ماء كالمهل" قال كعكر الزيت فإذا قرب به إليه سقطت فروة وجهه فيه وهكذا رواه الترمذي في صفة النار من جامعه من حديث رشدين بن سعد عن عمرو بن الحارث عن دراج وقال سعيد بن جبيرة: إذا جاع أهل النار استغاثوا فأغيثوا بشجرة الزقوم فيأكلون منها فأختلبت جلود وجوههم فلو أن ماراً مر بهم يعرفهم لعرف جلود وجوههم فيها ثم يصب عليهم العطش فيستغيثون فيغاثون بماء كالمهل وهو الذي قد انتهى حره فإذا أدنوه من أفواههم اشتوى من حره لحوم وجوههم التي قد سقطت عنها الجلود ولهذا قال تعالى بعد وصفه هذا الشراب بهذه الصفات الذميمة القبيحة "بئس الشراب" أي بئس هذا الشراب كما قال في الآية الأخرى: "وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم" وقال تعالى: "تسقى من عين آنية" أي حارة كما قال تعالى "وبين حميم أن"، "وساءت مرتقفاً" أي وساءت النار منزلاً ومقيلاً ومجتمعا وموضعا للارتفاق كما قال في الآية الأخرى "إنها ساءت مستقراً ومقاماً"^(٤).

العلاقة بين حركة الكلمة والأسلوب الفني في النص القرآني

١ - تفسير الأمل، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي: ٢٥٧ / ٩ - ٢٥٨.

٢ - الكهف / ٢٩.

٣ - تفسير الصافي، الفيض الكاشاني: ٨٣ / ٣.

٤ - تفسير ابن كثير، ابن كثير: ٨٦ / ٣ - ٨٧.

فالدواعي الفنية في النص القرآني ذات علاقة في حركة الكلمة في السياق من جهة وبالأسلوب الفني الذي يرسم ملامح تلك الدلالة من جهة وبالقصد التنفيذي الذي نصت عليه أسباب النزول تأمل قوله تعالى (وَالَّذِينَ

كَفَرُوا أَعْمَالَهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعٍ يَخْسِبُهُ الظُّلُمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ

الْحِسَابِ)^(١) فالمتأمل لمبنى الدواعي الفنية يجده قد قام على التشبيه ذي الطرفين المختلفين الأول (المشبه)

والثاني (المشبه به المركب) فشبهه عمل الكافر الذي يضيع هباءً ويذهب سداً بعد أن يفقد أمله فيه بسراب يراه الضمآن ماءً وقد غلبه العطش في الفلاة فيحسبه ماءً ثم يسرع إليه فلا يجده وتتحطم آماله وتشتد آلامه ، فكلمة (ماء) كانت مشبه به آخر عبر الفعل (يحسب) الذي يؤدي غرض الأداة فكانت الصورة قائمة على رسم صورة مركبة وضحت مغزى النص القرآني الكريم في توضيح حالة الكافر فأستوى فيه وجه الشبه لصورة منتزعة من أوصاف متمازجة في كيان أستظل تحت مظلة الدواعي الفنية فأرتبط بالمغزى التفسيري الذي أكدته كتب التفسير (((السراب) ما يرى في الفلاة وقت الظهيرة من ضوء الشمس يسرب على وجه الأرض كأنه ماء يجري . و (القيع) المبسوط من الأرض ، شبه أولاً سبحانه ما يعمل به من لا يعتقد الإيمان ولا يتبع الحق - من الأعمال الصالحة التي يحسبها منفعة عند الله ومنجاة من عذابه - ثم يخيب في العاقبة أمله ويلقى خلاف ما قدر بسراب يراه الكافر بالساهرة وقد غلبه العطش يوم القيامة فيأتيه فلا يجد ما رجاء ويجد زبانية جهنم عنده فيأخذونه ويلقونه في جهنم ويسقونه الحميم والغساق))^(٢).

فقد جاء في تفسير هذه الآية الكريمة: ((قوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالَهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعٍ يَخْسِبُهُ الظُّلُمَانُ

ماء...)^(٣) إلى آخر الآية.

السراب هو ما يلعب في المفازة كالماء ولا حقيقة له، والقيع والقاع هو المستوى من الأرض ومفرداهما القيع والقاعة كالتينة والتمرة، والظمآن هو العطشان. لما ذكر سبحانه المؤمنين ووصفهم بأنهم ذاكرون له في بيوت معظمة لا تلهيهم عنه تجارة ولا بيع، وأن الله الذي هو نور السماوات والأرض يهديهم بذلك إلى نوره فيكرمهم بنور معرفته قابل ذلك بذكر الذين كفروا فوصف أعمالهم تارة بأنها لا حقيقة لها كسراب بقيعة فلا غاية لها تنتهي إليها، وتارة بأنها كظلمات بعضها فوق بعض لا نور معها وهي حاجزة عن النور، وهذه الآية هي التي تتضمن الوصف الأول. فقله : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالَهُمْ كَسْرَابٍ بِقِيَعٍ يَخْسِبُهُ الظُّلُمَانُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ

١ - النور / ٣٩.

٢ - الحاشية على أصول الكافي ، السيد بدر الدين بن أحمد الحسيني العاملي / ١٤٤.

٣ - النور / ٣٩.

يَجِدُهُ شَيْئًا^(١) شبه أعمالهم - وهي التي يأتون بها من قرابين وأذكار وغيرهما من عباداتهم يتقربون بها إلى آلهتهم - بسراب بقيقة يحسبه الإنسان ماء ولا حقيقة له يترتب عليها ما يترتب على الماء من رفع العطش وغير ذلك. وإنما قيل: يحسبه الظمان ماء مع أن السراب يتراءى ماء لكل راء ؛ لأن المطلوب بيان سيره إليه ولا يسير إليه إلا الظمان يدفعه إليه ما به من ظمأ، ولذلك رتب عليه قوله: "حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا"، كأنه قيل: كسراب بقيقة يتخيله الظمان ماء فيسير إليه ويقبل نحوه ليرتوي ويرفع عطشه به، ولا يزال يسير حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً. والتعبير بقوله: "جاءه" من دون أن يقال: بلغه أو وصل إليه أو انتهى إليه ونحوها للإيماء إلى أن هناك من يريد مجيئه وينتظره انتظاراً وهو الله سبحانه، ولذلك أرفقه بقوله: "ووجد الله عنده فوفاه حسابه" فأفاد أن هؤلاء يريدون بأعمالهم الظفر بأمر تبعثهم نحو فطرتهم وجبلتهم وهو السعادة التي يريدها كل إنسان بفطرته وجبلته لكن أعمالهم لا توصلهم إليه، ولا أن الآلهة التي يبتغون بأعمالهم جزاء حسناً منهم لهم حقيقة بل الذي ينتهي إليه أعمالهم و يحيط هو بها ويجزيهم هو الله سبحانه فيوفيه حسابهم، وتوفيه الحساب كناية عن الجزاء بما يستوجبه حساب الأعمال وإيصال ما يستحقه صاحب الأعمال. ففي الآية تشبيه أعمالهم بالسراب، وتشبيههم بالظمان الذي يريد الماء وعنده عذب الماء لكنه يعرض عنه ولا يصغى إلى مولاه الذي ينصحه ويدعوه إلى شربه بل يحسب السراب ماء فيسير إليه ويقبل نحوه، وتشبيه مصيرهم إلى الله سبحانه بحلول الآجال وعند ذلك تمام الأعمال بالظمان السائر إلى السراب إذا جاءه وعنده مولاه الذي كان ينصحه ويدعوه إلى شرب الماء. فهؤلاء قوم ألها عن ذكر ربهم والأعمال الصالحة الهادية إلى نوره وفيه سعادتهم وحسبوا أن سعادتهم عند غيره من الآلهة الذين يدعونهم، والأعمال المقربة إليهم وفيها سعادتهم فأكبوا على تلك الأعمال السرابية استوفوا ما يمكنهم أن يأتوا بها مدة أعمارهم حتى حلت آجالهم وشارفوا الدار الآخرة فلم يجدوا شيئاً مما يؤملونه من أعمالهم ولا أثراً من إلهية آلهتهم فوفاهم الله حسابهم والله سريع الحساب^(٢).

وجاء في تفسير الجلالين : ((وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ) جمع قاع: أي في فلاة وهو شعاع يرى فيها نصف النهار في شدة الحر يشبه الماء الجاري (يحسبه) يظنه (الظمان) أي العطشان (ماء حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) مما حسبه كذلك الكافر يحسب أن عمله كصدقه ينفعه حتى إذا مات وقدم على ربه لم يجد عمله (أي لم ينفعه)^(٣).

١ - النور / ٣٩.

٢ - تفسير الميزان ، السيد الطباطبائي : ١٥ / ١٣٠ - ١٣١.

٣ - تفسير الجلالين - المحلي - السيوطي / ٤٦٥.

البحث الثالث

الأسس التفسيرية

للکمة في النص القرآني

الأسس التفسيرية

لاشك أن نزول القرآن الكريم قد حرك القدرة التأملية عند العرب؛ لأن القرآن الكريم كان معجزاً في كلامه وليس هو الإعجاز الأول؛ لأنه معجزة عقلية قد سايرت العقل البشري وكان الإعجاز البياني المرحلة الأولى التي أفحمت العقل العربي وقهرت قدرته البيانية^(١).

وهذا الأمر جعل الكتاب الذين تأملوا في كتاب الله (سبحانه وتعالى) وفسروا ألفاظه ووضحوا معانيه ومقاصده وأهدافه جعلهم يغورون في تأملات نصوصه ويقفون عند قوله الجميل الموشى بفنونه وروعة بيانه، فذهب جمع إلى إظهار كل ذلك والوقوف على أسرار القول فيه عبر وسائلهم المختلفة، فكان المفسرون قد الصقوا بهذا العمل الشريف وهو التفسير فحاضوا بمباحث القرآن الكريم ووضعوا مقدمات لتفاسيرهم كما هي الحال في مقدمة تفسير الطبري وتفسير الكشاف للزمخشري وانتبهوا إلى فخامة الأسلوب وعظيم بنائه، وراحوا يضعون مقدمات للبلاغة والبيان؛ لأنهم أكدوا إنما القرآن الكريم كان قائماً على المعاني والبيان حتى قال السكاكي (ت: ٦٢٦هـ) مقللاً من شأن المفسر الذي لا يفهم علمي المعاني والبيان: (فالويل كل الويل لمن يتعاطى التفسير وهو فيهما راجل)^(٢)، فنمت البلاغة وربت منتشية في رحاب القرآن الكريم فتسابق المفسرون إلى ملاحظة مسارب ومشارب البلاغة واستعانوا بهذين العلمين وجعلوها عدة لهم لمعرفة فنية النص ودلالته فظهرت لنا تعريفات مهمة في هذا المجال عنيت بالبلاغة بوصفها آلة وعدة للمفسر فقد ورد عن الإمام علي (عليه السلام) (البلاغة إفصاح قول عن حكمة مستعلقة وإبانة عن مشكل)^(٣)، وبذلك أصبحت البلاغة علماً محترماً وحين غدا (القرآن القطب الذي تدور حوله مختلف المجهولات الفكرية والعقائدية للمسلمين ومنطلق تلك المجهودات وغايتها في الوقت نفسه)^(٤) فإنه له أثر في نمو علمي البلاغة والبيان من جهة وأصبح هذان العلمان من آليات التفسير التي لا يبتعد عنها المفسر مطلقاً فكانت العلاقة بين الكلمة والسياق والصورة الفنية والمعنى التفسيري في النص القرآني محط اهتمام العلماء في ذلك، وفي الوقت نفسه أدى ذلك إلى قضية مهمة اتصلت بإعجاز القرآن، فظهرت علاقة وثيقة متصلة بين الدواعي التفسيرية من جهة وبقضية الأعجاز من جهة أخرى، والأخيرة ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالتفسير فأصبح النص القرآني لفظاً ومعنى وصورة وإعجازاً ومرامي إلهية مسيطرة العقل الإنساني على مر الزمان كلها منصهرة في بناء واحد لا يقوى عليه البشر سوى إنهم يتناولون مباحث معينه منهم للاستزادة ومعرفة ما يرد في تلك المباحث من قيم فنية ومعنوية منها (فتمتد محاولات التفسير الأولى التي تعود إلى فترة ما يسمى (التفسير بالمأثور)، ورأى البحث أن يتعرض أولاً لمعنى التفسير وما هو غرضه ليتسنى الولوج بالدواعي التفسيرية لآي القرآن الكريم.

١ - ظ : الأداء البياني في لغة القرآن الكريم ، د . صباح عباس عنوز / ١٧ .

٢ - مفتاح العلوم ، للسكاكي / ٧٧ .

٣ - الصناعتين ، لأبو بلال العسكري / ٥٨ .

٤ - التفكير البلاغي عند العرب ، حمادي صمود / ٣٤ .

فر) "التفسير لغة: البيان والكشف"^(١)، فتفسير الكلام هو الكشف عن مدلوله وبيان معناه، وقد وردت هذه اللفظة في القرآن الكريم بهذا المعنى أيضاً، في قوله تعالى: (وَلَا تَأْتُونَكُمْ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا)^(٢).

وبناء على هذا التعريف، فهل يختص التفسير بحالة ما إذا لم يكن للفظ ظهور فيكون إظهاره تفسيراً؟ أم أن التفسير عام وشامل لحالة بيان المعنى الظاهر؟ هناك اتجاهات مختلفة في الإجابة عن هذا التساؤل، نذكر منها اتجاهين: الأول: الاتجاه الذي يمثل الرأي السائد لدى علماء أصول الفقه والذي يرى أن التفسير لا يكون إلا في: أ - إظهار أحد احتمالات اللفظ مع تساويها، وإثبات أنه هو المعنى المراد.

ب - إظهار المعنى الخفي غير المتبادر، وإثبات أنه هو المعنى المراد بدلاً من الظاهر المتبادر. وأما ذكر المعنى الظاهر المتبادر من اللفظ فلا يكون تفسيراً.

الثاني: وهناك اتجاه آخر - وهو الصحيح - يرى أن ذكر المعنى الظاهر قد يكون في بعض الحالات تفسيراً أيضاً وإظهاراً لأمر خفي، كما أنه في بعض الحالات الأخرى قد لا يكون تفسيراً لأن المعنى يكون واضحاً وليس فيه خفاء أو غموض، وقد اصطلاح على الظهور الأول (بالظهور المعقد) وعلى الثاني (بالظهور البسيط). والتفسير على نوعين تفسير اللفظ وتفسير المعنى: والتفسير على قسمين بلحاظ الشيء المفسر، وهما:

الأول - تفسير اللفظ: ويراد به بيان معنى اللفظ لغة. ثانياً - تفسير المعنى: ويراد به تحديد مصداقه الخارجي الذي ينطبق عليه. فنحن نقرأ في القرآن الكريم - مثلاً - كلمات تصف الله سبحانه وتعالى بالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والكلام و...، كقوله تعالى: (اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...)^(٣). (حم * نَزَّلَ الْكِتَابَ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)^(٤).

(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)^(٥).

(قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)^(٦).

١ - لسان العرب ، لأبن منظور مادة (فسر) : ٢ / ٣٣.

٢ - الفرقان / ٣٣.

٣ - البقرة / ٢٥٥ .

٤ - غافر / ١ و ٢ .

٥ - الملك / ١ .

٦ - المجادلة / ١ .

(أَقْتَطَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (١).

أو كلفظة (أهل البيت) في قوله تعالى: (... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) (٢).

ونواجه بالنسبة إلى هذه الكلمات وأمثالها بحثين، هما: الأول: البحث في مفاهيم هذه الكلمات من الناحية اللغوية وهذا هو (التفسير اللفظي).

الثاني: البحث في تعيين مصاديق هذه المفاهيم .

فبالنسبة إلى الله تعالى، كيف يسمع ؟ وبأي شيء؟ وكيف يعلم؟...، وبالنسبة لأهل البيت (عليهم السلام)، من هم هؤلاء ؟ وهل (المصداق) هو زوجات النبي (صلى الله عليه وآله) ؟ أم الخمسة (محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين) (عليهم السلام)؟... وهذا هو (تفسير المعنى) ((((٣).

وقد اعترضت المفسرين مشكلة المجاز القرآني واجتهدوا بتأويلات من دون أن تطرح القضية كمبحث لغوي أصلي^(٣)، وبذلك أصبح للكلمة حضور كبير في حركة السياق فابتنت عليه آراء المفسرين ، فهناك من أخذ بظاهر اللفظ وهناك من ذهب إلى اعتماد غير الظاهر في القول وراحوا يلتفتون إلى المجاز وبسبب ذلك كان للعدول أثرٌ واضح في الوقوف على تأويلات النص القرآني ولا شك أن ذلك قادهم إلى المقاصد الفنية لاستعمال الكلام ونبههم أيضاً إلى الدقة المتناهية في الاستعمال القرآني الكريم والنظر إلى علاقة المفردة (الكلمة) بالسياق فمثلاً كان إبراهيم بن المدبر (ت: ٢٧٩هـ) وهو معاصر إلى الجاحظ قد تأثر بأرسطو متحدثاً عن أنواع الدوال وضروب الوسائط التي يمكن أن تؤدي استعمالات الرموز اللغوية يقول:

(والدال على المعنى أربعة أصناف لفظ وإشارة وعقد وخط وذكر أرسطاليس خامساً وهو النصبية)^(٤)، ويبدو إن الجاحظ قد تأثر به ، ويظهر لنا إن استعمال الكلمة في غير ما هو لها قد حظي باهتمامهم وراحوا يتابعون ذلك المضمون في التراث العالمي كما قال ابن المدبر قولاً منسوباً إلى أرسطو (البلاغة حسن الاستعارة)^(٥) فلأخذ الكلمة ووضعها موضعاً آخر أثرٌ مهم في إيضاح وتفسير أي نص ولما كان النص القرآني قد شغل بال المفسرين والكتاب والباحثين فإن البحث سيلتفت إلى حركة الكلمة بحسب الدواعي التفسيرية فقد تأتي الكلمة راكزة في النص ومؤدية غرضها التفسيري بالدواعي التي أريدت لها أو الأهداف التي جاءت من أجلها الكلمة

١ - البقرة / ٧٥.

٢ - الأحزاب / ٣٣.

٣ - تفسير سورة الحمد ، السيد الشهيد محمد باقر الحكيم : ١٦ - ١٧

٤ - ظ : التفكير البلاغي عند العرب / ٣٩.

٥ - الرسالة العذراء ، ابن المدبر / ٤٠.

٥ - المصدر نفسه / ٤٦.

ليُتَبَيَّنَ ذلك في قوله تعالى (مِنْ مَرَاتِهِ جَهَنَّمُ يُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ * يَجْرَعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا

هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ مَرَاتِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ)^(١)

عند تأملنا لهذا النص القرآني الكريم نجد كلمة (ماء) قد أخذت حركة سياقيه مهمة بنعتها بكلمة صديد وفي الوقت نفسه أدت وظيفة تفسيرية حينما أكتمل السياق وأصبحت رابطاً مهماً بين السقيا وعدم الاستساغة (فماء صديد) هو تفسير لقوله تعالى (بماء كالمهل) فإذا دنا العطشان من أهل النار شوي وجهه فوقعت فروة رأسه ، وهو نفسه المفسر بـ (ماء حميماً) بقوله تعالى: (وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ)^(٢) أي شديد الحرارة إذا

شربه أهل النار قطع أمعاءهم^(٣) والصديد هو ما يسيل من جلود أهل النار^(٤) من قيح ودم أو ما يسيل من فروج الزواني وهو الماء الذي يسقى منه أهل النار^(٥) وراح آخرون ليفسروه بأنه ما يخرج من جوف الكافر حين يخالط القيح الدم^(٦) وذهب بعض من المفسرين على إن الصديد بمعنى إن الله تعالى يخلق من جهنم ما يشبه الصديد في النتن والغلظ والقذارة فتصد راحته وقذارته من يتقرب منه^(٧)، وحين سألت أسماء بنت يزيد بن سكت (أم سلمة) الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) (ما طينة الخبال؟) قال: صديد أهل النار) فهذه إشارة من الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) بأن الصديد كالمهل وهو ماء حميماً إشارةً إلى حرارته وقذارته ونتاجه ، فكانت مفردة الماء قد أدت أثرها التفسيري هنا وأوضحت لنا الحال التي يكون عليها الكافرون في ذلك اليوم؛ لأن الكلمة تؤدي أثرها الفني والمعنوي والتفسيري من خلال انتظامها في سياق النص القرآني، ولما كان الأخير نصاً معجزاً فإن للكلمة حركةً تموجيةً تربط أول النص بآخره وتربط فنية القول بالمنحى التفسيري ، ويمكن أن نمثل ذلك بمخطط توضيحي كما في المخطط الآتي :

١ - إبراهيم / ١٦-١٧.

٢ - محمد / ١٥ .

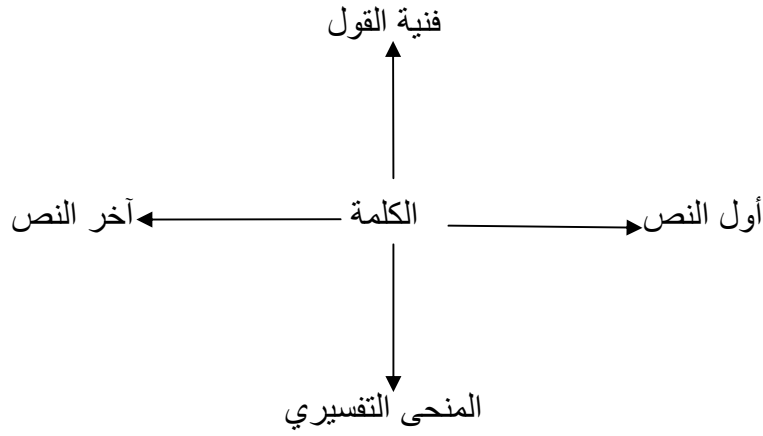
٣ - ظ : مسند احمد بن حنبل : ٥ / ٢٦٥ و سنن الترمذي : ١٠٦/٤ او جامع البيان ، الطبري : ٦٤/٦ و الإتيقان ، للسيوطي : ٥١٧ / ٢.

٤ - ظ: الكشاف ، الزمخشري : ٥٥٥/٢.

٥ - ظ : التبيان ، اللطوسي / ٢٨٦ و جامع البيان للطبري : ٦٤/٦.

٦ - ظ : جامع البيان ، للطبري : ٢٥٤/١٣.

٧ - ظ : مفاتيح الغيب ، الرازي : ٩٩ / ١٩.



ومن هنا تعد الكلمة النواة لكل العملية الإبداعية القرآنية، وبذلك لا يمكن لأحد أن يفصل مكونات هذه الاتجاهات عن بعضها فهي منصهرة في تكوين واحد فتخير اللفظ مقصود والدواعي الفنية مقصودة، وعملية ارتباط الكلمة بالسياق القائم عليها مقصود وكل ذلك يفضي إلى دواعي تفسيريه، ولما كانت القواعد التفسيرية تستند على ركيزتين اثنتين هما (الفقه والقضاء) كما جاء ذلك في كتاب الأصول العامة للفقه المقارن : (("والمصادر التفسيرية اثنان: الفقه والقضاء" ^(١)).

والتفسير إنما يلجأ إليه إذا كان في النص غموض أو تناقض أو نقص، وقد وضعوا للتفسير طرقاً قسموها إلى قسمين: داخلية وخارجية، فالدخالية: هي التي يلتمس المفسر من نفس النص معالم تهديه إلى واقع ما يجله، وأهم طرقها: (القياس، الاستنتاج من باب أولى "مفهوم الموافقة"، والاستنتاج من مفهوم المخالفة، وتقريب النصوص المتعلقة بموضوع واحد بعضها من بعض) ^(٢).

والطرق الخارجية (وهي التي يستند فيها المفسر على عنصر خارجي عن التشريع نفسه، ومن ذلك الاستناد إلى حكمة التشريع والاسترشاد بالأعمال التحضيرية، والاسترشاد بالعادات والرجوع إلى المصدر التاريخي للتشريع) ^(٣).

وجاء في قول السيد مصطفى الخميني : ((أنه لا اختلاف بين هذه المسالك التأويلية والمشارب التفسيرية، لأن الآيات القرآنية والكلمات الفرقانية لأجل انتهائها إلى الحقيقة الصمدية، تكون مصمودة ومملوءة من الحقائق الغيبية والرقائق العرفانية والدقائق الحكيمة والإيمانية، وتجمعها تحت مفهوم واحد، وتشملها باستعمال فارد من غير مجاز وتوسع، ومن غير لزوم استعمال الواحد في الكثير، بل تلك الرقائق والحقائق لما كانت من أصل واحد ذي مراتب كلية وجزئية، مندرجة في المعنى الوجداني والمفهوم الفردي، يمكن أن يراد بالاستعمال الواحد الإلهي الصمداني).

^١ - أصول القانون ، د . عبد الرزاق السنهوري وأحمد حشمت / ١٦٤ وما بعدها .

^٢ - المصدر نفسه / ١٦٤ .

^٣ - أصول القانون ، د . عبد الرزاق السنهوري وأحمد حشمت / ١٦٥ .

وإنما الاختلاف والتشتت من ناحية القوابل الإمكانية والمجالي الظلمانية، فكل يسلك سبيله ويهتدي بهداه حسب حاله واستعداده))^(١).

وعند البحث في أغوار كتب التفسير نجد إشارات واضحة وإجابة صريحة لأسباب الدواعي التفسيرية لآيات القرآن الكريم ، ولما جاء بها من مقاصد آلهية احتوتها سياقاتها اللفظية في الآية القرآنية ، ونجد في كتاب تفسير القرآن الكريم للسيد مصطفى الخميني ما يؤكد ذلك من خلال ما جاء فيه : ((فصاحة القرآن وبلاغته من الأمور التي تحدى بها القرآن، بل الأظهر أنه الوحيد من بينها، ولو كان يحتوي على مجموعة هي توجب انتساب الذكر الكريم إلى العزيز الحكيم، وإلى الوجود العام التام فوق التمام بما لا نهاية له عدة ومدة وشدة))^(٢).

وبالجملة من تلك الأمور: حديث الفصاحة والبلاغة، وقد تصدى علماء الإسلام لتوضيح هذه الجهة في الكتب الكلامية، وفي المؤلفات التفسيرية، وفي مدخل التفاسير، وفي الرسائل المستقلة بما لا مزيد عليه...وهي مطابقة الجمل التركيبية لطباع البشرية، من حيث القصر والطول، وهذه هي الجهة الموسيقية الخاصة التي لا ينفك منها الكلام المنسجم والتركيب الموزون.

وما أشتهر من: أن في تقديم القرآن وتأخير جملة على جملة أو كلمة على كلمة، نظرا معنويا مطلقا، وبلاغة وفصاحة خاصة مطلقا، مما لا ترتضيه عقولنا بعد، ولو أمكن أن تساعد عليه عقول المتأخرين، فإنهم أدق نظرا من القدماء الأسبقين...وما تلقاه بالقبول علماء الإسلام، فهو لأنهم جعلوه أصلا موضوعيا يجب الدفاع عنه، وأنه الكتاب الإلهي الذي يلزم حفظه من كافة الجهات...أما في خصوص البلاغة، أو بمثله فيها وفي كونه من الأمي العربي، أو هما مع كونه محتويا لجملة من المسائل العالمية، العقلية والنفسية والأفعالية والسياسية والاجتماعية. وعلى كل تقدير نجد كثيرا أنه يراعى أواخر الآيات، حفاظا على القوافي والسجع ورعاية للقصر والطول... ولا يورث ذلك نقصا بساحة القرآن))^(٣).

ولما كان القرآن الكريم معجزاً في كل شيء، إذن لا يستطيع أي فرد أن يدرك ماهيته ويتعرف على أفكاره ويستنبط أحكامه، فلا بد من متخصص بذلك أختصه الله سبحانه ليكون وعاءاً للمعرفة الربانية، ومدرکاً لأسرارها، وملماً بعلومها ، ومن هنا جاء في تفسير الميزان للسيد الطباطبائي : ((ما ورد عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في دعوة الناس إلى الأخذ بالقرآن والتدبر فيه وعرض ما نقل عنه عليه وارد عن أهل البيت (عليهم السلام)).

على أن جما غفيرا من الروايات التفسيرية الواردة عنهم عليهم السلام مشتملة على الاستدلال بآية على آية والاستشهاد بمعنى على معنى ولا يستقيم ذلك إلا بكون المعنى مما يمكن أن يناله المخاطب ويستقل به ذهنه لوروده من طريقه المتعين له.

١ - الأصول العامة للفقهاء المقارن ، السيد محمد تقي الحكيم / ٤٩ .

٢ - تفسير القرآن الكريم ، السيد مصطفى الخميني : ٢ / ٤٧٧ .

٣ - تفسير القرآن الكريم ، السيد مصطفى الخميني : ٤ / ٥٠١ و ٥٠٢ و ٥٠٣ .

على أن ههنا روايات عنهم (عليهم السلام) تدل على ذلك بالمطابقة كما رواه في المحاسن بإسناده عن أبي لبيد البحراني عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال: فمن زعم أن كتاب الله مبهم فقد هلك وأهلك. ويقرب منه ما فيه وفي الاحتجاج عنه (عليه السلام) قال: إذا حدثتكم بشيء - فاسألوني عنه من كتاب الله الحديث.

وبما مر من البيان يجمع بين أمثال هذه الأحاديث الدالة على إمكان نيل المعارف القرآنية منه وعدم احتجابها من العقول وبين ما ظاهره خلافه كما في تفسير العياشي عن جابر قال أبو عبد الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : إن للقرآن بطناً وللبطن ظهراً - ثم قال يا جابر وليس شيء أبعد من عقول الرجال منه - إن الآية لتنزل أولها في شيء وأوسطها في شيء وآخرها في شيء وهو كلام متصل ينصرف على وجوه وهذا المعنى وارد في عدة روايات وقد رويت الجملة أعني قوله وليس شيء أبعد " إلخ " في بعضها عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد روي عن علي (عليه السلام) : أن القرآن حمال ذو وجوه الحديث فالذي ندب إليه تفسيره من طريقه والذي نهى عنه تفسيره من غير طريقه وقد تبين أن المتعين في التفسير الاستمداد بالقرآن على فهمه وتفسير الآية بالآية وذلك بالتدرب بالآثار المنقولة عن النبي وأهل بيته (صلى الله عليه وآله وسلم) وتهيئة ذوق مكتسب منها ثم الورد والله الهادي^(١)، ومن هنا لا بد لأدراك معاني المفردات في النص القرآني ، وما هو تأويل النصوص القرآنية لمعرفة مقاصدها الالهية ، لذا فالدواعي التفسيرية ضرورة ملحة لكل من يرغب الغور في مسارب التفسير للوصول إلى معرفة يقينية بكتاب الله العزيز، وقد أوضح السيد الشهيد محمد باقر الحكيم (قدس سره) هذه المعطيات من خلال ما جاء بمقدمته لتفسير سورة الحمد: ((يكون تأويل الآيات المتشابهة ليس بمعنى بيان مدلولها وتفسير معانيها اللغوية، بل هو ما تؤول إليه تلك المعاني، لأن كل معنى عام حينما يجسده العقل في صورة معينة تكون هذه الصورة تأويلاً له. وأما الذين في قلوبهم زيغ فإنهم كانوا يحاولون تحديد صورة معينة طبق ميولهم ورغباتهم وكما يريدون هم لمفاهيم الآيات المتشابهة إثارة للفتنة، وذلك لأن كثيراً من الآيات المتشابهة كانت معانيها متعلقة بعوالم الغيب أو بالأحداث والقضايا التاريخية والاجتماعية والإنسانية، فيكون تحديدها وتجسيدها في صورة ذهنية خاصة عرضة للخطر والفتنة.

والقرينة على ما نقول من نفس آية سورة آل عمران، هي أن هذه الآية تفرض أن يكون لكل آية من القرآن من المتشابهات منها معنى مفهوم من الناحية اللغوية لدى الناس، وله ظهور لفظي لما يفهم من كلمة * (فَأَمَّا الَّذِينَ فِي

قُلُوبِهِمْ مَزْجٌ فَيَسْبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ)^(٢) فإنه لو لم يكن له ظهور لفظي فلا يصدق على الأخذ بأحد معانيه المحتملة الذي

يتردد بينها إتباعاً للكلام، بل إتباعاً للرأي، وأما تشخيص مصداق المعنى الظاهر في فرد معين ابتغاء الفتنة فإنه

١ - تفسير الميزان ، السيد الطباطبائي : ٣ / ٨٨.

٢ - آل عمران / ٧.

إتباع للكلام ولكن بقصد وهدف سيء وهو الفتنة. وعلى هذا الأساس يكون معنى التأويل في الآية المباركة هو ما أطلقنا عليه اسم " تفسير المعنى" ^(١).

ولأن القرآن الكريم موسوعة شاملة لكافة العلوم والمعارف والقوانين وغيرها من الأمور التي لم يتسنى للإنسان إلى معرفتها أو التعرف عليها (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا) ^(٢)، لذا جاءت الدواعي التفسيرية كاشفة لما أراد الله

عز وجل للإنسان أن يتوصل إليه من أسرار علمه ، لذا جاء إيضاح لذلك في كتاب السيد الشهيد محمد باقر الحكيم (قدس سره) ليوضح لنا ماهية الدواعي التفسيرية : ((يشتمل القرآن الكريم على أبعاد متعددة ومختلفة تتعلق بالدين والشريعة والحياة والكون... كما أنه يمثل من ناحية أخرى الكلام العربي الذي بلغ حد الإعجاز وقد واكب حركة الدعوة الإسلامية، وهذه الأبعاد المختلفة كانت موضع اهتمامات مختلفة أيضا من قبل الباحثين والمفسرين له.

فقد اهتم بعضهم بالجانب (الفقهي) فيه وذلك باعتبار اشتماله على كثير من الأحكام الفقهية المرتبطة بالشريعة. وأهتم بعض الجانب (الفلسفي) باعتبار اشتماله على كثير من الحقائق المرتبطة بالكون والحياة والمبدأ والمنتهى، وهي حقائق تقوم على أساسها النظريات الفلسفية. كما اهتم بعض آخر بالجانب (الكلامي) وهو الجانب المرتبط بالعقائد والنظريات العقائدية الكلامية في الإسلام والدفاع عنها.

واهتم آخرون بالجانب (البلاغي) وذلك بلحاظ كونه معجزة بلاغية، وهكذا.. ونجد بعض المفسرين قد اهتم بأبعاد أخرى قد لا تكون موجودة فيه بشكل واضح ومستقل، وإنما يمكن انتزاعها منه واستفادتها استفادة خاصة، كما نجد ذلك في التفاسير التي تهتم بالجانب الصوفي والجانب العرفاني فيه... ^(٣)، وعندما نذهب إلى معرفة الأسباب التي أدت إلى ظهور هذه الاهتمامات المختلفة وتنوع الجوانب التي تبحث في تفسير القرآن الكريم، وما لهذه الاهتمامات من خلفيات تمثل أهدافا ومقاصد متعددة لدى المفسرين منها:

الأول: أن بعض المفسرين حاولوا أن يبدعوا في الجانب الذي تخصصوا فيه وذلك باعتبار سعة اطلاعهم وطول باعهم في هذا الاختصاص المعين فيتأثروا وبذلك يتأثر عملهم التفسيري، إذ يحاولون أن يجعلوا من القرآن الكريم ميدانا لإبراز اختصاصهم وتحقيقاتهم والنتائج التي توصلوا إليها في هذا الاختصاص، فنرى بعض الفقهاء من المفسرين قد اهتموا بالجانب الفقهي للقرآن الكريم، كما اهتم بعض علماء اللغة العربية بجانبه البلاغي وهكذا...

^١ - تفسير سورة الحمد ، السيد الشهيد محمد باقر الحكيم / ٢٨ - ٢٩.

^٢ - الإسراء / ٨٥.

^٣ - تفسير سورة الحمد ، السيد الشهيد محمد باقر الحكيم / ١١٦ - ١١٧ - ١١٨.

الثاني: أن بعض المفسرين لهم هدف حق يرتبط بالدين والشرعية، ويرون أنه من خلال تفسير القرآن الكريم على وفق منهج معين ومن خلال جانب معين يمكن أن يتحقق ذلك الهدف، فيهتم بهذا المنهج أو الجانب من دون غيرهما، كما فعل بعض علماء المسلمين (كالمحاولات التفسيرية للشيخ محمد جواد البلاغي والشيخ محمد عبده، وغيرهم) عندما واجهوا حركات ودعوات ونظريات غير إسلامية تطعن بالإسلام والقرآن الكريم، كنظريات الزندقة في العصر الأول للإسلام، ونظريات ومدارس التبشير في العصر الحديث.

الثالث: وجود الحاجة الموضوعية لتناول جانب مهم في القرآن الكريم، كما هو الحال في بعض الدراسات اللغوية والفقهية في القرون الأولى للتاريخ الإسلامي عندما وقع الاختلاط بين العرب وغيرهم من الشعوب وأصبح من الضروري المحافظة على القرآن من ناحية، وشرح وتوضيح مفرداته وطريقة إعرابه للشعوب الأخرى من ناحية ثانية. وما ينبغي علينا هنا، وفي مجال دراسة هذه الاهتمامات المتنوعة هو أن نميز بينها من خلال دراسة حالتها العامة وذلك باعتبار أن بعضها يمثل خلفية صحيحة وحقبة وبعضها يمثل خلفية غير صحيحة وباطلة، مع قطع النظر عن مسألة الخطأ والصواب لاحتمال وجود الخطأ حتى في الاهتمامات الصحيحة والحقبة مما يؤدي إلى عدم الحصول على النتيجة التي يريها ذلك المفسر^(١).

وقد أمرنا الله (سبحانه وتعالى) في القرآن الكريم أن نمثل لأمر الرسول الكريم (صلى الله عليه وعلى آله وسلم)، من خلال ما جاء بكتابه المنزل على رسوله المرسل، حيث قال (جل من قائل): (وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ

فخذوه وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْهَوْا)^(٢)، ولأهمية الدواعي التفسيرية لمعرفة مرامي ومقاصده ما جاء بسياق الآيات

القرآنية، فلا بد من وجود مفسر لتلك العلوم الربانية، ومظهر للمقاصد الالهية، وليس من مفسر ضليع ومطلع بمعلوم القرآن وما جاء بآياته الكريمة كالرسول الكريم (صلى الله عليه وعلى آله وسلم)، ولعدم تمكن الرسول الكريم (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) من أن يقوم بدور المفسر كما جاء ببيان ذلك في كتاب علوم القرآن للسيد الشهيد محمد باقر الحكيم: (... أن حياته (صلى الله عليه وآله) كانت مثقلة بالأعمال والأحداث، الأمر الذي لم يكن يتيح له الفرصة الكافية للقيام بدور المفسر لعامة المسلمين...)^(٣) وإلى جانب هذا الفهم الساذج للقرآن من قبل بعض المسلمين الأمر الذي لا يسمح لنا بإطلاق اسم "العلم" عليه نلاحظ ملامح خبرة خاصة بدأت بالنمو والتجمع عند عدد من الصحابة، نتيجة عوامل متعددة ذاتية وموضوعية، من قبيل حرص بعضهم بشكل أكثر من غيرهم على الاستفادة من مجالس الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) وحفظ ما يرد في كلامه من شرح للنص القرآني أو تعليق عليه، ومحاولة الواعين منهم التعرف على أكبر مقدار ممكن من

١ - ظ : - تفسير سورة الحمد ، السيد الشهيد محمد باقر الحكيم / ١١٦ - ١١٧ - ١١٨ .

٢ - الحشر / ٧ .

٣ - الكافي : ١ / ٦٢ . الحديث ١ . بذور تكون علم التفسير .

تفصيلات المعاني القرآنية من خلال ظروفهم الموضوعية التي كانت تفرض وجودهم مع الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) في المدينة، أو أثناء مرافقتهم له (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) في غزواته المتعددة^(١)، ولدينا عدة نصوص تشير إلى هذا المعنى في عدد من الصحابة:

١ - عن عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يقرؤون القرآن. أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي (صلى الله عليه وآله) عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا ما فيها من العلم والعمل... قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً، ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة^(٢).

٢ - عن شقيق بن سلمه، خطبنا عبد الله بن مسعود فقال: والله لقد أخذت من في رسول الله (صلى الله عليه وآله) بضعا وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله) أنني من أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم^(٣).

٣ - عن أبي الطفيل: قال شهدت علياً (عليه السلام) يخطب وهو يقول: سلوني، فوالله لا تسألوني عن شيء إلا أخبرتكم، وسلوني عن كتاب الله، فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل.

٤ - عن نصير بن سليمان الأحمسي عن أبيه عن علي (عليه السلام) قال: والله ما نزلت. آية إلا وقد علمت فيم نزلت، وأبين نزلت، إن ربي وهب لي قلباً عقولاً، ولساناً سؤلاً فنحن نلحظ في هذه النصوص أن بذور المعرفة التفسيرية القائمة على العناية والتخصص، إنما كانت على مستوى خاص من الصحابة، الأمر الذي أدى إلى ولادة التفاوت بين المسلمين في جميع المعارف الإسلامية، ومن ثم في خصوص المعرفة التفسيرية^(٤).

لذا فللدواعي التفسيرية أثرٌ مهمٌ في بيان وإيضاح الدلالة المتوخاة من النص القرآني، الذي تضمن بين طياته أحكاماً وتشريعات وقصصاً وأمثالاً وأوامرَ ونواهيَ، فظهرت الحاجة إلى معرفة تلك الدواعي ومن يستنبطها ويدرك ماهيتها، ليتسنى للناس الوصول إلى معرفتها والإطلاع عليها من خلاله، وليس بمقدور أيّا كان تفسير ومعرفة مراد الخالق (جل وعلا) من خلال ما جاء بسياق النصوص القرآنية، حيث قال: (وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ

وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ)^(٥)، لذا برزت هنالك مصادر أساسية في معرفة الدواعي التفسيرية للنصوص القرآنية،

وهي بمثابة الأسس التفسيرية، وقد تم إيضاح تلك الأسس في كتاب علوم القرآن الذي جاء فيه: ((أن المعرفة التفسيرية في عصر الصحابة والتابعين اعتمدت على مجموعة من المصادر كان منها النص القرآني، والمأثور عن الرسول (صلى الله عليه وآله)، وأقوال الصحابة الذين عاشوا الأحداث الإسلامية التي

١ - ظ: علوم القرآن، السيد محمد باقر الحكيم / ٢٦٧ - ٢٦٨.

٢ - ظ: الإتيان، للسيوطي: ٢ / ١٧٦.

٣ - ظ: فتح الباري، البخاري: ١ / ٤٢٣.

٤ - ظ: علوم القرآن، السيد محمد باقر الحكيم / ٢٦٧ - ٢٦٨ - ٢٦٩.

٥ - آل عمران / ٧.

ارتبط بها النص القرآني، ومن أجل أن تكون هذه المصادر الأصلية ذات أثر إيجابي في عملية التفسير كان يجب أن تكون موضع اهتمام في صيانتها وضبطها وحمايتها، ليتمكن أن تؤدي مهمتها في تغذية المعرفة التفسيرية^(١).

^١ - علوم القرآن ، السيد الشهيد محمد باقر الحكيم / ٢٩٠.

الفصل الثاني

الأغراض التفسيرية

لأستعمال مفردة (الهاء) في

النص القرآني

المبحث الأول

**الأغراض التفسيرية لفردة (الماء)
ومرادفاتها في النص القرآني**

الأغراض التفسيرية لاستعمال مفردة (الماء)

إن القرآن الكريم المعجزة الكبرى التي جاء بها النبي الأكرم (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) بما فيه من مفردات وألفاظ أوقعت في النفس تأثيراً وكانت معجزة لما تحمله من دلالات وإيحاءات في الأسلوب واللغة لم يستطع العرب مجاراتها ، فكل لفظة في القرآن أعطت دلالة إعجازية خاصة بها تركت الأثر في السياق ، ومن بين تلك المفردات مفردة (الماء) التي كثرت مرادفاتها ودلالاتها الإعجازية، وكانت عاملاً مؤثراً في السياق النصي للآيات القرآنية التي وردت فيها ، وفي هذا الفصل سنبحث بعض الجوانب لها إن شاء الله تعالى :

مفردة الماء وصفاتها التفسيرية :

كثرت المرادفات للفظ الماء في القرآن الكريم بحسب نوع المياه وبشكل دقيق بما يؤثر في معنى الآية القرآنية وبحسب سبب نزولها، فكانت حركة مفردة الماء تجري بحسب مقتضى حال السياق، فنجد إذا كان هنالك تهويل في أمر ما نلاحظ إن الله (سبحانه وتعالى) يختار (للماء) الدلالة المطابقة لمقتضى الحال فمثلاً يصف الماء الذي يشربه أهل جهنم انه كالصديد كما في قوله تعالى: (مَنْ مَرَّآتِهِ جَهَنَّمَ يُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ)^(١).

وان كان هنالك ترغيب نجده سبحانه وتعالى يصفه بالظهور كما ورد ذلك في قوله عز وجل : (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ

الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا)^(٢).

وفي ضوء ما ورد فإن آيات قرآنية مباركة اختصت بذكر نوع (الماء) بما يتناسب مع واقع الحدث، وبعد إحصاء البحث لها وجدها ثلاثاً وعشرين آية، وان لكل نوع من هذه المياه طبيعتها الخاصة وسوف نبحت هذه الأنواع ولنرى ما يتميز به كل نوع من هذه الأنواع عن النوع الآخر:

أولاً : الماء المغيض :

((يقال غاض (الماء) غيضاً ومغاضاً ، والمغيض : الموضع الذي يغيض فيه (الماء)))^(٣)، قال تعالى: (وَقِيلَ يَا

أَرْضُ أْبْلَعِي مَاءَكَ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)^(٤)، فنلاحظ هنا إن مفردة

١ - إبراهيم / ١٦ .

٢ - الفرقان / ٤٨ .

٣ - كتاب العين ، الخليل بن احمد الفراهيدي : ٤ / ٣٠٤ .

٤ - هود / ٤٤ .

(ماء) كانت سبباً في الأمر الإلهي إلى الأرض (يا أرض أبلعي ماءك) وقد جاءت حركة الكلمة (ماء) لتلائم حركة السياق والمعنى، فتحركت في سياق قرآني أعطى صورة حسية دل على معان تخص يوم الطوفان، فكانت عملية انقضاء الطوفان بهذه الصورة قد دللتنا على حركة مفردة (ماء) بعد إسنادها إلى (غيض) وقد جاء في التفاسير : (وغيض الماء) ونزل الماء في جوف الأرض^(١).

وجاء في تفسير آخر ، ((...قوله " وغيض الماء " أي أذهب به عن وجه الأرض إلى باطنها، يقال: غاض الماء يغيض غيضا إذا ذهب في الأرض.

وقوله " وقضي الأمر " معناه أوقع الهلاك بقوم نوح على تمام والقضاء وقوع الأمر على تمام وإحكام^(٢)، كما جاء في أسباب النزول .

ثانيا : الماء الصديد :

(الصديد: الدم المختلط بالقيح في الجرح، وتقول: أصد إصدادا أي صار فيه الصديد والمدة. وهو في القرآن، ما سال من أهل النار.

ويقال: بل هو الحميم أغلي حتى خثر)^(٣).

وهو شراب أهل جهنم وقد ورد ذكر لفظة (الصديد) في قوله تعالى : (مَنْ مَرَّ بِهِ جَهَنَّمَ يُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ)^(٤)،

فأهل النار يشعرون بالعطش الذي يلهب الأجساد الأمر الذي يجعلهم في صراخ وعويل إلى الله عز وجل في أن يمدهم بما يطفئ حرارة ظمئهم وهم يذبون تحت وهج النار فهل يجيبهم على طلبهم ؟ فيكون الجواب إنهم سيسقون من ماء صديد^(٥).

ونلاحظ إن حركة كلمة الماء قد منحت السياق القرآني دلالة تفسيرية وقد أعطت صورة مروعة عن ماء أهل جهنم وكان ذلك من خلال نوع الماء الذي خصه الله سبحانه وتعالى لهم ليسقوا به يوم القيامة فبئس الشراب شرابهم ، ولننظر آراء بعض المفسرين بذلك، فالصديد عند الجواهري (ت: ٣٩٣ هـ) مادة الرقيق المختلط بالدم^(٦).

^١ - ظ : تفسير الأمثل ، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : ٦ / ٤ .

^٢ - تفسير التبيان ، الشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن بن علي بن الحسن الطوسي : ٥ / ٩٢٢ .

^٣ - كتاب العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي : ٧ / ٨٠ .

^٤ - إبراهيم / ١٦ .

^٥ - ظ : الجامع لأحكام القرآن الكريم ، القرطبي : ١٠ / ٣٩٤ .

^٦ - ظ: الصحاح ، الجوهري : ١ / ٤٩٣ .

وجاء في تفسير نور الثقلين: ((... ويسقى من ماءٍ صديد أي ويسقى مما يسيل من الدم و القيح من فروج الزواني في النار عن أبي عبد الله عليه السلام . وروى أبو إمامة عن النبي صلى الله عليه واله في قوله: "ويسقى من ماء صديد" قال يقرب إليه فيتكرهه، فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقع فروة رأسه...))^(١).

ثالثا : ماء المهل

(((المهل)، يقال: هو النحاس المذاب. وقال أبو عمرو: المهل: دردى الزيت. قال: والمهل أيضا: القيح والصديد))^(٢).

قال تعالى : (وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا)^(٣).

فقد ورد في تفسير الأمثل : ((نعم، إنهم كانوا اعطشوا في هذه الدنيا كان الخدم يجلبون لهم أنواع المشروبات، ولكنهم عندما يطلبون الماء في جهنم يؤتي إليهم بماء كالمهل: (وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ))^(٤).

وجاء في تفسير الميزان عن الماء المهل : ((عن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم: في قوله: "بماء كالمهل" قال: كعكر الزيت - فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه. وفي تفسير القمي: في قوله: " بماء كالمهل " قال: (عليه السلام)، المهل الذي يبقى في أصل الزيت. وفي تفسير العياشي عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام: قال: ابن آدم خلق أجوف لا بد له من الطعام والشراب قال تعالى: " وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ "))^(٥).

رابعا : ماء الأرض

وهو الماء الذي خلق مع خلق الأرض ، ويظل في دورة ثابتة حتى قيام الساعة ، وقد ورد في قوله تعالى : (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ)^(٦).

^١ - تفسير نور الثقلين ، الشيخ الحويزي : ٢ / ٥٣٢.

^٢ - الصحاح ، الجوهري : ٥ / ١٨٢٢.

^٣ - الكهف / ٢٩.

^٤ - تفسير الأمثل ، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : ٩ / ٢٥٧.

^٥ - تفسير الميزان ، السيد الطباطبائي : ١٣ / ٢٥٧.

^٦ - المؤمنون / ١٨.

فنجذ حركة مفردة (الماء) محوراً للآية المباركة إذ ابتداء الله سبحانه بكلمة (أنزلنا) ، من أين جاء الإنزال ؟ جاء الجواب (مِنَ السَّمَاءِ) الشيء المرتفع ، ما هو الشيء الذي نزل ؟ كان الجواب (ماء)، وهذا الماء بقدر واسكنه الله جل وعلا في الأرض ، فنجد حركة كلمة (ماء) قد غيرت السياق التعبيري على وفق النص القرآني، كما نرى ذلك واضح جلي من خلال التفاسير التي جاء في بعض منها: ((عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: (إن الله تعالى أنزل من الجنة خمسة أنهار: سيحون وهو نهر الهند. وجيحون وهو نهر بلخ. ودجلة، والفرات وهما نهرا العراق.

والنيل وهو نهر مصر. أنزلها الله من عين واحدة، وأجراها في الأرض، وجعل فيها منافع للناس في أصناف معاشهم، وذلك قوله:

(وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهَاقَادِرُونَ)^(١) أي: ونحن على إذهابه قادرين، ولو فعلناه

لهلك جميع الحيوانات. نبه سبحانه بذلك على عظيم نعمته على خلقه بإنزال الماء من السماء (فأنشأنا لكم) أي: أحدثنا وخلقنا لنفعمكم (به) أي: بسبب هذا الماء (فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَاكِهٌ كَثِيرٌ

وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)^(٢)، يا معاشر الخلق (لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهٌ كَثِيرٌ) تتفكهون بها (وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ)، وإنما خص النخل

والأعناب؛ لأنها ثمار الحجاز من المدينة، والطائف ، فذكرهم سبحانه بالنعم التي عرفوها. النظم: وجه اتصال الآيات بما قبلها: أنه سبحانه لما ذكر نعمته على المؤمنين بما أعد لهم في الآخرة، ابتداء بذكر نعمه عليهم في مبتدأ خلقه، تنبيها لهم على النظر فيها، وترغيبا في التمسك بالحسنات المذكورة. ولما بين أحوال الآخرة، بين متى يكون البعث، ودل بذلك على أن من قدر على خلق الإنسان في هذا الترتيب، والتركيب العجيب، قدر على الإعادة. ثم أبان عن قدرته على البعث، بقدرته على خلق السماوات. ثم بين أنه لا يغفل عن عبادته، إذ لا يشغله فعل عن فعل. ثم بين أنه قادر لذاته حيث أنزل من السماء الماء، وأسكنه في الأرض، بأن فرقه في البحار، والأنهار، والعيون.

ثم بين سبحانه أنه قادر على إذهابه، دلالة على أن هذه النعمة وقعت باختياره^(٣)، وقد جاء في تفسير الصافي: ((والذي نزل من السماء ماء بقدر بمقدار ينفع ولا يضر فأنشأنا به بلدة ميتا فأحيينا به أرضا لا نبات فيها كذلك تخرجون تنشرون من قبوركم))^(٤).

١ - المؤمنون / ١٨.

٢ - المؤمنون / ١٩.

٣ - تفسير مجمع البيان ، الشيخ الطبرسي : ٧ / ١٨٢.

٤ - التفسير الصافي : الفيض الكاشاني : ٤ / ٣٨٥.

خامسا : الماء الطهور

((الماء الطهور. وكل ماء نظيف: طهور، وماء طهور أي يتطهر به، وكل طهور طاهر، وليس كل طاهر طهورا. قال الأزهرى: وكل ما قيل في قوله عز وجل: وأنزلنا من السماء ماءً طهورا، فإن الطهور في اللغة هو الطاهر المطهر، لأنه لا يكون طهورا إلا وهو يتطهر به))^(١).

قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا لِنُخْطِ بِهِ بَلَدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْاسٍ كَثِيرًا)^(٢)، وهذا الماء بصفة (طهور) التي أتت بصيغة المبالغة يكون طاهر ومطهر من الخبائث

والنجاسات^(٣)، ولما كانت هذه صفته (طهور) فلا بد أن يكون مشروعاً ويمكن أن يستعمله الجميع ويستفيدوا منه، وبذلك يقول المقدس الأردبيلي (وهي تدل على إباحة الماء وجواز التصرف فيه أي تصرف كان، حتى يثبت المانع)^(٤).

فنلاحظ إن حركة مفردة (الماء) قد أسهمت في إعطاء دلالة تفسيرية للآية وبينت أن الماء النازل من السماء هو للجميع من دون استثناء (وَسُقِيهِ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنْاسٍ كَثِيرًا) وأيضا بينت أن الماء طاهر مطهر (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا)^(٥).

سادسا : ماء الشراب

قال تعالى (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)^(٦) ورد في قوله تعالى أعلاه لفظة

(شراب) الدالة على كلمة (الماء) والذي من خلال عملية الشراب يتم تناول الماء عمليا وبذلك تنتفع كل الكائنات الحية الموجودة في الأرض حينما ينعم عليها الله عز وجل بان ينزل رحمته من السماء، وهذا الماء الذي هو أس الحياة، ومنه تبدأ وتنمو ، ونشاهد حركة الماء قد جاءت على وفق صورة حسية حركية منحت النص صفة الرغبة والانتماء من لدن البشر؛ لأن حياتهم رهن به .

ومن خلال البحث تتضح آراء بعض المفسرين لهذا النص القرآني المقدس الذي حث الله (سبحانه وتعالى) به على التفكير والتأمل في ما خلق ونزل وأوجد وجعل وخلق وصور وأبدع وأجمل ، وكل ذلك بسبب ما أسبغه الله

^١ - لسان العرب ، ابن منظور : ٤ / ٥٠٥ .

^٢ - الفرقان / ٤٨-٤٩ .

^٣ - ظ : تفسير جواهر الكلام ، الشيخ الجواهري : ١ / ٦٣ .

^٤ - تفسير زبدة البيان ، المحقق احمد المقدس الاردبيلي / ٣١ .

^٥ - المصدر نفسه / ٣١ .

^٦ - النحل / ١٠ .

(جل وعلا) على بني البشر من نعم ظاهرة وباطنة كان السبب في إظهارها و إيجادها ونموها و إنتشارها هو (الماء) المبارك المنزل من السماء الى الأرض، وقد جاء في تفسير البرهان تفسيراً لقوله تعالى:

((هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

كُلِ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ^(١) فجعل مقطع هذه الآية التفكر؛ لأنه استدلال بحدوث الأنواع المختلفة من النبات على وجود الإله القادر المختار^(٢))).

سابعا : الماء الأجاج

((الماء الأجاج، وهو الشديد الملوحة، المحرق من ملوحته))^(٣) غير مستساغ ، فقد ورد ذكر الماء الأجاج في

ثلاث آيات حيث قال جل من قائل : (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً

مَحْجُوراً)^(٤)

وقال تعالى : (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْماً طَرَباً وَاسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً

تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لِنَبْتَعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)^(٥) .

وقال تعالى : (لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجاً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ)^(٦)، نشاهد مفردة (الأجاج) قد حركت السياق في الآيات

السابقة فكانت رمزا (للماء) وصفة له في آن واحد وعوضت عن وجود مفردة (الماء) بصفقتها الأجاج أي شديد الملوحة ، فقد جاء في تفسير الصافي: ((وهو الذي مرج البحرين خلاهما متجاورين متلاصقين بحيث لا يتميزان ... هذا عذب فرات بليغ العذوبة وهذا ملح أجاج بليغ الملوحة في الكافي عنهما عليهما السلام إن الله (عز وجل) عرض ولايتنا على المياه فما قبل ولايتنا عذب وطاب وما جحد ولايتنا جعله الله (سبحانه وتعالى) مرا وملحا أجاجا وجعل بينهما برزخا حاجزا من قدرته وحجرا محجورا قيل تنافرا بليغا أو حدا محدودا وذلك

١ - النحل ، الآية / ١٠ و ١١ .

٢ - تفسير البرهان ، للزركشي : ٨٤ / ١ .

٣ - لسان العرب ، ابن منظور : ٢٠٧ / ٢ .

٤ - الفرقان / ٥٣ .

٥ - فاطر / ١٢ .

٦ - الواقعة / ٧٠ .

كدجلة تدخل البحر فتشقه فتجري في خلاله فراسخ لا يتغير طعمها، و القمي يقول حراما محرما أن يغير كل واحدٍ منهما طعم الآخر))^(١)، سبحان من جعل لكل شيء حداً محدوداً ، وأمداً ممدوداً، وصفة أرادها بمشيئته أن تكون ثابتة في الأشياء تارة ، ومتغيرة في أشياء أخرى، وقد ورد في تفسير العياشي : ((عن مسعدة بن صدقة عن أبي جعفر عليه السلام عن أبيه عن جده قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام سموهم بأحسن أمثال القرآن يعنى عترة النبي صلى الله عليه وآله، هذا عذب فرات فاشربوا، وهذا ملح أجاج فاجتنبوا))^(٢)، وقد جاء في تفسير الدقائق ((...وفي تفسير العياشي: عن عمار بن الأحوص، عن أبي عبد الله (عليهم السلام): أن الله (تبارك وتعالى) خلق في مبدأ الخلق بحرين، أحدهما عذب فرات والآخر ملح أجاج، ثم خلق تربة آدم من البحر العذب الفرات، ثم أجراه على البحر الأجاج فجعله حمأ مسنوناً، وهو خلق آدم، ثم قبض قبضة من كتف آدم الأيمن فذراها في صلب آدم فقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي...))^(٣).

ثامناً : الماء المهين

((المهين: الحقير والضعيف والقليل))^(٤) وهو الماء الذي يعبر به عن (مني الرجل) وذلك لضعف مكوناته للعوامل الخارجية

قال تعالى : (ثُمَّ جَعَلْ نَسْلَهُ مِنْ سَائِلَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)^(٥)

وقال جل شأنه : (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ)^(٦).

((...وقوله: (ألم نخلقكم من ماء مهين) والمهين القليل الغناء، ومثله الحقير الذليل وفي خلق الإنسان على هذا الكمال من الحواس الصحيحة والعقل والتميز من ماء مهين أعظم الاعتبار وأبين الحجة على إن له مدبراً وصانعاً وخالقاً خلقه وصنعه فمن جده كان كالمكابر لما هو من دلائل العقول. ثم قال الله تعالى مبيناً انه جعل ذلك الماء المهين الحقير (في قرارٍ مَكِينٍ))^(٧)، وجاء في تفسير الدر المنثور: ((قوله تعالى (أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ) أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ألم نخلقكم من ماء مهين يعنى بالمهين الضعيف

نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ) أخرج ابن جرير عن ابن عباس في قوله ألم نخلقكم من ماء مهين يعنى بالمهين الضعيف

^١ - التفسير الصافي ، الفيض الكاشاني : ١٩ / ٤ .

^٢ - تفسير العياشي ، محمد بن مسعود العياشي : ١٣ / ١ .

^٣ - تفسير كنز الدقائق ، الميرزا محمد المشهدي : ١٤٦ / ٢ .

^٤ - القاموس المحيط ، الفيروز آبادي : ٢٧٣ / ٤ .

^٥ - السجدة / ٨ .

^٦ - المرسلات / ٢٠ .

^٧ - التبيان ، الشيخ الطوسي : ٢٢٧ / ١٠ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد في قوله من ماء مهين قال : ضعيف في قرار مكين^(١)، لتأمل ما جاء بالآية الكريمة، لنرى ما (للماء) من محورية في الخلق ، حيث جعله الله (سبحانه وتعالى) الأصل في خلق الأشياء، ومن ثم أسبغ عليه الصفات، ومن هذه الصفات صفة خلق البشر، فكان (الماء) ذا صفة (ماء مهين) أي قليل حقير ، كي يتعظ الإنسان وينظر من أي شيء خلق ، فلما الكبر والعُجب بالنفس والتمادي والتفاخر والتعالي والتجبر .

تاسعا : الماء غير الآسن

جاء في كتب اللغة : (ماء غير آسن أي غير متغير منه)^(٢)

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ حَمِيمٍ لَذَّةٌ لِلشَّامِرِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ)^(٣).

لو تأملنا هذا النص القرآني المبارك نجده قد أعطانا صورة مرئية محسوسة ماثلة أمامنا عند التأمل في مفرداتها، فنلاحظ حركة مفردة (ماء) قد أضفت على النص دلالة تفسيرية بما يتلائم مع المعنى العام للمراد الإلهي ، كما نرى ذلك من خلال ما ذهب إليه المفسرون ، فقد فسرت هذه الآية: (إنّ هذه الآية وصف لمصير كلّ من المؤمنين والكافرين، فالجنة الأولى الذين يعملون الصالحات، والثانية زين لهم سوء أعمالهم ، ونرى الآية تتحدث الآية عن أربعة أنهار في الجنة، لكلّ منها سائله ومحتواه الخاص، ثمّ تتحدث عن فواكه الجنة، وأخيراً عن بعض المواهب المعنوية.

تقول الآية : (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ)

"الآسن" يعني النتن، وبناءً على هذا، فإنّ (مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ) تعني الماء الذي لا يتغيّر طعمه ورائحته لطول بقائه وغير ذلك، وهذا أوّل نهر من أنهار الجنة، وفيه ماء زلال جار طيب الطعم والرائحة^(٤)، وقد فسر قوله تعالى: ((فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ) أي غير متغير بطول المقام)^(٥).

عاشرا : الماء الحميم

^١ - تفسير الدر المنثور ، جلال الدين السيوطي : ٦ / ٣٠٣ .

^٢ - الكنز اللغوي ، أبن السكيت الأهوازي / ٥٩ .

^٣ - محمد / ١٥ .

^٤ - تفسير الأمل ، الشيخ مكارم ناصر الشيرازي : ١٦ / ٣٥٧ .

^٥ - تفسير الميزان ، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي : ١٨ / ٢٣٣ .

((عن ابن الأعرابي: الحميم إن شئت كان ماء حارا، وإن شئت كان جمرا...))^(١).

قال جل من قائل : (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ

لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ

أَمْعَاءَهُمْ)^(٢)، وقد فسر الشيخ الطوسي ((الماء الحميم) قائلا : ((سُقُوا مَاءً حَمِيمًا) أي حارا (فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ

(من حرارتها، ولم يقل أمن هو في الجنة لدلالة قوله (كمن خالد) عليه.

وقيل: معنى قوله (كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ) أي هل يكون صفتها وحالها سواء ؟

فأنه لا يكون ذلك أبدا))^(٣)، فجد ابن كثير قد فسر قائلا : (("وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا" أي حارا شديد الحر لا يستطيع

" فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ " أي قطع ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء عياذا بالله تعالى من ذلك))^(٤)، ونلاحظ أن كلمة

الماء قد التحقت بها صفة الحميم الدالة على الحرارة فأصبح السياق القرآني يعطي معنى آخر لتخويف البشر، وهذا ما علمته الحركة حركة مفردة (الماء) من خلال انضمامها في سياق النص ، فأعطت تفسيراً جديداً للآية الكريمة حيث نلاحظ في الآيات المباركة السابقة نوعية الماء الذي سيسقى به أهل جهنم وبأنواع ومعان مختلفة، فمرة يأتي كأنه مختلط بالدم وأخرى ماء اسود ثم نرى السياق يبين شدة سخونته بأنه كالحميم ، وتستمر حركة الكلمة التفسيرية من خلال تكوينها المعاني التي تتطور وتتنامى بحسب تلك الحركة لكلمة (الماء) التي تفرض نوعاً من التأمل، وأنت تلاحق البحث في نوع آخر، وهو ما نراه في النوع التالي من أنواع الماء.

الحادي عشر : الماء المبارك

((ماءً مباركاً: يعني المطر كله، وقيل: الماء المبارك، ماء مخصوص ينزله الله كل سنة وليس كل المطر يتصف بالمبارك...))^(٥)، وهو ماء الخير الذي باركه الرحمن وسماه (الماء المبارك) لأنه يحيي الأرض

١ - لسان العرب ، ابن منظور : ١٢ / ١٥٤.

٢ - محمد / ١٥.

٣ - تفسير التبيان ، الشيخ الطوسي : ٩ / ٢٩٦ - ٢٩٧.

٤ - تفسير ابن كثير ، ابن كثير : ٤ / ١٩٠.

٥ - التسهيل لعلوم التنزيل ، الغرناطي الكلبي : ٤ / ٦٣.

وينبت الزرع وينشر الخير، فما أوسع خير الرحمن وعظيم شأنه، قال تعالى: (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ)^(١).

لنتأمل حركة مفردة (الماء) في هذا النص القرآني المبارك وهي تمنح السياق صورة دلت على عظيم منحه سبحانه، وكثير خيره لبني البشر ؛ لان الماء أصبح سببا لوجود حياتهم بأذن بارئهم، وهكذا دلت حركة مفردة (الماء) الذي وصفه الله سبحانه وتعالى بالمبارك على قدرة الله عز وجل في منح الحياة ديمومتها بالماء . وجاء في تفسير مجمع البيان: (("وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا" أي مطرا وغيثا يعظم النفع به (فأنبتنا به) أي بالماء (جنت) أي بساتين فيها أشجار تشتمل على أنواع الفواكه المستلذة...))^(٢)، ولنتأمل في الأعجاز العلمي من خلال هذه الآية المباركة: (((وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ) وتدل أبحاث علم النبات على أن عناصر التربة ومركباتها المختلفة الميتة عندما ينزل عليها ماء المطر تذوب فيه وتتحلل فيسهل وصوله إلى بذور النبات وجذوره إذ تتحول إلى خلايا وأنسجة حية، ولذلك تبدو حية ويزيد حجمها بما يتخللها وما يعلوها من نبات، وقد سبقت الإشارة إلى الماء وأهميته))^(٣).

الثاني عشر : الماء المنهمر

قال تعالى : (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ)^(٤).

(ماء منهمر: أي كثير سريع الانصباب)^(٥).

وهو الماء المتدفق بشدة وغازارة ولفترات طويلة فيكون كالسيل الهادر الجارف الذي لا يبق ولا يذر فيهلك الحرث والزرع فيكون معبرا عن غضب الله جل شأنه فقد أعطت مفردة (الماء) صورة حسية مرئية مرعبة فترتسم بالذهن صورة التيار الجارف وتصاحبه أصوات هدير المياه المرعبة فيكون ما خلفها دمارا لا يمكن لأحد إصلاحه ؛ لأنها إرادة الله قد أحالته خراب لا يعاد، فدلّت حركت (الماء) التي وصفت بالمنهمر على شدة الغضب الإلهي وتهديد الباري جل شأنه للبشر الذين لا يرعون ولا يمتثلون لحكم الله سبحانه وتعالى . فقد ورد في تفسير نور الثقلين ((...وبإسناده إلى أبي سعيد التيمي قال: مررت بالحسن والحسين عليهما السلام

^١ - ق / ٩ .

^٢ - تفسير مجمع البيان ، الشيخ الطبرسي : ٢٣٦ / ٩ .

^٣ - القرآن وإعجازه العلمي ، محمد إسماعيل إبراهيم / ١١٨ .

^٤ - القمر / ١١ .

^٥ - جامع أحاديث الشيعة ، السيد البروجردي : ١٧ / هامش ٤١ .

وهما في الفرات مستنقعان في إزارين إلى قوله: ثم قالوا: إلى أين تريد ؟ فقلت: إلى هذا الماء ؛ فقالوا: وما هذا الماء ؟ فقلت: أريد دواءه اشرب منه لعله بي أرجو أن يخف له الجسد ويسهل البطن فقالوا: ما نحسب إن الله (عز وجل) جعل في شيء قد لعنه شفاء، قلت: ولم ذاك ؟ فقالوا: لأن الله تبارك وتعالى لما آسفاه قوم نوح فتح السماء بماء منهمر، وأوحى إلى الأرض فاستعصت عليه عيون منها فلعنها وجعلها ملحا أجابا^(١) وجاء في تفسير ابن كثير: ((قال ابن جريج عن ابن عباس "فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ" كثير لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده إلا من السحاب فتحت أبواب السماء بالماء من غير سحاب ذلك اليوم فالتقى الماء أن على أمر قد قدر وروى ابن أبي حاتم أن ابن الكواء سأل عليا عن المجرة فقال هي شرج السماء ومنها فتحت السماء بماء منهمر^(٢))).

الثالث عشر : الماء المسكوب

قال تعالى: (فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ * وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ * وَظِلِّ مَدُودٍ * وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ * وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ * لَّا مَطْوَعةٍ وَكَأَنَّهَا مَطْوَعةٌ)^(٣).

(سكب : السكب : صب الماء ، فسكب وأنسكب : صبه فأنصب ، وسكب الماء بنفسه سكوبا ، وتسكابا ، ومسكوب يجري على وجه الأرض من غير حفر)^(٤).
الماء المسكوب هو الذي يبعث في النفس الراحة بصوت جريانه من الأعلى إلى الأسفل ويعطي الإحساس بالراحة للعين عند مشاهدة هطوله ويلطف الأرض عند ملامسته لها فيكون منعشا للنفس وللعين وللأرض فضلا عن الأشجار والنبات لرقته وللهدوء الذي يصاحبه ، فنجد إسناد صفة (مسكوب) لمفردة (الماء) قد منحته صفة مرئية اختزلت في داخلها الحركة ، وقد جاء في تفسير الأمثل: ((وينتقل الحديث إلى مياه الجنة حيث يقول سبحانه: (وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ). "مسكوب"

من مادة (سكب) على وزن "حرب" وتعني في الأصل الصب^(٥)، ولأنَّ صبَّ الماء يكون من الأعلى إلى الأسفل بصورة تيار أو شلال فإنه بذلك يصوِّر لنا مشهداً رائعاً حيث إنَّ خريز المياه ينعش الروح. ويبهر العيون، وهذه هي إحدى الهبات التي منحها الله (سبحانه وتعالى) لأهل الجنة، ومن الطبيعي أن هذه الجنة

^١ - تفسير نور الثقلين ، الشيخ الحويزي : ١٧٨ / ٥ .

^٢ - تفسير ابن كثير ، ابن كثير : ٢٨٢ / ٤ - ٢٨٣ .

^٣ - الواقعة / ٢٨ - ٣٢ .

^٤ - لسان العرب ، ابن منظور : ١ / ٤٦٩ .

^٥ - ظ : إقبال الأعمال ، السيد أبن طاووس : ٢ / هامش ٦٤ .

الملينة بالأشجار العظيمة، والمياه الجارية، لابد أن تكون فيها فواكه كثيرة، وهذا ما ذكرته الآية الكريمة^(١)، وجاء في جامع البيان تفسير هذه الآية المباركة : ((حدثنا ابن عبد الأعلى، عن أبي هريرة، قال: مثل ذلك أيضا.

وقوله: وماء مسكوب يقول تعالى ذكره وفيه أيضا ماء مسكوب، يعني مصبوب سائل في غير أخدود))^(٢).

الرابع عشر : الماء الغور

قال تعالى: (أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا)^(٣)، وقال جل من قائل: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا...)^(٤).

((الغور: مصدر غار يغور، ومثله الغور، ومعناه الدخول في الشيء، وذهاب الماء في الأرض))^(٥) نلاحظ هنا إن مفردة (الماء) قد حققت من خلال حركتها السياقية وإضفاء صفة (الغور) إليها معنى يفهم من خلاله المتلقي إن لا فائدة من البحث الحثيث والجهد الجهد عن الماء الذي أصبح غورا، فتتوضح الصورة الخيالية عن الماء الغائر وتتولد في الذهن استحالة الحصول عليه أو الوصول إليه ، فهنا السياق ومن خلال حركة كلمة (الماء) فيه يكون لدى المتلقي اليقين المطلق بقطع أمل البحث عن (الماء الغور) الذي أراد الله سبحانه أن يبعده عن البشر لعل فيهم، وقد أكد ذلك ما جاء في تفسير الميزان لقوله تعالى: (("قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ

مَاؤُكُمْ غَوْرًا ...) الغور ذهاب الماء ونضوبه في الأرض والمراد به الغائر، والمعين الظاهر الجاري من الماء، والمعنى: أخبروني إن صار ماؤكم غائرا ناضبا في الأرض فمن يأتيكم بماء ظاهر جار.))^(٦) وقد أورد الراغب الأصفهاني في تفسير معنى (غور):

((...غور: الغور المنهبط من الأرض، يقال غار الرجل وأغار وغارت عينه غورا وغورا وغورا وقوله تعالى (ماؤكم غورا) أي غائرا.

وقال (أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا) والغار في الجبل.

قال (إذ هما في الغار) وكنى عن الفرج والبطن بالغارين، والمغار من المكان كالغور، قال: (لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا)، وغارت الشمس غيارا،...))^(٧).

-
- ١ - تفسير الأمل ، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : ١٧ / ٤٦١ .
 - ٢ - تفسير جامع البيان ، أبي جعفر محمد ابن جرير الطبري : ٢٧ / ٢٤٠ .
 - ٣ - الكهف / ٤١ .
 - ٤ - الملك / ٣٠ .
 - ٥ - شرح شافية ابن الحاجب ، رضي الدين الاستربادي : ٢ / ٩١ .
 - ٦ - تفسير الميزان ، السيد الطباطبائي : ١٩ / ٣٦٥ .
 - ٧ - تفسير مفردات غريب القرآن ، الراغب الأصفهاني / ٣٦٧ .

الخامس عشر : الماء المعين

قال تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ)^(١).

(الماء المعين: الظاهر الذي تراه العيون)^(٢).

والماء المعين هو ذلك النوع من المياه التي تسيل وتنساب ببطء ، وكذلك تكون بمتناول الجميع ويسهل الحصول عليها والانتفاع بها ، وفي هذه الآية المباركة التي يتحدى الله سبحانه وتعالى المعاندين الظالمي أنفسهم ويسألهم ، من الذي يرزقكم ويهب لكم الماء المعين إن أصبح ماؤكم غورا بعد أن يذهب الله سبحانه ؟ ولاشك أن مفردة (الماء) من خلال انضمامها إلى السياق قد قدمت دلالتها المطلوبة حين أسندت لها صفة (معين)، فكان معين الماء مُذكراً بكرم الله سبحانه وتعالى على بني البشر، فهو الذي يهبه لهم ويرزقهم به لقضاء حاجاتهم الإنسانية، ولديمومة حياتهم على سطح الكرة الأرضية ، فكان وجود مفردة (الماء) في آخر السؤال الإلهي وخزا لإيقاظ الضمير الإنساني وتذكير بقدر الله سبحانه .

وقد جاء في تفسر ابن الجوزي لقوله تعالى: (("قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ")) قوله

(عز وجل): قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ بِعَذَابٍ وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ وَنَافِعٌ وَأَبُو عَمْرٍو وَابْنُ عَامِرٍ وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ مَعِيَ بِفَتْحِ الْيَاءِ وَقَرَأَ أَبُو بَكْرٍ عَنْ عَاصِمٍ وَالْكَسَائِيُّ مَعِيَ بِالْإِسْكَانِ أَوْ رَحِمْنَا فَلَمْ يَعْزِبْنَا فَمَنْ يَجِيرُ الْكَافِرِينَ أَيْ يَمْنَعُهُمْ وَيُؤْمِنُهُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ وَمَعْنَى الْآيَةِ إِنَّا مَعَ إِيْمَانِنَا بَيْنَ الْخَوْفِ الرَّجَاءِ فَمَنْ يَجِيرُكُمْ مَعَ كُفْرِكُمْ مِنَ الْعَذَابِ أَيْ لِأَنَّهُ لَا رَجَاءَ لَكُمْ كَرَجَاءِ الْمُؤْمِنِينَ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ الَّذِي نَعْبُدُ فَسْتَغْلَمُونَ وَقَرَأَ الْكَسَائِيُّ فَسَيَعْلَمُونَ بِالْيَاءِ عِنْدَ مَعَايِنَةِ الْعَذَابِ مِنَ الضَّالِّ نَحْنُ أَمْ أَنْتُمْ قَوْلُهُ (عز وجل) إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا قَدْ بَيَّنَّاهُ فِي الْكَهْفِ فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ أَيْ بِمَاءٍ ظَاهِرٍ تَرَاهُ الْعَيُونَ وَتَنَالُهُ الْأَرْشُفَةُ))^(٣).

السادس عشر : الماء الغدق

قال تعالى : (وَالْوِاسْتِقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا)^(٤).

((الماء الغدق : الماء الكثير))^(٥)، الماء الغدق وهو الماء الوفير إذ يقول الله سبحانه وتعالى ان القاسطين لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم نحن ماء موفورا نغدقه عليهم، وبذلك تفيض عليهم بركات الأرض والسماء بالرزق والرخاء، وإن هذا الرخاء الغدق هو بحقيقة الأمر اختبار لبني البشر وابتلاء لهم ليعلم الله سبحانه

^١ - الملك / ٣٠.

^٢ - كتاب العين ، الخليل بن احمد الفراهيدي : ٢ / ٢٥٥.

^٣ - تفسير زاد المسير ، ابن الجوزي : ٢ / ٦٣.

^٤ - الجن / ١٦.

^٥ - لسان العرب ، ابن منظور : ١٠ / ٢٨٢.

وتعالى الشاكرين من عباده، ومن خلال مفردة (الماء) اتخذ السياق منحا آخر وهو منحى المكافئة على الاستقامة، فإذا استقاموا فسكافئهم بماء غدقا، لما للماء من أهمية ؛ لأن الحياة بأسرها تجري على خطوات (الماء) وإن الرخاء يتبع ويلازم خطوات الماء في كل بقعة^(١).

وجاء في تفسير تأويل الآيات: (قوله تعالى: "وَالْوِاسِقَاتُ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا"^(٢))) (...قال محمد بن

العباس (رحمه الله): حدثنا أحمد بن هوزة الباهلي عن إبراهيم بن إسحاق، عن عبد الله بن حماد، عن سماعة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: في قول الله (عز وجل) (وَالْوِاسِقَاتُ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا

لنفتهم فيه) قال: يعني استقاموا على الولاية في الأصل عند الأظلة حين أخذ الله الميثاق على ذرية آدم. "

لأسقيناهم ماء غدقا " يعني لكننا أسقيناهم من الماء الفرات العذب...))^(٣) وقد جاء في تفسير الدر المنثور: ((في قوله: "وَالْوِاسِقَاتُ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا") قال لو آمنوا كلهم لأسقيناهم لأوسعنا لهم من الدنيا وأخرج

ابن أبي حاتم عن ابن عباس وألو استقاموا على الطريقة قال أقاموا ما أمروا به لأسقيناهم ماء غدقا قال معينا وأخرج عبد بن حميد عن الحسن في قوله وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم الآية قال يقول لو استقاموا على طاعة الله وما أمروا به لأكثر الله لهم من الأموال حتى يغبغبتوا بها ثم يقول الحسن والله إن كان أصحاب محمد لكذلك كانوا سامعين لله مطيعين له فتحت عليهم كنوز كسرى وقيصر ففتنوا بها فوثبوا بإمامهم فقتلوه، وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن مجاهد في قوله: "وَالْوِاسِقَاتُ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا " قال:

لأعطيناهم ما لا كثير^(٤).

السابع عشر : الماء الفرات

قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا)^(٥).

١ - ظ : الإتقان ، للسيوطي : ٣٣٢ / ١ و غريب القران ، للأصفهاني : ٣٥٨ / ١ .

٢ - الجن / ١٦ .

٣ - تفسير تأويل الآيات ، شرف الدين الحسيني : ٧٢٧ / ٢ .

٤ - تفسير الدر المنثور ، جلال الدين السيوطي : ٢٧٤ / ٦ .

٥ - الفرقان / ٥٣ .

وقال تعالى: (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ تَنْتَبِهُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)^(١).

وقال تعالى: (وَجَعَلْنَا فِيهَا مَرَوَاسِيَّ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا)^(٢)، ((الماء الفرات: وهو العذب يقال ماء فرات

ومياه فرات))^(٣)، قد دلت مفردة (الماء) في حركتها في السياق واتصافها بصفة العذوبة على جميل صنع الله سبحانه ولطفه بعباده وكريم عطاءه وعظيم جزاءه وسعة مننه على بني البشر وما منحه لهم من نعم ، ومن هذه النعم نعمة السقيا لهم من (الماء الفرات).

وجاء في تفسير الآية الكريمة في تفسير قوله تعالى: ((وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا)) أي وجعلنا لكم شرابا من الماء

الفرات، وهو العذاب وهو صفة يقال: ماء فرات وماء زلال وماء غدق وماء نمير كله من العذوبة والطيب، وبه سمي النهر العظيم المعروف بالفرات ، وقال ابن عباس أصول الأنهار العذبة أربعة: جيحون ومنه دجلة، وسيحون نهر بلخ، وفرات الكوفة، ونيل مصر))^(٤).

وقد فسر السيد الطباطبائي قوله تعالى: ((وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا " لأن الأنهار والعيون الطبيعية تنفجر من

الجبال فتجري على السهول، والفرات الماء العذب))^(٥).

وجاء في تفسير جامع البيان ((... حدثنا محمد بن سنان القزاز، قال: ثنا أبو عاصم، عن شبيب، عن عكرمة، عن ابن عباس: وأسقيناكم ماءً فراتا قال: من أربعة أنهار: سيحون، وجيحون، والنيل، والفرات، وكل ماء يشربه ابن آدم، فهو من هذه الأنهار، وهي تخرج من تحت صخرة من عند بيت المقدس.

وأما سيحان فهو ببلخ، وأما جيحان فدجلة، وأما الفرات ففرات الكوفة، وأما النيل فهو بمصر))^(٦).

^١ - فاطر / ١٢.

^٢ - المرسلات / ٢٧.

^٣ - معجم مقاييس اللغة ، أبو الحسين احمد بن فارس زكريا : ٤ / ٤٩٨.

^٤ - تفسير التبيان ، الشيخ الطوسي : ١٠ / ٢٣٠.

^٥ - تفسير الميزان ، السيد الطباطبائي : ٢٠ / ١٥٣.

^٦ - تفسير جامع البيان ، ابن جرير الطبري : ٢٩ / ٢٩٥.

الثامن عشر : الماء الثجاج

قال تعالى: (وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا)^(١).

(الثجاج: هو الماء السائل، ومطر ثجاج: شديد الانصباب جداً ، الثجوج والمثج بالكسر، من أبنية المبالغة، وعين ثجوج: غزيرة الماء)^(٢).

وهو ماء السيل الذي ينزله الله سبحانه وتعالى من السماء عن طريق الغيوم التي تعد مخازن للمياه التي تمر بمراحل عديدة تبدأ من عملية تبخر (الماء) من المسطحات المائية الأرضية وصعودها إلى السماء ثم التجمع بالسماء بشكل سحب إلى مرورها بتيار من الهواء البارد أو مرور تيار من الهواء البارد الذي يتسبب في تكاثف هذه الغيوم فتتزل على شكل قطرات ثجاج إلى الأرض من (المعصرات).

وقد فسر الشيخ الطوسي ذلك : ((والمعصرات: السحاب تعتصر بالمطر، كأن السحاب يحمل الماء ثم تعصره الرياح، وترسله كإرسال الماء بعصر الثوب. وعصر القوم: مطروا. والثجاج: الدفاع في انصبابه كتحج دماء البدن، يقال: تحجبت دمه أتحه ثجا وقد تحج الدم يثج ثجوجا، وفي الحديث: (أفضل الحج العج فالثج) فالعج: رفع الصوت بالتلبية، والثج: إسالة دم الهدي))^(٣).

وقد جاء في تفسير السيوطي ((وأخرج الطستى عن ابن عباس أن نافع بن الأزرق قال له اخبرني عن قوله وأنزلنا من المعصرات قال السحاب يعصر بعضها بعضا فيخرج الماء من بين السحابتين قال اخبرني عن قوله ثجاجا قال الثجاج الكثير الذي ينبت منه الزرع))^(٤).

التاسع عشر : الماء الدافق

قال تعالى : (خَلَقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ)^(٥)

((دفق: دفع الماء دفوقا ودفقا إذا انصب بمرة، والماء الدافق. والنطفة تدفق، وأندفق الكوز: انصب بمرة ودفق ماؤه))^(٦).

الماء الدافق : هو الماء الذي يخرج على شكل دقات وهو ماء الرجل، ونلاحظ هنا كيف وظف الله سبحانه وتعالى مفردة (الماء) في السياق الذي لولاه لما كانت الحياة سواء في الخلق الأول أو استمرار بني البشر على وجه الأرض، وتأتي المحافظة على استمرار الجنس البشري بالتكاثر عن طريق التناسل، وكنتيجة حتمية

١ - النبأ / ١٤.

٢ - لسان العرب ، أبن منظور : ٢ / ٢٢١.

٣ - تفسير مجمع البيان ، الشيخ الطبرسي : ١٠ / ٢٣٨.

٤ - الدر الثور ، جلال الدين السيوطي : ٦ / ٣٠٦.

٥ - الطارق / ٦.

٦ - كتاب العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي : ٥ / ١٢٠

جعلها الله سبحانه وتعالى أس لوجود بني البشر كان (الماء) الدافق هو السبب المباشر في المحافظة على البشر من الانقراض، فلو لا الماء لكان كل شيء هباءً وفناءً ولا وجود للحياة حيث قال عز من قائل : (... وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)^(١)، وقد فسر الشيخ الطبرسي : ((الدفق: صب الماء الكثير باعتماد قوي،

ومثله الدفع. فالماء الذي يكون منه الولد يكون دافقاً، وهو القاطر المصب وهي النطفة التي يخلق الله منها الولد. وقيل: ماء دافق معناه مدفوق...))^(٢)، وقد جاء في تفسير فتح القدير: ((قال مقاتل يعني المكذب بالبعث مم خلق من أي شيء خلقه الله (سبحانه وتعالى) والمعنى فليُنظر نظر التفكير والاستدلال حتى يعرف أن الذي ابتدأه من نطفة قادر على أعادته ثم بين سبحانه ذلك فقال خلق من ماء دفق والجملة مستأنفة جواب سؤال مقدر والماء هو المنى والدفق الصب يقال دفقت الماء أي صببته يقال ماء دافق أي مدفوق مثل عيشة راضية أي مرضية قال الفراء والأخفش ماء دافق أي مصبوب في الرحم قال الفراء وأهل الحجاز يجعلون الفاعل بمعنى المفعول في كثير من كلامهم كقولهم سر كاتم أي مكتوم وهم ناصب أي منصوب وليل نائم ونحو ذلك قال الزجاج من ماء ذي إندفاق يقال دارع وقايس ونابل أي ذو درع وقوس ونبل وأراد سبحانه ماء الرجل والمرأة لأن الإنسان مخلوق منهما لكن جعلهما ماء واحداً لامتزاجهما))^(٣).

العشرون : ماء مدين

قال تعالى : (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءٌ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْتَقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْتَعِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)^(٤).

((مدين: اسم مدينة في طريق القدس ، كأنها بلد لشعيب عليه السلام))^(٥).

نرى مفردة (الماء) قد أضيفت إلى كلمة مدين فدلّت انتساب الماء للمدينة وبذلك تدخل مفردة (الماء) بوظيفة جديدة في السياق القرآني عن طريق انتسابها إلى ما أضيف إليه فتأخذ أسم الشيء التي أضيفت له وهذا دليل على العطاء والإيثار، فهي الأساس في كل شيء بعد الله سبحانه وتعالى ، والسبب في الوجود بعده جل شأنه فنراها تكون في أول الكلام كقولنا، (ماء مدين ، ماء الرجل ، ماء المطر ...)، وقد ورد في تفسير التبيان: (" حكاية ما قال موسى في توجهه، فانه قال: عسى أن يدلني ربي على سواء السبيل، وهو وسط الطريق المؤدي إلى الجاه، لان الأخذ يمينا وشمالا يباعد عن طريق الصواب، ويقرب منه لزوم الوسط على السنن،

١ - الأنبياء / ٣٠.

٢ - تفسير مجمع البيان ، الشيخ الطبرسي : ١٠ / ٣٢١.

٣ - فتح القدير ، الشوكاني : ٥ / ٤١٩.

٤ - القصص / ٢٣.

٥ - مجمع البحرين ، الشيخ فخر الدين الطريحي : ٤ / ١٨٣.

فهذا هو المسعى في الهداية، وقال الشاعر: حتى أغيب في سواء الملحد أي في وسطه، وقال عطاء: عرضت له أربع طرق لم يدر أيها يسلك، فقال ما قال.

ثم أخذ طريق مدين حتى ورد على شعيب، وهو قول عكرمة.

ثم حكى تعالى أن موسى " لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة " يعني جماعة " ^(١).

وجاء في تفسير ابن كثير: (مدين تطلق على القبيلة وعلى المدينة وهي التي يقرب معان من طريق الحجاز قال الله تعالى " ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون) ^(٢).

الحادي والعشرون : الماء السراب

قال تعالى : (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) ^(٣).

((السراب، أرض سبخة تطلع عليها الشمس فتبرق كأنها ماء)) ^(٤)، وهنا يحكي النص القرآني المبارك وبين لنا أهمية الماء فيصل إن الإنسان يسير خلف السراب ظنا منه انه يقصد الماء الذي لولا وجوده لكان الفناء مصيره، والسراب ما تراه العين منتصف النهار كأنه ماء يترأى لها ، لاسيما إذا كان الإنسان في شدة التعب والإعياء ، وقد وردت لفظة (السراب) في القرآن الكريم تشبيها لأعمال الكفار ، و(السراب) لا ينتفع منه الإنسان ولكنه يزرع فيه الأمل. وقد ورد في تفسير التبيان (اخبار تعالى عن أحوال الكفار، فقال والذين كفروا بتوحيد الله وإخلاص العباداة وجدوا أنبياءه " أعمالهم " التي عملوها يعني التي يعتقدون أنها طاعات وقربات " كسراب بقيعة " فالسراب شعاع يتخيل كالماء يجري على الأرض نصف النهار حين يشتد الحر والآل شعاع يرتفع بين السماء والأرض -كالماء- ضحوة النهار، والآل يرفع الشخص فيه. وإنما قيل سراب، لأنه يتسرب أي يجري كالماء و (قيعة) جمع قاع، وهو المنبسط من الأرض الواسع. وفيه يكون السراب) ^(٥).

وجاء في الأمثال في القرآن: (والسراب لا حقيقة له وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدى، وتأمل ما تحت قوله "يحسبه الظمان ماء والظمان" ... الذي اشتد عطشه فرأى السراب فظنه ماء فتبعه فلم يجده شيئا بل خانه أحوج ما كان إليه فكذلك هؤلاء لما كانت أعمالهم على غير طاعة الرسل ...

١ - التبيان ، الشيخ الطوسي : ٨ / ١٤١.

٢ - تفسير ابن كثير ، ابن كثير : ٢ / ٢٤١.

٣ - النور / ٣٩.

٤ - الفروق اللغوية ، أبو هلال العسكري / ٧.

٥ - تفسير التبيان ، الشيخ الطوسي : ٧ / ٤٤٢.

عليهم الصلاة والسلام ولغير الله جعلت كالسراب فرفعت لهم أظماً ما كانوا إليها ... فلم يجدوا شيئاً ووجدوا الله سبحانه...^(١).

الثاني والعشرون : ماء الأنهار والينابيع

قال تعالى: (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ^(٢)).

وقد جاء في تفسير هذه الآية المباركة ((قوله تعالى: " أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً " إلى آخر الآية ... الوادي سفح الجبل العظيم المنخفض الذي يجتمع فيه ماء المطر ومنه اشتقاق الدية لأنه جمع المال العظيم ... والزبد وضر الغليان وهو خبث الغليان ومنه زبد القدر وزبد السيل والجفاء ممدود مثل الغثاء واصله الهمز يقال جفا الوادي جفاء قال أبو زيد يقال جفأت الرجل إذا صرعه واجفأت القدر بزبدها إذا ألقيت زبدها ... فقال تعالى: " أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا " وقوله انزل فعل فاعله هو الله سبحانه لم يذكر لوضوحه وتنكير

ماء للدلالة على النوع وهو الماء الخالص الصافي يعنى نفس الماء من غير أن يختلط بشيء أو يشوبه تغير وتنكير أودية للدلالة على اختلافها في الكبر والصغر والطول والقصر وتغايرها في السعة والوعي ونسبة السيلان إلى الأودية نسبة مجازية نظير قولنا جرى الميزاب وتوصيف الزبد بالرابي لكونه طافيا يعلو السيل دائما وهذا كله بدلالة السياق وإنما مثل بالسيل ؛ لان احتمال الزبد الرابي فيه اظهر. والمعنى انزل الله سبحانه من السماء وهى جهة العلو ماء بالأمطار فسالت الأودية الواقعة في محل الأمطار المختلفة بالسعة والضيق والكبر والصغر بقدرها أي كل بقدره الخاص به فالكبير بقدره والصغير بقدره فاحتمل السيل الواقع في كل واحد من الأودية المختلفة زبدا طافيا عاليا هو الظاهر على الحس يستر الماء ستر^(٣)).

وقد فسرت الآية في موضع آخر ((... وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس... في الآية قال هذا مثل ضربه الله تعالى بين الحق والباطل يقول احتمل السيل ما في الوادي من عود ودمنة ومما توقدون عليه في

^١ - الأمثال في القرآن ، ابن قيم الجوزية / ١٦ .

^٢ - الرعد / ١٧ .

^٣ - تفسير الميزان ، السيد الطباطبائي : ١١ / ٣٣٤ - ٣٣٦ .

النار فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع النحاس والحديد وللنحاس والحديد خبث فجعل الله تعالى مثل خبثه كمثّل زبد الماء فإما ما ينفع الناس فالذهب والفضة وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فانبثت فجعل ذلك مثل العمل الصالح الذي يبقى لأهله والعمل السيء يضمحل من محله فما يذهب هذا الزبد فذلك الهدى والحق جاء من عند الله تعالى فمن عمل بالحق كان له وما بقى كما يبقى ما ينفع الناس في الأرض وكذلك الحديد لا يستطيع أن يعمل منه سكّين ولا سيف حتى يدخل النار فتأكل خبثه فيخرج جوده فينتفع به كذلك يضمحل الباطل وإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال فيرفع الباطل ويهلك وينتفع أهل الحق بالحق وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ من طريق السدي عن أبي مالك وعن أبي صالح من طريق مرة عن ابن مسعود... في قوله فسالت أودية بقدرها الآية قال فمر السيل على رأسه من التراب والغثاء حتى استقر في القرار وعليه الزبد فضربته الريح فذهب الزبد جفاء إلى جوانبه فيبس فلم ينفع أحدا وبقي الماء الذي ينتفع به الناس فشربوا منه وسقوا أنعامهم فكما ذهب الزبد فلم ينفع فكذا الباطل يضمحل يوم القيامة فلا ينفع أهله وكما نفع الماء فكذا ينفع الحق أهله هذا مثل ضربه الله...^(١).

وقال جل شأنه : (وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ)^(٢)، فسرت الآية الكريمة:

((قوله " وأنزلنا من السماء ماء بقدر " أي أنزلنا المطر والغيث بقدر الحاجة، لا يزيد على قدر الحاجة، فيفسد، ولا ينقص عنها فيهلك، بل وفق الحاجة. وقوله " فأسكنناه في الأرض " يعني انه تعالى أسكن الماء المنزل من السماء في الأرض وأثبتته في العيون والأودية. وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: (أربعة أنهار من الجنة: النيل، والفرات، وسيحان، وجيحان). ثم قال تعالى " وإنا على ذهابٍ به لقادرون " لا يعجزنا عن ذلك شيء ، ولو فعلناه لهلك جميع الحيوان، فنبههم بذلك على عظم نعمة الله على خلقه، بإنزال الماء من السماء.

ثم اخبر تعالى إنه ينشئ بذلك الماء (جنات) وهي البساتين (من نخيل وأعناب) لتنتفعوا بها معاشر الخلق (لكم فيها فواكه كثيرة) تفكهون بها (ومنها تأكلون) وإنما خص النخيل والأعناب، لأنها ثمار الحجاز، من المدنية والطائف. فذكرهم الله تعالى بالنعم التي يعرفونها.

وقوله: (وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ)^(٣) إنما خص الشجرة التي تخرج من طور سيناء، لما في ذلك من العبرة،

بأنه لا يتعهدا إنسان بالسقي، ولا يراعيها احد من العباد، تخرج الثمرة التي يكون فيها الدهن الذي تعظم الفائدة

^١ - الدر المنثور ، جلال الدين السيوطي : ٤ / ٥٥ .

^٢ - المؤمنون / ١٨ .

^٣ - المؤمنون / ٢٠ .

وتكثر المنفعة به^(١)، وقد فسرت الآية المباركة بتفسير آخر ، قوله تعالى: (وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ

بَلَدَهُ مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ) * ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَنْزَارَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفَلَاحِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْضَوْنَ﴾^(٢).

يقول تعالى ذكره: ((والذي نزل من السماء ماء بقدر يعني: ما نزل جل ثناؤه من الأمطار من السماء بقدر: يقول: بمقدار حاجتكم إليه، فلم يجعله كالطوفان، فيكون عذابا كالذي أنزل على قوم نوح، ولا جعله قليلا، لا ينبت به النبات والزرع من قلته، ولكنه جعله غيثا مغيثا، وحيا للأرض الميتة محييا فأنشرنا به بلدة ميتا يقول جل ثناؤه: فأحيينا به بلدة من بلادكم ميتا، يعني مجدبة لا نبات بها ولا زرع، قد درست من الجدوب، وتعفنت من القحوط كذلك تخرجون يقول تعالى ذكره: كما أخرجنا بهذا الماء الذي نزلناه من السماء من هذه البلدة الميتة بعد جدوبها و قحوطها النبات والزرع، كذلك أيها الناس تخرجون من بعد فنائكم ومصيركم في الأرض رفاتا بالماء الذي أنزله إليها لأحيائكم من بعد مماتكم منها أحياء كهيئتكم التي بها قبل مماتكم))^(٣).

وقال (عز من قائل): (أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعٌ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ

مُضْفَرًا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِّأُولِي الْأَلْبَابِ)^(٤)

وفسرت هذه الآية الكريمة: ((يقول الله تعالى مخاطبا لنبيه صلى الله عليه واله والمراد به جميع المكلفين... "ألم تر" يا محمد ألم تعلم " أن الله أنزل من السماء ماء" يعني مطرا " فسلكه ينابيع في الأرض " يعني أدخله في عيون الأرض ومنابعها. وقيل: السلوك دخول في الشيء، ولهذا حسن في صفة الماء الجاري ، فقيل فسلكه ينابيع في الأرض ، ويقولون : دخل في الإسلام ، ولا يقال سلك في الإسلام ، والينابيع جمع ينبوع، وهو خروج الماء من العيون . وقيل : ينبوع المكان الذي ينبع منه الماء تقول: نبع الماء من موضع كذا إذا فار منه ، و عيون الماء مستودع الماء، ونبع الماء إذا انفجرت به العيون.

وقوله: " ثم يخرج به " يعني بذلك الماء زرعاً ")^(٥).

وقد جاء في تفسير آخر لهذه الآية الكريمة: ((وكل إليهم في بعض الأسباب التي يتوصلون بها إلى ذلك من الحرث والزراعة ليشعرهم ما أن للأعمال ثمرات من الخير والشر فيكون ذلك داعيا لهم إلى فعل الخير فيجتنون لأثمرة واجتناب الشر ليسلموا من شر مغبته ثم تولى هو لهم من إنزال الماء ما لم يكن في وسعهم وطاقتهم أن ينزلوه لأنفسهم فأنشأ سحابا في الجو وخلق فيه ماء ثم أنزله على الأرض بمقدار الحاجة ثم أنبت

١ - تفسير التبيان ، الشيخ الطوسي : ٣٥٧ / ٧ .

٢ - الزخرف / ١١ - ١٢ .

٣ - تفسير جامع البيان ، ابن جرير الطبري : ٢٥ / ٦٨ .

٤ - الزمر / ٢١ .

٥ - تفسير التبيان الشيخ الطوسي : ٩ / ١٩ .

لهم به سائر أفواتهم وما يحتاجون إليه لملابسهم على ثم لم يقتصر فيما أنزله من السماء على منافعه في وقت منافعه حتى جعل لذلك الماء مخازن وينابيع في الأرض يجتمع فيه ذلك الماء فيجري أولاً فأولاً على مقدار الحاجة كما قال تعالى تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض ولو كان على ما نزل من السماء من غير حبس له في الأرض لوقت الحاجة لسال كله وكان في ذلك تلف سائر الحيوان الذي على ظهرها لعدمه الماء فتبارك الله رب العالمين الذي جعل الأرض بمنزلة البيت الذي يأوي إليه الإنسان وجعل السماء بمنزلة السقف وجعل سائر ما يحدثه من المطر والنبات والحيوان بمنزلة ما ينقله الإنسان إلى بيته لمصالحه ثم سخر هذه الأرض لنا وذلكها للمشى عليها وسلوك طرقها ومكننا من الانتفاع بها ...))^(١).

وقال تعالى : (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ)^(٢).

جاء في تفسير هذه الآية المباركة ((" وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً " يعني غيثاً ومطراً فأخرج بذلك الماء الثمرات رزقا

لعباده، وسخر لهم المراكب في البحر لتجري بأمر الله، لأنها تسير بالرياح والله تعالى المنشئ للرياح " وسخر لكم الأنهار " التي تجري بالمياه التي ينزلها من السماء، ويجريها في الأودية، وينصب منها في الأنهار))^(٣).

وقد جاء في تفسير آخر: ((يقول تعالى ذكره: الله الذي أنشأ السموات والأرض من غير شيء أيها الناس، وأنزل من السماء غيثاً أحيا به الشجر والزرع، فأثمرت رزقا لكم تأكلونه، وسخر لكم الفلك وهي السفن لتجري في البحر بأمره لكم تركبونها، وتحملون فيها أمتعتكم من بلد إلى بلد وسخر لكم الأنهار ماؤها شراب لكم))^(٤).

الثالث والعشرون : ماء الجنة (الماء السلسبيل)

قال تعالى (عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا)^(٥)، ((السلسبيل: عين في الجنة أي سلسلة لينة سائغة))^(٦)، وهو ماء في

غاية السلاسة وسهولة المرور في الحلق من شدة العذوبة وينبع في الجنة من عين تسمى سلسبيلا ؛ لان ماءها

^١ - تفسير أحكام القرآن ، الجصاص : ١ / ١٢٧ - ١٢٨.

^٢ - إبراهيم / ٣٢.

^٣ - التبيان ، الشيخ الطوسي : ٦ / ٢٩٧.

^٤ - تفسير جامع البيان ، ابن جرير الطبري : ١٣ / ٢٩٤ - ٢٩٥.

^٥ - الإنسان / ١٨.

^٦ - مجمع البحرين ، الشيخ فخر الدين الطريحي : ٢ / ٣٣٣.

على هذه الصفة ، ونلاحظ أن هنالك نقيض بين ماء أهل الجنة وماء أهل النار كما سيتبين ذلك من خلال البحث وان ما يميز ماء أهل الجنة انه شديد العذوبة وسهل المرور في الحلق ، وهذه من النعم التي أنعمها الله سبحانه وتعالى على أهل البشر .

وجاء في القاموس المحيط عن كلمة (السلسيل) بأنه : (اللين الذي لا خشونة فيه) ^(١).

ونلاحظ كيف أن حركة كلمة (سلسيل) أسهمت بشكل مباشر في منح السياق صفة تفسيرية تتلائم مع القصد الإلهي في الترغيب للسعي الجدي والحثيث للعمل والتنافس من اجل الفوز بالجنة وورد عين السلسيل، ولننظر آراء بعض من المفسرين ونلاحظ قولهم في ذلك :

فقد قال البيضاوي في هذه الآية المباركة :

((السلاسة انحدارها في الحلق،والسهولة مساغها يقال شراب سلسل وسلسال وسلسيل ،...)) ^(٢)

وقال الزجاجي : أي ((يسقون عينا فيها تسمى سلسيلا لسلاسة انحدارها في الحلق وسهولة مساغها .

وقال ابو العالية ومقاتل بن حيان: سميت سلسيلا لأنها تسيل عليهم في الطريق ، وفي منازلهم تنبع من أصل العرش من جنة عدن إلى أهل الجنان ، والسلسيل في اللغة وصف لما كان في غاية السلاسة، يقال : شراب سلسيل وسلسل وسلسال ، وقد زيدت الياء فيه حتى صار خماسيا ، ودل على غاية السلاسة ...)) ^(٣).

^١ - القاموس المحيط ، الفيروز آبادي : ٣ / ٣٩٨.

^٢ - بحار الأنوار ، العلامة المجلسي : ٣٨ / ١٣.

^٣ - عمدة القاري ، العيني : ١٥ / ١٤٨.

المبحث الثاني
مفردة (الماء) ودلالاتها
الإعجازية في النص القرآني

مفردة الماء ودلالاتها الإعجازية :

للمفردة القرآنية دلالة إعجازية، كون السياق القرآني يتشابك فيه الشكل مع المضمون في سياق تركيبه مقصود، فهناك إعجاز في تخير اللفظ وانتقاء الكلمة وما ينعكس ذلك على البنية والمعنى العام بشكل يتلاءم مع المراد الإلهي في النص القرآني^(١)، ولما كان النص القرآني مسبوكا في سياقه بدقة متناهية لا يقوى عليها البشر ملبيا المرام الإلهي فحركة الكلمة في الآية القرآنية لها أثر في تكوين المعنى بما يتناسب مع المعجز الإلهي فأن القرآن الكريم معجز في كل شيء فلا بد أن يكون المعنى بمستوى اللفظ ، واللفظ بمستوى المعنى، فينتج عن ذلك توافق بين الصورة والرزق والمراد الآلهي وبين العناصر الذاتية للسياق التركيبي مع سبب مجيئه فضلاً عن العوامل الخارجية التي هي (أسباب النزول)، وما تفرضه على السياق من سمات وخصائص فنية^(٢)، ولما كان القرآن الكريم منزّه عن كلام البشر بحسب ما أقر به العرب ووقفوا عند علو فنيته ، فأن اللفظ القرآني بانتظامه في السياق يكون وحدة موضوعية ، تدخل الكلمة فيها محرّكة للنظام السياقي ومنتجة للمعنى بتشابك الشكليات والمعاني الخارجة منها والمعاني الظاهرية والباطنية (التوليدية)^(٣)، فكيف إذا كان الكلام المقصود كلاماً ربانياً إرادة الله سبحانه وتعالى هداية للبشر، حينئذ يصبح اللفظ قطب الرّحى الذي يدور حوله المعنى^(٤)، فاللفظ المختار في السياق يحمل معه شيئين :

أولاً : انه مقصود رباني في محله هذا من السياق .

ثانياً : له حركته التي تضخ في النص القرآني الدلالة الإعجازية .

ولما كانت مفردة (الماء) قد اختيرت لسياقات قرآنية كثيرة فقد منحت النص القرآني طاقة تفسيرية فتمحركات الإيحائية على إعجازية لفظية (الماء) فهي لم تأت اعتباطاً في النص القرآني ،إنما لحكمة إلهية فيترتب على ذلك أن تكون للماء دلالاته التفسيرية والإعجازية فضلاً عن الدلالات الأخرى، ولما كان (الماء) مصدر الحياة الوحيد لكافة الموجودات الكونية فقد أثبت جيولوجياً إنه يشكل ٧٠% من مساحة الأرض^(٥)، ولا غرو في ذلك لان جل من قائل بين ذلك: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)^(٦) وقوله جل وعلا: (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْ خُضْرٍ مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنَ

١ - ظ : الأداء البياني في لغة القرآن الكريم ، د . صباح عنوز / ٢٦.

٢ - ظ : محاضرات د . صباح عنوز ألقاها على طلبة الدكتوراه في كلية الفقه ، جامعة الكوفة ، عام ٢٠٠٩ - ٢٠١٠ / ٢.

٣ - المصدر نفسه / ٣.

٤ - ظ : الأداء البياني في لغة القرآن الكريم ، د . صباح عنوز / ٢٥.

٥ - ظ : شبكة الانترنت ، منتديات الفارس العربي ، الماء والحياة

<http://faresarabia.com/showthread.php?t=20346>

٦ - الأنبياء / ٣٠.

أَعْتَابِ وَالزُّرِّيُونَ وَالرَّيْحَانُ مُشْتَبِهًا وَغَيْرِ مُشْتَبِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ^(١) ولما كان الإعجاز

خرقا للمألوف في نواميس الكون من الثابت إلى المتحول، فإن الإعجاز العلمي رسالة حقيقية ترشد (أولي الألباب) إلى حقيقة قدرة الله سبحانه وتعالى، فاللفظ القرآني يهتم بالتوليد اللغوي من خلال الطاقة الإيحائية للفظ وما تولده من معان بحركتها في السياق كما سنرى ذلك في محاور هذا البحث وانعكاسات حركة كلمة (الماء) إعجازيا داخل السياق القرآني.

فالحمد لله الذي جعل من الماء كل شيء حي، وينزله على الأرض الخاشعة مطرا، فتهتز وتربو، وما تلبث أن تنبت من كل زوج بهيج، ثم يهيج فتراه مصفرا، وذلك حين حصاده، وهكذا يدور الزمان بالأحياء نباتات كانت أم حيوانات أو غيرها، فتبارك الله أحسن الخالقين .

سنسلط الضوء في هذا المبحث على نوعين من الإعجاز :

أولهما : الإعجاز العلمي لبعض أنواع الماء .

ثانيهما : الإعجاز البياني لمفردة (الماء) .

أولا : الإعجاز العلمي (للماء) :

يبقى القرآن الكريم معجزة عقلية تسير الأزمنة ومراعية لحال المخاطب في كل عصر لذا تميزت عباراته بالتكثيف الدلالي والحضور البلاغي والقصدية التي لا تنفصل عن عقل المتلقي^(٢) ، وبتقدم الحياة والعلم معا فان القرآن الكريم يثبت نفسه انه منزل من واحد احد خلق الكون بتدبر مصداقا لقوله تعالى : (اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ

السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ

لَعَلَّكُمْ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ تَوْفُونِ)^(٣)، وكان الماء واحدا من تلك المعجزات اللأهية التي تستمر بكشف خباياها

الأزمنة وتدلي على عظمة الخالق جل وعلا.

قال تعالى: (أَوَكُمِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا مِرْقًا فَفَنَنَّا هُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)^(٤)،

فجاء العلم ليؤكد أن مركب الماء المتكون من اتحاد غاز الأوكسجين مع غاز الهيدروجين بنسبة (٢-١) قد جعلت الماء مركباً حياتياً لا يمكن أن يكون مفيدا للبشرية ما لم يتكون على هذه الشاكلة كما يبين العالم

١ - الأنعام / ٩٩.

٢ - ظ : الأداء البياني في لغة القرآن الكريم / ٩.

٣ - الرعد / ٢.

٤ - الأنبياء / ٣٠.

مندلييف في تصنيفه الدوري للعناصر عبر تراكبها وتسلسل خصائصها وصفاتها فبين أن خصائصها تتدرج في نظام مدروس بديع وليس خبطة عشواء^(١)، وقد وجد أن مركب الماء أنفرد عن جميع المركبات الكيميائية بخصائص جعلته متميزا في كل صفة من الصفات عن جميع المركبات السائلة والصلبة^(٢)، فكلمة (الماء) في الآية القرآنية المباركة السابقة جاءت بلفظ العموم وأكد ذلك العموم بـ (كل) وأكد ذلك بإضافة (شيء) إلى (كل) وجاء التأكيد الأخير بكلمة (حي)، وعلى وفق هذا فإن (الماء) هو مصدر كل شيء حي ، فكان لفظ (الماء) الذي جاء تاليا لحرف الجر وهذا الأخير (من) جاء تاليا من فعل (الجعل) بين بحركته الإعجازية أي(الماء) إنه أس الحياة، إذ كان للجعل الإلهي من (الماء) هو المحرك الأساس لديمومة الحياة فأكد العلم إن الحرارة النوعية (للماء) فريدة وهي في منتهى التقدير المعجز؛ لأنه يغطي ثلاثة أرباع سطح الكرة الأرضية وهو يقوم بأثر تلطيف حرارة الجو المحيط بالأرض لصيانة حياة الإنسان و الكائنات الحية المختلفة، فلو لم يكن للماء هذه الحرارة النوعية العالية فأن أقل ازدياد للحرارة على سطح الأرض يमित كل الأحياء وانخفاضها يجمد المخلوقات^(٣)، إذ أن دورة الماء في الحياة يأتي ديمومة يأتي عبر (حرارة النوعية العالية ليمتص كل غرام منه "حريرة" كاملة كلما ارتفعت درجة حرارته "درجة واحدة"...كما انه عند حدوث البرودة فإنه يعطي كميات كبيرة من الحرارة من دون أن تتخفض درجة حرارته كثيرا)^(٤)، وهذا الأمر لا نجده على حد أراء العلماء في السوائل الأخرى المذابة، (ومن العجيب إن كل حرارة الانصهار للمعادن هي في حدود بعض حريرات بينما تقفز حرارة انصهار الماء إلى أضعاف مضاعفة فتبلغ ٨٠ حريرة لكل غرام واحد من الجليد وهي كمية كبيرة من الحرارة:وهنا نقف لتتساءل أو ليس في تخصيص الماء في هذه الخاصية المنفردة تقدير وأحكام لها من الله سبحانه وتعالى؟،فأنه يدل على مدى رحمة الله سبحانه لنا وعنايته الفائقة بنا وتدبيره لأمرنا)^(٥)، فضلا عن ذلك فإن عند تحول كل غرام من الماء من الطور السائل إلى الطور الغازي فإنه يحمل ٥٤٠ حريرة وهي حرارة تبخر الماء ولم يشهد لها مثل في سائل من السوائل، وعلى وفق ذلك فأن الجو الملائم لرجوعها إلى شكلها السائل الأول هو الشتاء فتصبح مطرا وسيولا تغمر الأرض وتلطف الجو في حدود تحمل الكائن الحي،ولولا نعمة"حرارة التبخر لجمدت الأرض^(٦)، ولا نريد ان ندخل في الجوانب العلمية المحضة ولكننا نومي إلى أشياء علمية منها بما يخص ملوحة البحار وزيادة تركيز الملح إلى مادون الدرجة (٢٢) يجعل درجة تجمد ماء البحر أخفض من الصفر الأمر الذي يسمح ببقاء ماء البحر سائل إلى الدرجة (١٠) فيؤدي ذلك إلى تيسير الملاحة مدة اكبر في الشتاء فضلا عن ذلك فإن الماء المالح يسهل

^١ - الإعجاز العلمي ، لبيب بيضون / ١٧٠.

^٢ - ظ : الإعجاز العلمي ، لبيب بيضون / ١٧.

^٣ - ظ : المصدر نفسه / ١٧١.

^٤ - الإعجاز العلمي ، لبيب بيضون / ١٧١.

^٥ - المصدر نفسه / ١٧٢.

^٦ - ظ : المصدر نفسه / ١٧٣.

على الحيوانات والأسماك والإنسان السباحة لأنه يخفف وزنها وكذلك تعمل ملوحة البحار على تعقيم المياه فتمنع التعفن والأمراض^(١)، فوجود (الماء) في ثلاثة أرباع الكرة الأرضية رحمة للناس ؛ لأن الجراثيم ستتحصر في ربع من مساحة الأرض هذا من جانب ومن جانب آخر فإن (الماء) يدخل في تركيب النباتات بنسبة ٩٩% ، أما في الحيوانات والإنسان فإن نسبته تزيد على ٧٥% لأنه يدخل في تركيب جميع أخلط الجسم^(٢)، إن وجود كلمة (الماء) عبر حالة التوقع والاحتمال لحركة الكلمة أخذت أهمية كبرى وحركت السياق بما يتلائم مع المعجز العلمي فلو قلنا وجعلنا من (.....) كل شيء حي فإن القيمة الكبرى لحركة الكلمة الإعجازية في السياق تأتي من خلال التعويض ولما اختار الله سبحانه وتعالى (الماء) فأصبحت هي وساطة الجعل الإلهي ومصدر الحياة هذا من جهة (ومن جهة أخرى فقد أودع الله سبحانه وتعالى خصائص ضرورية منها قدرته على حل غاز الفحم "C O 2" ولولا هذه الخاصية لما أمكن نقل غاز الفحم السام الناتج عن احتراق السكائر في الجسم من العضلات إلى الرئة ليتم طرحه إلى الخارج عن طريق التنفس، وإن الماء بهذه الخاصية أيضا يقوم بمهمة كبيرة جدا في الطبيعة فلولا امتصاصه لغاز الفحم لزادت نسبته كثيرا في الهواء^(٣).

ولنتأمل بعض مفردات كلمة (الماء) بآثرها الأعجازي :

أ - الإعجاز العلمي للماء الطهور

قال تعالى : (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا)^(٤)، جاء في تفسير التبيان: (ثم ينزل "من السماء ماء طهوراً" أي طاهراً مطهراً مزيلاً للأحداث والنجاسات مع طهارته في نفسه)^(٥) وبذلك فإن العلماء يصرحون أن (ماء) المطر هو (ماء) مقطر، وهذا الماء النقي له خصائص مطهرة ... لذا فإن الله سبحانه وتعالى أطلق على (الماء) النازل من السماء (الماء الطهور) وهي تسمية دقيقة من الناحية العلمية ، (وماء المطر أفضل أنواع المياه، لاسيما إن كان من سحب راعد، حيث تتأين قطرات الماء بفعل الشحنات الكهربائية، ويصبح جزء من ماء المطر قاعدياً (قلوياً)، وجزء آخر حمضياً ، ولكل منهما تأثيره في العلاج ، سواء بالشرب (القلوي)، أو الاغتسال به (الحمضي) وهو أرطب وأنقى من سائر المياه)^(٦)، فالماء

١ - ظ : المصدر نفسه / ١٧٥.

٢ - ظ : المصدر نفسه / ١٧٦.

٣ - الإعجاز العلمي ، لبیب بیضون / ١٧٧.

٤ - الفرقان / ٤٨.

٥ - تفسير التبيان للشيخ الطوسي : ٧ / ٤٩٦.

٦ - الطب الوقائي (الماء) ، د. خالد أبو الفتوح فضالة ، ٢٦.

النازل من السماء...يعد ماء مقطرا مئة بالمئة كونه ناتج عن تبخر الماء من البحار...ثم يتكثف ويعود إلى حالته السائلة^(١).

لذا فهو ماء نقي...ويعد هذا الماء مادة مطهرة ومعقمة تستخدم في الطب، وهذا الماء خال من الفيروسات والبكتيريا وهو أيضا يمتلك خاصية امتصاص المعادن والغازات والغبار وأي مادة تصادفه بنسبة كبيرة، لذلك فهو مادة مطهرة^(٢).

ولذلك يكمن الإعجاز العلمي في كلمة (طهور) التي أصبحت نواة لحركة المعنى بحسب قوله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا)^(٣).

ب - الإعجاز العلمي في (الماء الفرات)

قال تعالى :

١ - (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلْ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَخْجُورًا)^(٤).

٢ - (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلَّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى

الْفُلَّكَ فِيهِ مَوَازِيرَ لَبَنَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)^(٥).

٣ - (وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِي شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا)^(٦).

((ماء فرات أي عذب ، والفروثة مصدر، ولو قيل: ماء فرت، لكان صوابا))^(٧)، والماء الفرات وهو نوع من أنواع الماء التي جاء ذكره في القرآن الكريم ولا بد من أن يكون لهذا الماء خصوصية اخصه الله سبحانه بها، وقد أفاض العلماء من خلال بحوثهم العلمية اللثام عن السر العجيب الذي يمتاز بها هذا النوع من المياه، فقد أكد العلماء إن الماء الفرات يستطيع أن يجدد الخلايا في الجسم بشكل اكبر من الماء العادي ، وقد أطلق الله

١ - ظ : شبكة الانترنت ، منتدى الطب التكميلي، العلاج بالماء النقي المقطر وليس بالماء المفلتر ، <http://www.teb-badil.com/forum/index.php?showtoic=117>

٢ - ظ : شبكة الانترنت ، منتدى الطب التكميلي، العلاج بالماء النقي المقطر وليس بالماء المفلتر ، <http://www.teb-badil.com/forum/index.php?showtoic=117>

٣ - الفرقان / ٤٨ .

٤ - الفرقان / ٥٣ .

٥ - فاطر / ١٢ .

٦ - المرسلات / ٢٧ .

٧ - كتاب العين ، الخليل بن احمد الفراهيدي : ٨ / ١١٥ .

سبحانه وتعالى اسم (الماء الفرات) على مياه الأنهار والماء المختزن في باطن الأرض وكذلك على الماء الذي نشربه، و(الماء الفرات) أي الماء المستساغ الطعم بسبب انحلال بعض المعادن والغازات فيه والتي تعطي الماء طعمه المعروف^(١)، ونجد أن القرآن الكريم عندما يتحدث عن مياه الأنهار فإن كلمة (فرات) تلتصق بها ولا تستخدم كلمة (طهور) إلا في سياق التحدث عن (مياه المطر)؛ لأن الماء النازل من السماء ماء نقي ١٠٠% وهو ما يسميه العلماء بالماء المقطر ويعدونه مادة مطهرة ، بينما نجد كلمة (فراتا) لا يستعملها الله تعالى مع ماء السماء أبداً، بل مع الماء الذي نشربه ؛ لأن ماء الأنهار ليس نقياً ١٠٠% ، إنما هنالك بعض الأملاح والمعادن المنحلة فيه كالحديد والتي تعطيه طعماً حلواً مستساغاً وهذا يناسب كلمة (فراتا)^(٢) كما جاء في معجمات اللغة العربية .

ج - الإعجاز العلمي في (الماء الأجاج)

قال تعالى : ١ - (وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مُّخْجُوراً)^(٣) .

٢ - (وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلَةً تَلْبُسُونَهَا

وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ تَلْبَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَكُمْ تَشْكُرُونَ)^(٤) ، (الماء الاجاج : وهو بالضم الماء الملح الشديد

الملوحة)^(٥)، عندما نتأمل الآيات القرآنية السابقة نلاحظ أن الله سبحانه وتعالى أضاف صفة ثانية لماء النهر العذب وهي (فرات) ، وكذلك أضاف إلى ماء البحر المالح كلمة (أجاج) ، بينما جاء وصف واحد لماء المطر وهي صفة (طهور)، إن العلة في ذلك تكمن كما اخبر به العلم من خلال الأبحاث العلمية والتي أفضت عن إن مياه الأنهار والعيون والينابيع (أي مياه الشرب تحتوي على نسبة من الأملاح لا يمكن لنا أن نحس بوجودها وهذا مما يجعل طعم هذه المياه مستساغاً ، لذا فمياه الشرب لا يمكن أن نطلق عليها (المياه المالحة) فأطلق الله سبحانه وتعالى عليها اسم (ماء فراتا) ، وأضاف جل شأنه صفة إلى ماء البحر وهي الأجاج ليعطي وصفاً دقيقاً لهذه المياه بأن ملوحتها زائدة عن الحد المستساغ ، وأعطى (لماء المطر) صفة (الطهور) ؛ لأنه ماء نقي

^١ - ظ: شبكة الانترنت ، أنواع المياه بين العلم والقرآن ، -http://www.kahee17.com/ar/index.php/2010-02-02-02-13-13/77-2010-02-26-03-32-52

^٢ - ظ : شبكة الانترنت ، موقع طريق الإسلام - نعمة الإسلام ، البحث الأول ، http://akhawat.islamway.com/forum/index.php?showtopic=248489

^٣ - الفرقان / ٥٣ .

^٤ - فاطر / ١٢ .

^٥ - من روايات عالم طينة الخلق ، مركز المصطفى (ص) صفحة شرح أصول الكافي ، للمولى محمد صالح المازندراني : ١٠/٨ .

ومقطر لا طعم له ولا رائحة لذلك تكفيه صفة واحدة وهي (الطهور)^(١) كما مر ذلك بنا من خلال أطواء البحث إن الماء (المالح) الأجاج الذي يغطي أربعة أخماس سطح الأرض ، بملوحته الشديدة ، التي جعلها الله رحمة للبشرية ؛ لان ماء البحر بوضعه الحاضر هو اكبر قاتل للجراثيم والأوبئة ، ولو لم يكن مالحا لكان اكبر وسط مساعد لنمو الجراثيم وتكاثر الأوبئة ، التي تغزو الأرض وتهدد حياة الإنسان ... فسبحان من جعله مالحا أجاجا ليحمينا من الأخطار والأضرار ، وكما نعلم أن جميع النفايات الضارة والسامة والأوسخة في العالم تصب في النهاية في مياه المحيطات ، وبملوحة مياهها الزائدة تقضي على كل أخطارها المتوقعة ويستهلك فسادها ويدراً عنا أخطارها وأمراضها^(٢).

قال تعالى: (بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ)^(٣)، من المعجزات الإلهية التي حيرت عقول العلماء، إن الماء المالح في

البحر، يوجد ضمنه في بعض الأحيان ينبوع للماء الحلو الزلال، ومع ذلك يظل الماء المالح بمعزل عن الماء الحلو بدون أن يختلط به، مما يسمح للبحارة بأن يتزودوا من الماء الحلو في الأمكنة المحددة التي يعرفونها، وأثناء جريان الماء الحلو مع ماء البحر المالح فأن هذين النوعين من الماء لا يختلطان مع بعضهما أبداً رغم هيجان البحر وحركة أمواجه العاتية ، وكأن بينهما غشاء شفافا يمنعهما من الامتزاج رغم تجاورهما ، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم (بالبرزخ)، حيث قال جل من قائل: (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ)^(٤) وفي هذا

الصدد لا بأس أن نذكر ماثرة للعالم الطبيعي الفرنسي المشهور ميشيل كوستو، أثناء دراسته في البحار لاحظ ظاهرة عدم امتزاج المياه المالحة بالمياه العذبة وكأن بينهما غشاء، لكنه لم يعرف تعليلا لذلك.

وبالصدفة كان يُقرأ القرآن في الإذاعة، والمقرئ يرتل آيات من سورة الرحمن، ذات الجرس العذب الخاص،

فأنجذب إليها، وسأل عن معناها، فقالوا له: إن القرآن يقول: (مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ) ، قال: ما

معنى هذا؟ قالوا: إذا التقى ماء البحر المالح مع ماء البحر العذب ، فإنهما لا يختلطان ببعضهما، وكأن بينهما برزخ (أي حاجز يمنعهما من الامتزاج) عند ذلك سجد العالم (كوستو) لله تعالى ، وأعلن إسلامه وإيمانه بالقرآن^(٥).

^١ - ظ : شبكة الانترنت ، أسرار المياه في القرآن الكريم ، <http://bmc-turquaz.com/vb/t315.html?langid=2> ،

^٢ - ظ : مقال ، مجلة الكوثر ، قم المقدسة ، العدد ٢ لسنة ١٤١٦ هـ و مجلة (نور الإسلام) البيروتية ، زاوية (هذا خلق الله) ، العدد ٦١-٦٢ السنة السادسة ، عام ١٩٩٦م.

^٣ - الرحمن / ٢٠.

^٤ - الرحمن / ١٩ - ٢٠.

^٥ - ظ : مقال ، مجلة الكوثر ، قم المقدسة ، العدد ٢ لسنة ١٤١٦ هـ و مجلة (نور الإسلام) البيروتية ، زاوية (هذا خلق الله) ، العدد ٦١-٦٢ السنة السادسة ، عام ١٩٩٦م.

ث - الإعجاز العلمي في (الماء الثجاج)

قال تعالى: (وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا)^(١).

((وقال بعض أهل اللغة: ثجبت الماء أئجه ثجا إذا أساله. وثج الماء نفسه يثج ثجوجا إذا انصب، فإذا كان كذلك فأن يكون ثجاجاً))^(٢).

لو تأملنا النص السابق في الآية الكريمة وغصنا في أغوار معانيه الكبيرة لوجدنا أنفسنا أمام بحر زاخر وموج هادر من المعرفة اللامتناهية، كيف لا وهي كلمات القرآن الكريم الذي لا يوجد كتاب على وجه الأرض يشبهه في دقة كلماته وقوتها وبلاغتها وإعجازها العلمي ، فقد كان الاعتقاد السائد في الأزمان الماضية أن الغيوم ليس لها وزن يذكر بل هي عبارة عن هواء كثيف يتجمع ثم ينزل إلى سطح الأرض على شكل أمطار !! وبعد التقدم التكنولوجي وازدياد الأبحاث العلمية والتقدم التقني ، أدرك العلماء إن الغيوم ما هي إلا ماء تبخر من البحار والمحيطات بفعل حرارة الشمس وأشعتها التي تسقط على هذه المسطحات المائية مما يؤثر فيها

فيتبخر قسم من هذه المياه نتيجة خفة وزنه ويصعد إلى أعالي الجو ثم يتكثف بفعل برودة الجو العالي ، ومن ثم تتحول هذه الغيوم إلى قطرات مطر ، لتعود إلى البحار ثم تعاد الكرة مرة أخرى في كل عام وكأنها دورة حياة خاصة بالمطر^(٣).

(لم يدرك احد الأثر المهم الذي تلعبه الشمس بوهجها وحرارتها في تبخر ماء البحر ، حيث تبين أن هناك أثراً مهماً لحرارة وهج الشمس وتأثيرها المباشر على حركة ذرات بخار الماء ، نعلم اليوم تماماً إن للشمس الأثر الأكبر في تبخير الكميات الضخمة من مياه البحر ، فكلما ارتفعت حرارة الشمس وزاد وهجها ازدادت كمية المياه المتبخرة)^(٤)، لما كانت الشمس هي مركز مجموعتنا الشمسية وضؤوها هو الذي ينيّر سطح الكرة الأرضية أثناء النهار ، فعلينا أن نميز بين ضوء الشمس، وهج الشمس، فضوء الشمس ليس هو السبب بتبخير الماء من البحار والمحيطات، بل وهج الشمس، أي كمية الإشعاعات المختلفة التي تبثها الشمس، فالشمس هي مصدر لعدد من الإشعاعات التي تبثها ، فتبث الطيف الضوئي المرئي وتبث الأشعة تحت الحمراء والأشعة فوق البنفسجية ، هذا الطيف الكامل من الأشعة المرئية وغير المرئية يسمى وهج الشمس ، والقران الكريم يتحدث عن وهج الشمس وأثره في إنزال المطر،

١ - النبأ / ١٤ .

٢ - لسان العرب ، ابن منظور : ٢ / ٢٢١ .

٣ - ظ : شبكة الانترنت ، موقع إعجاز القرآن الكريم ، <http://dc307.4shared.com/doc/R4pleprp/preview.html> .

٤ - ظ : شبكة الانترنت ، موقع <http://www.aadd2.com/vb/t77312.html> .

قال تعالى : (وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا^(١)) ، والمعصرات هي الغيوم حسب ما جاء بالتفسير: ((وأنزلنا من المعصرات) السحابات التي حان لها أن تمطر كالمعصر الجارية التي دنت من الحيض (ماء ثجاجا) صبابا^(٢)) ، ولو تأملنا في مفردة (وهاجا) وهي صفة حرارة الشمس التي سماها الله جل وعلا (بالسراج المشتعل) ، وهذه تسمية دقيقة من الناحية العلمية ، وهذه المفردة (وهاجا) لم ترد في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع ، وجاء بعدها مباشرة الحديث عن المطر وإنزاله ، حيث ربط القرآن الكريم بين (وهج الشمس) ونزول المطر من خلال كلمتين (وهاجا) و (ثجاجا)^(٣).

فعندما يصل حجم قطرات الماء في السحب إلى حد معين ، لا يستطيع الهواء معه حملها ، فإنها تسقط ، أو تترسب على الأرض بتأثير الجاذبية الأرضية على صور متعددة أهمها المطر ، ومنها الثلوج ، والجمد ، والبرد ، والندى ، والصقيع ، ويعتمد نوع الترسيب على برودة الجو حول السحب ، التي يسوقها الله سبحانه وتعالى - بالرياح - إلى حيث يريد أن تمطر ، وتعود ٨٠% من مياه الأمطار إلى الهواء بالبخر ، والباقي يسيل على سطح الأرض ، أو تمتصه الأرض (يغور في باطنها) ليكون المياه الجوفية ، فمجموع كمية الأمطار الساقطة على سطوح البحار والمحيطات سنويا (٢٨٤٠٠٠) كم مكعب ، وهو ما يقل عما يتبخر منها بحوالي (٣٦٠٠٠) كم مكعب ، ومجموع كمية المطر على اليابسة سنويا (٩٦٠٠٠) كم مكعب ، تزيد بنفس الكمية (٦٣٠٠٠) كم مكعب عن مجموع كمية البخر من اليابسة (٦٠٠٠٠) كم مكعب ، وهذه الزيادة تفيض إلى المحيطات والبحار لتحفظ لها توازنها ، فيبقى سطح الماء فيها ثابتا في الفترة الزمنية الواحدة ، فلولا دورة الماء حول الأرض ، لفسد كل ماء الأرض ، ولتعرض كوكبنا لحرارة قاتلة في النهار ، ولبرودة مجمدة بالليل ، فسبحان الذي إن شاء أثقل السحب وأمطرها^(٤) ، وإن شاء جعلها عقيما لا تمطر ، والذي ينزل الغيث من السحب الداكنة ، وينشر رحمته على عباده ، ولا يدانيه في قدرته أحد^(٥).

ثانيا الإعجاز البياني لمفردة (الماء)

سوف يتناول البحث بعض مفردات (الماء) وما لها من دلالة إعجازية بيانية وكالاتي :

عرفنا سابقا إن المطر هو أبخرة تتصاعد من الأرض والبحار والمصدر الأساس للماء لذلك اتسمت لفظتين في الإعجاز البياني وهما لفظة المطر والمشتق لها لفظة (غيث) وعن النبي صلى الله عليه وآله قال: (مثل ما

١ - النبأ / ١٣ - ١٤ .

٢ - ظ : تفسير الجلالين ، المحلي ، للسيوطي / ٧٨٧ .

٣ - شبكة الانترنت ، موقع عبد الدائم الكحيل ، للإعجاز العلمي في القرآن والسنة ، <http://www.kaheel7.com/modules.php?nam>

٤ - ظ : شبكة الانترنت ، موقع أفكار علمية ، من أسرار القرآن الكريم ، - <http://www.afkaaar.com/html/content-45.html>

٥ - ظ : الطب الوقائي ، د. خالد أبو الفتوح فضالة / ٥١ - ٥٢ .

بعثني الله به من الهدى و العلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكان منها نقيّة فثبت الماء، فأنبئت الكلاً والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفخ الله بها الناس فشربوا و سقوا و زرعوا^(١) وإن الكلمة في القرآن الكريم تعطي إعجازاً دلاليّاً متعدد المعاني حسب موقعها في السياق القرآني وسوف يحاول البحث الكشف عن بعض ما في مفردات القرآن من الإعجاز كونه معجزةً متجددةً باقيةً ما بقيت الدهور والأعوام فكيفما قلبت المفردة فأنتك تلمس ببصرك وبصيرتك إنه كلام رب العالمين وأنه هداية مستمرة مهما امتد عمر الدنيا وتباعدت الأيام ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه كونه تنزيل حكيم حميد، وهو بشرى للمؤمنين ورحمة لهم لن يظلوا ما تمسكوا به أبداً، فالمفردة القرآنية هي ذات عبق ودلالة وفكره توحى بأكثر من معنى، فالصورة التي ترسمها المفردة القرآنية هي شكل المعنى، أما اللفظ الذي هو اللبنة الأساس لتكوين النص الظاهر وما ينعكس عليه من معنى توليدي، فهي في حقيقة الأمر لبنة أساس في تكوين الصورة؛ لأن الصورة نتاج السياق إذ تكون مهمة اللفظة مهمة العلاقات الدلالية وللأخيرة فضل في (رسم الغاية عبر تماسك خيوط النص ، وإن ذلك طريقاً موصولاً إلى الصورة)^(٢)، فتأتي مفردة الماء من خلال تألفها من الأبنية والسياقات التي جاءت عليها محركاً قوياً لتكوين الصورة ، ففي قوله تعالى :

(... وَرَأَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)^(٣)، نرى هنالك رسم لصورة توحى

لنا إن نزول (الماء) كان سبباً في حركية الصورة المعبرة عن نمو النبات من الأرض الهامدة بعد نزول (الماء) عليها جعل هذه الأرض الهامدة تتحرك وتهتز وتخرج النبات بعد أن كانت هامدة من دون حياة، فهنا نكون أمام صورة حسية متحركة مرئية ، أفاضت بهجةً على السامع والمتأمل وكانت قد وصلت إلى مستوى المشاهدة العيانية ، وقد فسرت هذه الآية بتفسير عدة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر ما جاء بتفسير جامع الجوامع : ((والهامدة: الميتة اليابسة، وهذه دلالة أخرى على البعث، ولكونها معاينة ظاهرة كررها الله في كتابه (اهتزت وربت) تحركت بالنبات، وانتفخت لظهور نمائها (وأنبتت من كل) جنس مؤنق حسن الصورة سار للناظر إليه.))^(٤).

^١ - بهج الصياغة في شرح نهج البلاغة ، الشيخ محمد تقي التستري : ٢ / ٢١٣.

^٢ - الصورة الفنية بين حسيتها وإيقاع المعنى، د.صباح عنوز / ٨٩.

^٣ - الحج / ٥

^(٤) تفسير جوامع الجامع ، الشيخ الطبرسي : ٢ / ٥٤٩.

وجاء في كتاب القرآن وإعجازه العلمي تبيان لهذه الآية المباركة قال تعالى: ((مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ...))^(١)، عند مراجعتنا لكتب التفسير نرى أن صفة الجنة التي وعد الله

المتقين فيها أنهار من ماء غير متغير وأنهار من لبن لم يتغير طعمه. (النظرة العلمية لما جاء في هذه الآية المباركة : قررت الآية الكريمة حقيقة علمية قبل أن يكشف العلم بوسائله وأدواته عالم الميكروبات أي الجراثيم التي توجد في الماء الراكد الذي يصير مستودعا لملايين البكتيريا والطفيليات الضارة التي تصيب الإنسان والحيوان بالأمراض، فانه لما اخترع الإنسان المناظير المكبرة رأى بواسطتها الماء الراكد يموج بملايين الكائنات الدقيقة التي لا ترى بالعين المجردة وتتكاثر بسرعة هائلة فتفسد الماء وتجعله متغير الرائحة والطعم وسببا في الأمراض والأوبئة التي ما كان أحد يعرف مصدرها قبل اكتشافها بواسطة (الميكروسكوب) أي مكبر الصور إلى درجة كبيرة.))^(٢).

أ- الإعجاز البياني في لفظة المهل

قال تعالى:- ((وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا

يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا))^(٣)، ((يقال: هو النحاس المذاب. وقال أبو عمرو: المهل:

دردى الزيت. قال: والمهل أيضا: القيقح والصديد))^(٤) نلاحظ في سياق الآية القرآنية دلالة إعجازية بيانية وصورة حسية مرئية جاءت معبرة عنها لفظة (المهل) وهو نوع (الماء) الذي يشربه أهل جهنم فقد شبه الباري عز وجل شراب أهل جهنم (بالمهل) فتحركت الكلمة عبر التشبيه المرسل فرسمت لنا صورة مرعبة لحال أهل جهنم ، لو وقفنا قليلا متأملين ومتخيلين المشهد الذي رسمته لنا الآية القرآنية السابقة وكيف يكون السياق في حال لم توجد فيه مفردة (المهل) لما لها من قوة في التعبير عن المرام الإلهي فأى مفردة من مرادفات مفردة (الماء) في حال جاءت بديلة عن مفردة (المهل) لن تعطي الدلالة البيانية ذاتها ولن تكون الصورة الحسية مرعبة كما هي في حال وجود مفردة (المهل) في السياق، كيف لا وهو كلام الله (جل وعلا) وقد جاء في تفسير الصافي: ((وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُعَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ " يحرق الوجه عندما يُقرب منه.

يتجرعه يتكلف تجرعه ولا يكاد يسيغه ولا يقارب أن يسيغه فكيف يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان أي

(١) - محمد / ١٥.

(٢) القرآن وإعجازه العلمي ، محمد إسماعيل إبراهيم / ١١٧.

(٣) الكهف / ٢٩.

(٤) الصحاح ، الجوهري : ٥ / ١٨٢.

أسبابه من الشدائد فيحيط به من جميع الجهات وما هو بميت فيستريح ومن ورائه ومن بين يديه عذاب غليظ أي يستقبل في كل وقت عذاباً أشد مما هو عليه. حيث جاء عن العياشي عن الصادق عليه السلام عن أبيه عن جده عن أمير المؤمنين (عليهم السلام) (إن أهل النار لما غلى الزقوم والضريع في بطونهم كغلي الحميم سألو الشراب فأتوا بشراب غساق وصديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ حميم تغلي به جهنم منذ خلقت كالمهل يشوى الوجوه بنس الشراب وساءت مرتفقاً^(١)، وجاء في تفسير آخر: (وإن يستغيثوا يُغاثوا بماء كالمهل وهو الحديد المذاب قال الزجاج إنهم يغاثون بماء كالرصاص المذاب أو الصفر وقيل هو دردي الزيت وقال أبو عبيدة والأخفش هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس وقيل هو ضرب من القطران ثم وصف هذا الماء الذي يغاثون به بأنه يشوي الوجوه إذا قدم إليهم صارت وجوههم مشوية لحرارته بنس الشراب شرابهم هذا وساءت النار مرتفقاً ومتكأ^(٢)).

(ب) الإعجاز البياني في لفظة الماء السراب

قال تعالى: ((وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوْقَافَهُ

حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ))^(٣) نحن أمام صورة منتزعة من متعدد عاكسة خيبة أمل الكافرين ، فلم تأت مفردة

(الماء) هنا بما يظن من استعمالها الحقيقي؛ لأنها وقعت في مصاف الأمل المتلاشي الذي لا حصول له بالإمكان، فكان الفعل (يحسب) بوجود مفردة (الماء) قد ساعد لتحويل من الظن إلى الأمل غير المتحقق، ومن ثم التلاشي ، وكل ذلك جاءت به الصورة البيانية التشبيهية ، فالسراب ما يراه الإنسان وقت الحر وإذا كان في حالة الحر الشديد فتتحقق الصورة الإعجازية البيانية عبر التشبيه (المفرد المركب) فأعمال الكافرين تشبيه مفرد وللصورة التشبيهية المركبة تشبيه مركب وقد فسر الشيخ الطوسي الآية المباركة (أخبر تعالى عن أحوال الكفار، فقال والذين كفروا بتوحيد الله وإخلاص العبادات وجدوا أنبياءه " أعمالهم " التي عملوها يعني التي يعتقدون أنها طاعات وقربات "كسراب بقية" فالسراب شعاع يتخيل كالماء يجري على الأرض نصف النهار حين يشتد الحر والآل شعاع يرتفع بين السماء والأرض - كالماء - ضحوة النهار، والآل يرفع الشخص فيه.

وإنما قيل سراب، لأنه يتسرب أي يجري كالماء و(بقية) جمع قاع، وهو المنبسط من الأرض الواسع.

(١) التفسير الصافي ، الفيض الكاشاني : ٣ / ٨٣ .

(٢) فتح القدير ، الشوكاني : ٣ / ٢٨٢ .

(٣) النور / ٣٩ .

وفيه يكون السراب ومثله جار وجيرة، ويجمع أيضا على (أقواع، وقيعان)، والشعاع بالقاع يتكثف فيرى كالماء، فإذا قرب منه صاحبه انفس كالضباب، فلم يرده شيئا، كما كان.

وقال ابن عباس: القيعا الأرض المستوية.

والمعنى: إن الكافر لم يجد شيئا على ما قدر.

وقوله " ووجد الله عنده فوفاه حسابه " والمعنى إن الذي قدره من جزاء أعماله لا يجده، ويعلمه الله عند عمله فيوفيه جزاءه على سوء أفعاله^(١).

وجاء في تفسير آخر للآية الكريمة : ((وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ) جمع قاع: أي في فلاة وهو شعاع

يرى فيها نصف النهار في شدة الحر يشبه الماء الجاري (يحسبه) يظنه (الظمان) أي العطشان (يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ

مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا) مما حسبه كذلك الكافر يحسب أن عمله كصدقه ينفعه حتى إذا مات وقدم على ربه

لم يجد عمله أي لم ينفعه^(٢).

(ج) الإعجاز البياني في الماء المغيض

قال تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ أَفْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَفُضِيَ الْأَمْرُ وَالْجُودِي وَقِيلَ بَعْدَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)^(٣).

(والمغيض: الموضع الذي يغيض فيه الماء)^(٤)، عند التأمل بمفردات النص القرآني المبارك نجد تحقق الإعجاز البياني عبر الاستعارة التي جاءت معبرة عنها لفظة (الغيض):- وهي التي تعني القليل والنقصان في شيء فنلاحظ مفردة (غيض) جاءت مطابقة لمقتضى النص مهيمنة ومؤثرة في النص وحركة النص حركة مسايرة لماحة إلى الصورة والدلالة الاعجازية التي ساقتها لنا الآية القرآنية المباركة فكانت على مستوى كبير من البلاغة والأداء البياني محيطة بالمعنى إيجازياً وراسمة صورةً حسيةً مرئيةً تمكن المتأمل من فهمها من دون عناء وبتأمل يسير، إن فعل (ابلعي) الذي خلع الحياة من الماء فكانت الصورة البيانية المتحققة إستعارية حققتها مفردة (الماء) مانحة إياها بعداً آخر ، فصور الأرض كالإنسان البالغ للشيء، ونستشف هنا إن الصورة التشخيصية الحسية المرئية الماثلة أمامنا والتي رسمها لنا النص القرآني من خلال ما جاء في أطوائه من مفردات جعلت الأرض أكبر حجماً من الماء لذا غار في أطوائه مستوعبة له ، فكيف يكون الأمر إن كان (الماء) طوفاناً وكيف يكون حال الصورة المتخيلة والمرسومة في أذهاننا إن جاء أمر الله (سبحانه وتعالى)

(١) التبيان ، الشيخ الطوسي : ٧ / ٤٤٢ - ٤٤٣.

(٢) تفسير الجلالين ، المحلي ، السيوطي / ٤٦٥.

(٣) هود / ٤٤.

(٤) كتاب العين ، الخليل بن أحمد الفراهيدي : ٤ / ٤٣٠.

(بالغيض) لهذا السيل الهادر من الأمواج إذ غاص الماء فجأة في أغوار الأرض السحيقة فتتمثل أمامنا صورةً حسية حركية لمشهداً مهولاً معبراً عن إرادةٍ اعجازيةٍ للخالق (جل وعلا)، ولننظر كيف كان لمفردة (ماء) أثر في تكوين سياق النص القرآني ومن ثم كان للأخير أثر في رسم ملامح الصورة البيانية وكما جاء في تفسير قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ اقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)^(١) البلع إجراء الشيء في الحلق إلى الجوف، والإقلاع: الإمساك وترك الشيء من أصله، والغيض جذب الأرض المائع الرطب من ظاهرها إلى باطنها وهو كالنشف يقال: غاضت الأرض الماء أي نقصته. والجودي مطلق الجبل والأرض الصلبة، وقيل: هو جبل بأرض موصل في سلسلة جبال تنتهي إلى أرمينية وهي المسماة (آارات).

وقوله: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ اقْلَعِي) نداء صادر من ساحة العظمة والكبرياء لم يصرح باسم قائله وهو الله عز اسمه للتعظيم، والأمر تكويني تحمله كلمة (كن) الصادرة من ذي العرش تعالى يترتب عليه من غير فصل أن تبتلع الأرض ما على وجهها من الماء المتفجر من عيونها، وأن تكف السماء عن أمطارها. وفيه دلالة على أن الأرض والسماء كانتا مشتركتين في إطغاء الماء بأمر الله كما بيّنه قوله تعالى: (فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)^(٢).

وقوله: (وغيض الماء) أي نقص الماء ونشف عن ظاهر الأرض وانكشف البسيط، وذلك إنما يكون بالطبع باجتماع ما يمكن اجتماعه منه في الغدران وتشكيل البحار والبحيرات، وإنتشاف ما على سائر البسيطة. وقوله: (وقضى الأمر) أي أنجز ما وعد لنوح عليه السلام من عذاب القوم وأنفذ الأمر الإلهي بغرقهم وتطهر الأرض منهم أي كان ما قيل له كن كما قيل...)^(٣).

وقد فسر قوله تعالى: (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِ) ^(٤)، ((فجرت بهم السفينة إلى أن تنهاى الأمر، فأمر الله الماء المنهمر من السماء بالإمساك، وأمر الله الأرض بالابتلاع. ويقال: بلع الماء يبلعه مثل منع يمنع وبلع يبلع مثل حمد ويحمد ، لغتان حكاهما الكسائي والفراء.

(١) هود / ٤٤.

(٢) القمر / ١١ - ١٢.

(٣) تفسير الميزان ، السيد الطباطبائي : ١٠ / ٢٣٠.

(٤) الحاقة / ١١.

والبالوعة ... الموضع الذي يشرب الماء. قال ابن العربي: التقى الماءان على أمر قد قدر ، ما كان في الأرض وما نزل من السماء، فأمر الله ما نزل من السماء بالإقلاع ، فلم تمتص الأرض منه قطرة، وأمر الأرض بابتلاع ما خرج منها فقط. وذلك قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَّمَاءُ اقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ...)^(١)

وقيل: ميز الله بين المائين ، فما كان من ماء الأرض أمرها فبلعته، وصار ماء السماء بحارا. قوله تعالى : (وغيض الماء) أي نقص، يقال: غاض الشيء وغضته أنا، كما يقال: نقص بنفسه ونقصه غيره، ويجوز "غيض" بضم الغين ...)^(٢)

(د) الإعجاز البياني للماء غير الآسن

قال تعالى:- (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءُهُمْ)^(٣).

الماء الغير الآسن:- وهي صفة المياه في الجنة وتختلف عن المياه التي في الأرض كون مياهها ذات طعم عذب مستساغ لذيق وثابت غير متغير على خلاف ماء الدنيا وأن كثرة الأنهار وهي الأماكن الحاملة لجري (الماء) ، قد أخذت عظمتها حين انضمت إليها مفردة الماء فمناحتها طاقه حركية لونت السياق باللون الأبيض (أَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ) فكانت الصورة البيانية التي قامت على مفردة (الماء) بانضمامها إلى مفردة

(الأنهار) قد أسبغت صفة حسية لونية ذوقية على سياق الآية القرآنية المباركة، ونحن هنا أمام إعجاز بياني للفضة (غير آسن) تتحقق عبر التشبيه الضمني وكذلك عبر التناسق الرائع بين المفردات في الآية الكريمة مبينة لمعنى المراد الإلهي فنحن أمام صورة حسية تظهر فيها تفصيلات الصورة المجسمة للمستمتع وكان المشهد أمامه حياً متحرك أظهرته المعاني والألفاظ التي جاءت في سياق الآية القرآنية، وقد ورد في تفسير التفسير: ((وفي المجمع عن علي (عليه السلام) أنه قرأ أمثال الجنة بالجمع التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن غير متغير الطعم والريح وقرئ آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين لذيدة لا تكون فيها كراهة وريح ولا غائلة سكر وخمار القمي إذا تناولها ولي الله وجد رائحة المسك فيها وأنهار من عسل مصفى لم يخالطه الشمع وفضلات النحل وغيرهما ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة

(١) هود / ٤٤.

(٢) تفسير القرطبي ، القرطبي : ٩ / ٤١

(٣) محمد / ١٥.

من ربهم كمن هو خلد في النار كمثل من هو خالد في النار وسقوا ماء حميما مكان تلك الأشربة فقطع أمعائهم من فرط الحرارة.

القمي قال ليس من هو في هذه الجنة الموصوفة كمن هو في هذه النار كما أن ليس عدو الله كوليّه. وعن أبيه (عليه السلام) مرفوعا قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) لما دخلت الجنة رأيت في الجنة شجرة طوبى ويجري نهر في أصل تلك الشجرة يتفجر منه الأنهار الأربعة نهر من ماء غير آسن إلى قوله مصفى. وفي الكافي عن الباقر (عليه السلام) عن النبي (صلى الله عليه وآله) في حديث قال وليس من مؤمن في الجنة إلا وله جنان كثيرة معروشات وغير معروشات وأنهار من خمر وأنهار من ماء وأنهار من لبن وأنهار من عسل^(١).

وجاء في تفسير الآية المباركة : (... قال عكرمة " مثل الجنة " أي نعتها " فيها أنهار من ماء غير آسن " قال ابن عباس رضي الله عنهما والحسن وقتادة يعني غر متغير وقال قتادة والضحاك وعطاء الخراساني غير منتن والعرب تقول آسن الماء إذا تغير ريحه وفي حديث مرفوع أورده ابن أبي حاتم غير آسن يعني الصافي الذي لا كدر فيه .^(٢)

(١) التفسير الصافي ، الفيض الكاشاني : ٥ / ٢٣ .

(٢) تفسير ابن كثير ، ابن كثير : ٤ / ١٨٩ .

المبحث الثالث

أثر مفردة (الماء) في القصص

القرآني

أثر مفردة (الماء) في القصص القرآني

لما كانت الكلمة بوصفها لفظاً أو لبنة يعتمد عليها السياق من خلال ترابطها مع أخواتها، فهي تدخل السياق من أجل مهمة معنوية، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بالخطاب القرآني، فقد أخذ الأخير أدق الألفاظ دلالةً، وأتمها تصويراً، إذا استنفذت اللغة طاقاتها، فإن الكلمة القرآنية تتسع للمعنى متمسكة بالجرس والوزن والإيقاع^(١) وحين تدخل الكلمة التي يدور عليها المعنى في النص القرآني القصصي، فإنها تمنح القصة حيوية دلالية وتتجه إليها أواصر النص لتكون بؤرة الإشعاع التي تستدير حولها أحداث القصة القرآنية؛ لأن الكلمات هي الوسيلة الأساس لفهم معنى النص^(٢)، والأداة التي يرتبط بها السياق، ولولاها لظل النص مبهماً فارغاً من محتواه، فإذا أردنا أن نسرد قصة واضحة المعاني سهلة المضمون بعيدة عن التكلف، فلا بد أن نختار لها كلمات ذات دلالات تتلاءم مع هيئة القصة ومضمونها لتكون معروفة لدى المتلقي والسامع معاً، ومسبوكة بمفردات تجعلها أكثر وقعاً وأكثر إثارة، وكل هذا مهم في ربط عناصر القصة حتى وإن كانت هذه القصة خيالية وجب على القاص أن يختار المفردة في زمانها ومكانها المناسب، أما في القرآن الكريم وهو الكتاب المعجز الذي انزل من السماء إلى الأرض فإننا إذا تأملنا النصوص المباركة نجد فيها القصة التي تسرد قضية معينة فتصورها لنا وكأن الأحداث ماثلة أمام عيني المتلقي والسامع بصورة مرئية، فكل كلمة تقرأها تجد هنالك عبرة من وجودها، وإنها المؤثر في تحريك النص أي إن حركة الكلمة أدت أثراً مهماً في السياق القرآني، وهذا ما نلاحظه في مفردة (الماء) التي كان لها أثر قوي وإيحائية شديدة في إقناع القارئ للنص القرآني وعند متابعة الحوار القرآني الكريم نجد الشخصية القرآنية هنا قد أخذت مستويين، الشخصية ذات المستوى الواحد وهي التي نعني بها (غير المعقدة، وتمثل صفة أو عاطفة واحدة وتظل سائدة من مبدأ القصة حتى نهايتها)^(٣)، ونجد إن مفردة (الماء) كانت قطب الرchy في كثير من النصوص القرآنية؛ لأن (الماء) المخلوق الأول الذي خلقه الله (عز وجل) ثم منه خلق باقي الأحياء بما فيهم الملائكة والجن فهو أصل الكون^(٤)، لذلك تؤثر الكلمة كثيراً في سياق القصص القرآني وتعطي لمعنى الآية وضوحاً وسلاسة في الإفادة من العبر التي يرويها لنا القرآن الكريم عن الأمم الغابرة، يروي لنا القرآن الكريم عن الأمم الغابرة، قال الإمام علي (عليه السلام): (تعلموا القرآن فإنه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص)^(٥) وقد أثرت مفردة (الماء) باشتقاقاتها المتعددة على سياق القصص القرآني، وسوف يبين البحث من خلال إيراد بعض القصص وكيف أثرت حركة كلمة (الماء) في النص القرآني، فقد دخلت مفردة (الماء)

(١) ظ : بيان إعجاز القرآن ، الخطابي / ٢٥ - ٢٩ ، و ظ : الإعجاز البياني للقرآن بين النظرية والتطبيق ، د. حقي محمد شرف / ١٢٤.

(٢) ظ : محاضرات ألفاها د. صباح عباس عنوز على طلبة الدكتوراه في كلية الفقه ، جامعة الكوفة ، ٢٠٠٩ - ٢٠١٠ م.

(٣) النقد الأدبي الحديث ، د. محمد غنيمي هلال / ٥٦٥.

(٤) ظ : تفسير البغوي : ٤ / ١٣١.

(٥) نهج البلاغة ، خطبة ١١٠.

على القصة القرآنية وأسبغت على المعنى وضوحاً وسهولة في الفهم، ثم أعطت عنصراً مهماً وهو التشويق للنفس بوصفه العنصر المهم في حياة الإنسان، والسبب الأساس لديمومته وسوف يتناول البحث مجموعة من القصص القرآنية ليتضح لنا أثر مفردة (الماء) وكيف كان لها الأثر الكبير في أحداث هذه القصص:-

أولاً: قصة النبي نوح (عليه السلام) وأثر الماء فيها

قال تعالى : (إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)^(١)، حينما أرسل (الله تعالى) نبيه نوحاً

(عليه السلام) إلى قومه ودعاه إلى طاعة الله (عز وجل) وتقواه فإن دعوته لم تجد أذناً تسمعها أو لباً يفهمها

فاستكبروا على نبيهم الأكرم ، فجاء على لسان نوح (عليه السلام) قوله تعالى: (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ

جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا)^(٢) فقد جسد الشخصية القصصية ذات

المستوى الواحد ونعني بها غير المعقدة والتي تكون على مبدأ واحد وتظل سائدة من أول القصة حتى نهايتها

هو النبي نوح (عليه السلام) وكان هنالك نوع ثانٍ في القصة وهي الشخصيات النامية (التي تتطور وتنمو قليلاً

بصراعها مع الأحداث أو المجتمع فتتكشف للقارئ كلما تقدمت في القصة)^(٣)، ثم إذا أردت أن تتابع هذا الأمر

فإنك تقف على الحوار الذي كان بين الله سبحانه وتعالى ونوح (عليه السلام) ، حيث بدأ الحوار الإلهي بالإخبار

كما في قوله تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)^(٤)، وكأن الإشارة إلى العذاب

الأليم تمثلت بمجيء الطوفان الذي يدخل (الماء) العنصر الأساس فيه لتنفيذ المرام الإلهي، الأمر الذي دعا نبي

الله نوحاً (عليه السلام) بإيحاء من الله (عز وجل) إلى صنع الفلك ، ثم يبدأ الحوار بين نبي الله نوح

والشخصيات النامية ، كما جاء في قوله تعالى:(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ)^(٥)، فثمة علاقة بين

العذاب الأليم والإنذار المبين ولم يكن الله (سبحانه وتعالى) محققاً العذاب إلا بعد الإنذار لتلك الشخصيات التي

أسميناها النامية وكانت تتطور وتنمو مع الأحداث ولكن هذا التطور كان تطوراً سلبياً لذلك أنزل الله (سبحانه

وتعالى) عقوبته عليهم في الطوفان وكان ذلك واضحاً جلياً من خلال حوار نبي الله نوح مع الله (سبحانه

وتعالى) كما جاء في الآيات المباركة :

(١) نوح / ١.

(٢) نوح / ٧.

(٣) النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال / ٥٦٥.

(٤) نوح / ١.

(٥) هود / ٢٥.

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَنْزِلْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أُنَبِّئُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بُيُوتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَسَاطًا * تَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا * قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مِنْ لَمْ يَنْزِلْهُمْ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكْرُوهًا مَكْرًا كَبِيرًا)^(١).

ثم بين النص القرآني تطور هذه الشخصيات نحو السلب حيث بين نبي الله نوح (عليه السلام) إلى الله (جل وعلا) ما كانت عليه تصرفاتهم كما جاء في قوله تعالى :

(قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَنْزِلْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أُنَبِّئُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ بُيُوتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بَسَاطًا * تَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا * قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مِنْ لَمْ يَنْزِلْهُمْ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكْرُوهًا مَكْرًا كَبِيرًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ

(١) نوح / ٥ - ٢٢.

الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَالًّا * مِمَّا خَطَبْتَهُمْ أُغْرِقُوا فَأَذْخَلُوا نَارًا فَلَمَّا يَجِدُوا هُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دِكْرًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَكَاتِلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا^(١) .

ثم انتهى حوار نوح (عليه السلام) مع ربه (جل وعلا) بدعائه وطلبه من الله (سبحانه وتعالى) ألا تذرهم يعيثوا في الأرض كما جاء في قوله تعالى :

(وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ الْكَافِرِينَ دِكْرًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْنَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَكَاتِلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا)^(٢) .

ونجد أن نهاية هذا الحوار قد بين لنا إن شخصية نوح (عليه السلام) كانت شخصية ثابتة على الإيمان بينما كان قومه يمثلون الشخصيات النامية لوقوفهم موقفا سلبيا خلال مجريات أحداث القصة .

بينما نجد هذا الأمر في القصص القرآني يمثل إعجازا إذ أصبحت الحركة الخارجية للأحداث هي صنع الفلك لأمر الله (سبحانه وتعالى) ومثلت الحركة الباطنية النفسية للشخصيات الرافضة للإيمان فجاء أمر الله (سبحانه وتعالى) بالحدث ، فكانت كلمة (الماء) متمثلة بالطوفان الذي هو الباعث الأساس لذروة الحدث المتمثل بهول الطوفان ، كما جاء في قوله تعالى : (فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَقَامِرُ التَّنُورِ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنَ

كُلِّ نَرَوَجِّينِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَكَاتِلِدُوا فِي الْفُلِ الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)^(٣) (٤)

جاء في تفسير هذه الآية المباركة ، (عن أبي رزين الأسدي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: إن نوحا عليه السلام لما فرغ من السفينة وكان ميعاده فيما بينه وبين ربه في إهلاك قومه أن يفور التنور ففار التنور في بيت امرأة فقالت: إن التنور قد فار فقام إليه فحتمه فقام الماء وأدخل من أراد أن يدخل وأخرج من أراد أن يخرج ثم جاء إلى ... خاتمه فنزعه، يقول الله عز وجل: ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر وحملناه على ذات ألواح ودسر. قال: وكان نجره في وسط مسجدكم. ولقد نقص عن ذرعه سبعمائة ذراع ،

وكون فوران التنور علامة له عليه السلام يعلم به اقتراب الطوفان من الوقوع واقع في عدة من روايات الخاصة والعامة وسياق الآية : (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَقَامِرُ التَّنُورِ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ

(١) نوح / ٥ - ٢٧

(٢) نوح / ٢٦ - ٢٧ .

(٣) المؤمنون / ٢٧

(٤) ظ : محاضرات الدكتور صباح عنوز التي ألقاها على طلبة الماجستير ، كلية الفقه ، ٢٠١٠ - ٢٠١١ / ٣ .

الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ^(١)، لا يخلو من ظهور في كونه ميعادا. وفيه بإسناده عن إسماعيل الجعفي عن أبي

جعفر عليه السلام قال: كان شريعة نوح أن يعبد الله بالتوحيد والإخلاص وخلع الأنداد وهي الفطرة التي فطر الناس عليها وأخذ الله ميثاقه على نوح والنبیین أن يعبدوا الله تبارك وتعالى ولا يشركوا به شيئا وأمر بالصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحلال والحرام، ولم يفرض عليه أحكام حدود ولا فرائض مواريث فهذه شريعته. فلبث فيهم نوح ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم سرا وعلانية فلما أبوا وعتوا قال: (فَدَعَا رَبَّهُ

أَنِّي مَغْلُوبٌ فَاتَّصِرْ)^(٢) فأوحى الله عز وجل إليه: (وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا

يَعْمَلُونَ)^(٣)، فذلك قول نوح: (وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِاجِرًا كَفَرًا) فأوحى الله إليه: أن اصنع الفلك. أقول: ورواه العياشي

عن الجعفي مرسلا وظاهر الرواية أن له عليه السلام دعاءين على قومه أحدهما وهو أولهما قوله: (فَدَعَا رَبَّهُ

أَنِّي مَغْلُوبٌ فَاتَّصِرْ)^(٤)، وثانيهما بعد ما أيأسه الله من إيمان قومه وهو قوله: (وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنْ

الْكَافِرِينَ دَكِيمًا)^(٥).

وفي معاني الأخبار بإسناده عن حمran عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عز وجل : (وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا

قَلِيلٌ)^(٦) قال: كانوا ثمانية. أقول: ورواه العياشي أيضا عن حمran عنه عليه السلام، وللناس في عددهم أقوال

آخر : ستة أو سبعة أو عشرة أو اثنان وسبعون أو ثمانون ولا دليل على شيء منها.

وفي العيون بإسناده عن عبد السلام بن صالح الهروي قال: قال الرضا عليه السلام : لما هبط نوح إلى الأرض كان نوح وولده ومن تبعه ثمانين نفسا فبنى حيث نزل قرية فسمها قرية الثمانين. أقول: ولا تنافي بين الروايتين لجواز كون ما عدا الثمانية من أهل نوح (عليه السلام) وقد عمر ما يقرب من ألف سنة يومئذ وفيه بإسناده عن الحسن بن علي الوشاء عن الرضا عليه السلام قال: سمعته يقول: قال أبي: قال أبو عبد الله

(١) هود / ٤٠.

(٢) القمر / ١٠.

(٣) هود / ٣٦.

(٤) القمر / ١٠.

(٥) نوح / ٢٦.

(٦) هود / ٤٠.

عليه السلام: إن الله (عز وجل) قال لنوح : (قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ...) ^(١)؛ لأنه كان مخالفاً له،

وجعل من اتبعه من أهله ، ولعله (عليه السلام) يشير بقوله: (وجعل من اتبعه من أهله) إلى

قوله تعالى : (وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ) ^(٢).

فإن الظاهر أن المراد بأهله جميع من نجا معه ، وكأن المراد من قراءة الآية تفسيرها والراوي يشير الى تفسير الآية بأن المراد أن امرأة نوح حملت الابن من غيره فألحقه بفراشه ولذلك قرأ بعضهم: (ونادى نوح ابنها) أو (ونادى نوح ابنه) بفتح الهاء مخفف ابنها ونسبوا القراءتين إلى علي وبعض الأئمة من ولده عليهم السلام. قال في الكشف: وقرأ علي (عليه السلام) (ابنها) والضمير لامراته، وقرأ محمد بن علي وعروة بن الزبير (ابنه) بفتح الهاء يريدان (ابنها) فاكتميا بالفتحة عن الألف وبه ينصر مذهب الحسن قال قتادة: سألته فقال: والله ما كان ابنه فقلت: إن الله حكى عنه (إن ابني من أهلي) وأنت تقول: لم يكن ابنه، وأهل الكتاب لا يختلفون أنه كان ابنه ! فقال: ومن يأخذ دينه من أهل الكتاب؟ واستدل بقوله من أهلي ولم يقل: مني... وعن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله: (وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحُ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ

الكَافِرِينَ) ^(٣) (ونادى نوح ابنه) قال ليس بابنه إنما هو ابن امرأته وهي لغة طي يقولون لابن امرأته: ابنه.

وعن الرضا عليه السلام. وفيه عن إبراهيم بن أبي العلاء عن أحدهما عليهما السلام قال: لما قال الله: (وَقِيلَ يَا

أَرْضُ أَبْلَغِي مَاءَكَ وَيَا سَّمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ) ^(٤) قالت الأرض: إنما

أمرت أن أبلغ مائي أنا فقط، ولم أؤمر أن أبلغ ماء السماء فبلعت الأرض ماءها وبقي ماء السماء فصير بحراً حول الدنيا وفيه عن أبي بصير عن أبي الحسن موسى عليه السلام في حديث ذكر فيه الجودي قال: وهو جبل بالموصل. وفيه عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام (استوت على الجودي) هو فرات الكوفة ^(٥).

والملفت للنظر أنك تجد تكامل عناصر القصة القرآنية مبنوثة في سور أخرى فيظهر لك جليا تكامل الموضوع ، ووحدته ، ووحدتها ، ووحدتها القرآنية بينما لا نجد الأمر ذاته في القصة البشرية التي تتطلب تتابع في

(١) هود / ٤٦.

(٢) الأنبياء / ٧٦.

(٣) هود / ٤٢.

(٤) هود / ٤٤.

(٥) تفسير الميزان ، السيد الطباطبائي : ١٠ / ٢٤٣ - ٢٤٧

الأحداث تكتب في زمان واحد^(١)، فترى إن هذه القصة التي كان محورها حركة (الماء) جاءت أيضا في سورة هود كما في قوله تعالى: (وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيُنَا وَلَا تَخَاطِئْ فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ)^(٢)، وكان الماء هنا بأمر الله (سبحانه وتعالى) قد تغيرت وظيفته من مصدر لنمو الحياة إلى سبب لفنائها وحمل الخير والنأي به بعيداً إلى حيث إرادة الله سبحانه وتعالى لرسو السفينة بعد أن أنجى الله نبيه والذين امنوا معه من أمواج (الماء) العاتية كما جاء في قوله تعالى: (فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ)^(٣)، وكما كان وذلك واضح جلي من خلال ما جاء بتفسير الآية المباركة كما مر بناء قبل قليل . فلو تأملنا في أحداث ومجريات الآيات السابقة وأمعنا النظر بصورة دقيقة في قصة نوح (عليه السلام) مع قومه لوجدنا إن مفردة الماء كانت المحور الأساسي في أحداث هذه القصة من خلال ما نلاحظه في الدلالة الإيحائية من خلال ما جاء بسياق النص القرآني من مفردات، الطوفان وصنع الفلك وحوار نبي الله نوح (عليه السلام) مع ابنه وهروبه من الماء، وغيرها كلها كانت أمور مسيطرة على مجريات القصة ومن خلالها نلاحظ أن (الماء) وحركته كانت طاغية على مجريات القصة ، وقد جاء في تفسيرها: (أنها تبين حال المشركين وتعرضهم في الحال ابتلائهم بالطوفان والبلاء درساً وعبرة للآخرين)^(٤)،

وقد جاء في تفسير آخر للآية المباركة: (أن الله أعقم رجالهم قبل الطوفان بأربعين عاما وأعقم نساءهم فلم يتوالدوا أربعين عاما منذ يوم دعا نوح عليه السلام حتى أدرك الصغير وأدرك الحنث وصارت لله عليهم الحجة ثم أرسل الله السماء عليهم بالطوفان... ويزعم الناس إن من أغرق الله من الولدان مع آبائهم وليس كذلك إنما الولدان بمنزلة الطير وسائر من أغرق الله بغير ذنب ولكن حضرت آجالهم فماتوا لآجالهم والمدركون من الرجال والنساء كان الغرق عقوبة لهم)^(٥).

ثانيا : قصة النبي موسى (عليه السلام) وأثر مفردة (الماء) فيها :

ذكر الشكلائي (توما شفسكي) في مقاله (نظرية الأغراض) معرفا المتن الحكائي: (بأنه مجموعة الأحداث المتصلة فيما بينها والتي يقع إخبارنا بها خلال العمل)^(٦)، ووجد أن (المبنى الحكائي يتألف من الأحداث نفسها بيد انه يراعي نظام ظهورها في العمل كما يراعي ما يتبعها من معلومات تعينها لنا)^(٧)، فلما كانت قصص النبي موسى (عليه السلام) المتعددة مرتبطة بالماء وكان الماء حاملا للتأبوت من أجل النجاة كما جاء في قوله

(١) ظ : محاضرات الدكتور صباح عباس عنوز أقيمت على طلبة الماجستير ، كلية الفقه ، جامعة الكوفة ، ٢٠١٠ - ٢٠١١
(٢) هود / ٣٧ .

(٣) الشعراء / ١١٩ - ١٢٠ .

(٤) تفسير الأمتل ، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : ٦ / ٣٣٤ .

(٥) الدر المنثور، جلال الدين السيوطي : ٣ / ٣٣٢ .

(٦) نظرية المنهج الشكلي نصوص الشكلايين الروس ، ترجمة ، إبراهيم الخطيب / ١٨٠ .

(٧) نظرية المنهج الشكلي نصوص الشكلايين الروس ، ترجمة ، إبراهيم الخطيب / ١٨٠ .

تعالى (أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوِّي وَعَدُوُّهُ وَالَّذِينَ عَنِكَ مَحَبَّةٌ مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى

عَيْنِي^(١)، وقد جاء في تفسير هذه الآية المباركة: ((...ومما جاء في الروايات والتواريخ، أن أم موسى عليه

السلام) قد أَلْقَت الصندوق الذي كان فيه موسى وهي في حالة من الخوف والقلق، وحملته أمواج النيل، وأخذ قلب أم موسى يخفق من مشاهدة هذا المنظر، إلا أن الله قد ألهم قلبها أن لا يدع للهم والحزن إليه طريقاً، فهو سبحانه سيعيده إليها في النهاية سالماً. وكان قصر فرعون قد بني على جانب شط النيل، ويحتمل أن فرعاً من هذا النهر العظيم كان يمر داخل قصره، فحملت أمواج المياه الصندوق إلى ذلك الفرع الصغير، وبينما كان فرعون وزوجته على حافة الماء ينظرون إلى الأمواج، وإذا بهذا الصندوق الغريب يلفت انتباههما، فأمر جنوده أن يخرجوا الصندوق من الماء، فلما فتحوا الصندوق شاهدوا بكامل العجب مولوداً جميلاً فيه، وهو شيء لم يكن بالحسبان. وهنا تنبه فرعون إلى أن هذا الوليد ينبغي أن يكون من بني إسرائيل، وإنما لاقى هذا المصير خوفاً من جلاوزته، فأمر بقتله، إلا أن زوجته - التي كانت عقيماً - تعلقّت جداً بالطفل، فقد نفذ النور الذي كان ينبعث من عيني الطفل إلى زوايا قلبها، وجذبها إليه، فضربت على يد فرعون وطلبت منه أن يصرف النظر عن قتله، وعبرت عن هذا الطفل بأنه (قرّة عين)، بل وتمادت في طلبها، فطلبت منه أن يتخذه ولداً ليكون مبعث أمل لهما، ويكبر في أحضانها، وأصرّت على طلبها حتى أصابت سهامها، وحققت ما تصبو إليه. غير أن الطفل جاع، وأراد لبناً، فاخذ يبكي ويذرف الدموع، فرق قلب امرأة فرعون لهذه الدموع والبكاء واهتز، ولا محيص من أن يبحث الخدم عن مرصعة له، إلا أنهم كلما جاءوه بمرصعة لم يقبل ثديها، لأن الله سبحانه كان قد قدر أن يعيده إلى أمّه، فهب المأمورون للبحث من جديد، وكانوا يطرقون الأبواب بحثاً عن مرصع جديدة. والآن نقرأ بقية القصة في ضوء الآيات الشريفة: نعم يا موسى، فإنّا كنّا قدرنا أن نتربى بأعيننا وعلّمنا (إِذْ نَسِي

أُخْتُكَ) بأمر أمك لتراقب مصيرك، فرأت جنود فرعون: (فَقَالُوا هَلْ أَذْكَاءٌ عَلَيْكَ مِنْ نِكَالِهِ) وربما أضافت بأن

هذه المرأة لها لبن نظيف، وأنا مطمئنة بأن هذا الرضيع سيقبلها. فاستبشر الجنود على أمل أن يجدوا ضالتهم عن هذا الطريق، فذهبوا معها، فأطلعت أخت موسى - والتي كانت تظهر نفسها بمظهر الشخص الغريب والمجهول - أمّها على الأمر، فجاءت أمّه إلى بلاط فرعون، من دون أن تفقد سيطرتها على أعصابها، بالرغم من أن أمواجاً من الحب والأمل كانت قد أحاطت بكل قلبها، واحتضنت الطفل، فلما شم الطفل رائحة أمّه، وكانت رائحة مألوفة لديه، التقم ثديها كائنه تضمن لذة الروح وحلاوتها، واشتغل الطفل بشرب اللبن بلهفة

وعشق شديدين، فانطلقت صرخات الفرح من الحاضرين، وبدأت آثار الفرح والسرور على زوجة فرعون^(١).

من خلال ما جاء بالتفسير نجد إن (ماء البحر) في قصة نبي الله موسى (عليه السلام) كان فيها (الماء) منقذ المتقين ومهلك الطاغيين ، فتجلت الرحمة الربانية في إنقاذ موسى ومن معه ، وهلاك فرعون وصحبه ، كما جاء في قوله تعالى: (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)^(٢)، وجاء في

تفسير الآية القرآنية المباركة : (قصة موسى ع): وقصه فرعون مع بني إسرائيل في البحر، ولا نعلم جملة ما قال ابن عباس: أن الله أوحى إلى موسى (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ)^(٣) فسرى موسى ببني إسرائيل ليلاً " فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ)^(٤) في ألف ألف حصان سوى الأثاث. وكان موسى في ستمائة ألف ، فلما عاينهم قال: (إِنَّ هَؤُلَاءَ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ وَأَنَّهُمْ لَنَا لَآغِظُونَ)^(٥) ... فسرى موسى ببني

إسرائيل حتى هجموا على البحر، فالتفتوا فإذا هو برهج دواب فرعون "، (قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا...) ^(٦) هذا البحر أمامنا وهذا فرعون قد رهقنا بمن معه (قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ

وَيَسْتَخْلَفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ)^(٧) قال : فأوحى الله إلى موسى (فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ)^(٨)، وأوحى إلى البحر أن اسمع لموسى وأطع إذا ضربك ، قال:

فبات البحر له أكل أي له رعدة له يدري من أي جوانبه يضربه ، قال: فقال يوشع لموسى(ع) بماذا أمرت قال: أمرت أن اضرب البحر، قال: فاضربه ف ضرب موسى البحر بعصاه، فانفلق، فكان اثني عشر طريقا كالطود العظيم فكان لكل سبط منهم طريق يأخذون فيه فلما اخذوا في الطريق، قال: بعضهم لبعض ما لنا لا نرى أصحابنا قالوا لموسى: أصحابنا لا نراهم؟ فقال لهم: سيروا فأنهم على طريق مثل طريقكم، فقالوا: لا

(١) تفسير الأمتل ، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : ٩ / ٥٥٦.

(٢) الشعراء / ٦٣.

(٣) الشعراء / ٥٢.

(٤) طه / ٧٨.

(٥) الشعراء / ٥٤ - ٥٥.

(٦) الأعراف / ١٢٩.

(٧) الأعراف / ١٢٩.

(٨) الشعراء / ٦٣.

نرضى حتى نراهم، فيقال: إن موسى قال لله تعالى: اللهم اعني على أخلاقهم السيئة، فأوحى الله إليه انقل ... بعصاك هكذا يميناً وشمالاً ، فصار فيها كوى ينظر بعضهم إلى بعض .

قال ابن عباس: فساروا حتى خرجوا من البحر، فلما جاز آخر قوم موسى هجم فرعون هو وأصحابه ... وقيل لموسى ترك البحر رهوا أي طرقا على حاله، ودخل فرعون وقومه البحر فلما دخل آخر قوم آل فرعون وجاز آخر قوم موسى، انطبق البحر على فرعون وقومه فاغرقوا^(١).

ثم كان (للماء) أثر أيضا في زواج نبي الله موسى (عليه السلام) بعد لقاءه بأبنة شعيب (عليه السلام) قرب البئر (ماء مدين) ، كما جاء في قوله تعالى: (وَلَمَّا مَرَدَّ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْكُنُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ

تَذَوَّدَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)^(٢)، لو تأملنا قليلا في مجريات قصة ورود

نبي الله موسى (عليه السلام) إلى (ماء) مدين ، نرى إن (الماء) كان سببا مباشرا في زواجه وتغير مجرى حياة موسى (عليه السلام) وبذلك ينقلنا هذا الحدث إلى تغير في مجريات القصة القرآنية التي تحكي لنا قصة نبي الله موسى (عليه السلام)، وقد جاء في تفسير هذه الآية المباركة ، (إن موسى عليه السلام لما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون فلما فرغوا أعادوا الصخرة على البئر ولا يطيق رفعها إلا عشرة رجال فإذا هو بأمرأتين قال ما خطبكما فحدثناه فأتى الصخرة فرفعها وحده ثم استقى فلم يستق الا دلوا واحدا حتى رويت الغنم فرجعت المرأتان إلى أبيهما فحدثناه وتولى موسى عليه السلام إلى الظل فقال ربى انى لما أنزلت إلى من خير فقير قال فجاءته إحداها تمشى على استحياء واضعة ثوبها على وجهها ليست بسلفع من الناس خراجه ولاجة قالت إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فقام معها موسى (عليه السلام) فقال لها امشي خلفي وانعتي لي الطريق فأنى أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف جسدك فلما انتهى إلى أبيها قص عليه فقالت إحداها يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين قال يا بني ما علمك بأمانته وقوته قالت أما قوته فرفعه الحجر ولا يطيقه إلا عشرة رجال وأما أمانته فقال امشي خلفي وانعتي لي الطريق فأنى أكره أن تصيب الريح ثيابك فتصف لي جسدك فزاد ذلك رغبة فيه فقال إنى أريد أن أنكحك إحدى ابنتي هاتين إلى قوله ستجدني إن شاء الله من الصالحين أي في حسن الصحبة والوفاء بما قلت قال موسى (عليه السلام) ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على قال نعم قال الله على ما تقول وكيل فزوجه وأقام معه يكفيه ويعمل له في رعاية غنمه وما يحتاج إليه وزوجه صفورا وأختها شرفا وهما التي كانتا تذودان^(٣)، وكان (الماء) معجزة من معاجزه (عليه السلام) كما جاء في قوله تعالى: (وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ

(١) تفسير التبيان ، الشيخ الطوسي : ٢٣٠ - ٢٣١ .

(٢) القصص / ٢٣ .

(٣) تفسير الدر المنثور ، جلال الدين السيوطي : ١٢٤ / ٥ - ١٢٥ .

الْحَجَرِ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَهُمْ كَلُواْ وَاشْرَبُواْ مِنْ مَّرْفِقِ الْوَالِدِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (١)

،(وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين ،وإذ استسقى موسى لقومه: لما عطشوا في التيه ، فقلنا اضرب بعصاك الحجر: اللام فيه للعهد، على ما روي أنه كان حجرا طوريا مربعا فحملة معه، وكان تنبع من كل وجه ثلاث أعين، تسيل كل عين في جدول إلى سبط، كانوا ستمائة ألف، وسعة المعسكر اثنا عشر ميلا. (٢).

ولم ينتهي ما (للماء) من أثر في حياة نبي الله موسى (عليه السلام) فنرى أن هنالك محطة أخرى وإثارة قرآنية ثانية كان (للماء) أثر رئيسي فيها مع النبي موسى (عليه السلام) من خلال الحوار الذي دار بينه وبين الرجل الصالح كما جاء في قوله تعالى: (قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ

وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا) (٣)، ونرى أن لمفردة (الماء) جانب إعجازي في مجريات الآية الكريمة والتي جاء

في تفسيرها، قال: مجاهد ثم انطلق وانطلق معه فتاه يوشع بن نون حتى أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المكمل فخرج منه فسقط في البحر وأخذ سبيله في البحر سربا أي مسلكا في جوف الماء وأمسك الله عن الحوت جريه الماء فصار عليه مثل الطاق فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه حديث غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا ويعني بالنصب تعب الطريق قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به قال له فتاه عند إذ أويينا إلى الصخرة فإنني نسيت الحوت لأنه يريد ذكر ما جرى فيه إنسانية أخبرنا أي أن أذكره إلا الشيطان اتخذ سبيله في البحر عجا قال فكان للحوت سربا ولموسى وفتاه عجا فقال موسى ذلك ما كنا نبغي فارتدا على آثارهما قصصا قال فرجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة فإذا رجل مسجي بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر وإني بأرضك السلام قال أنا موسى قال موسى بني إسرائيل قال نعم آتيتك لتعلمني مما علمت رشدا قال إنك لن تستطيع معي صبرا يعني لا تطيق أن تصبر على ما تراه من عملي لأن الظواهر التي هي علمك لا تعطيه وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تخبر بوجه الحكمة فيه يا موسى إني على علم من علم الله علمنيه لا تعلمه يريد علم الباطن وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه يريد علم الظاهر فقال له موسى ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا فقال له الخضر فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا أي حتى اشرح لك ما ينبغ شرحه فانطلقا يمشيان على ساحل البحر فمرت بهم

(١) البقرة / ٦٠.

(٢) تفسير كنز الدقائق ، الميرزا محمد المشهدي : ١ / ٢٥٦.

(٣) الكهف / ٦٣.

سفينة فكلوهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغى نول يقول بغير أجر فلما ركبا في السفينة لم يفجأ موسى إلا والخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم فقال له موسى قوم حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا أمرا أي شنيعا من الأمور وقال مجاهد الأمر المنكر ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبيرا قال لا تؤأخذني يا بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا قال بن أبي كعب النبي صلى الله عليه وسلم فكانت الأولى من موسى نسيانا قال وجاء عصفور فوق على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، وفي رواية والله ما علمي وعلمك في جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطائر بمنقاره من البحر وفي رواية ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره قال ع وهذا التشبيه فيه تجوز إذ لا يوجد في المحسوسات أقوى في القلة من نقطة بالإضافة إلى البحر فكأنها لا شيء ولم يتعرض الخضر لتحرير موازنة بين المثال بين علم الله إذ علمه سبحانه غير متناه ونقط البحر متناهية ثم خرجا من السفينة (١).

ففرى إن لمفردة (الماء) أثرا كبيرا وأثرا بالغاً في حياة نبي الله موسى (عليه السلام) منذ ولادته حتى لقاءه بفرعون كما جاء واضحا جليا قوله تعالى : (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَأَلْقَاهُ فِي الْقَهْرِ وَكَأَنَّهُ يَخَافِي) وَكَأَنَّهُ يَخَافِي

تَخْزِييَ إِنَّا مَرَدُّهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢)، ففرى أن حركة الماء كانت حركة مسيطرة على كل أحداث ومجريات قصة نبي الله موسى (عليه السلام) ، ويمكن لنا أن نجمل ما (للماء) من أثر في حياته (عليه السلام) :

١- كان (للماء) أثراً في بقاء موسى (عليه السلام) على قيد الحياة ، بعد أن وضعت أمه في الصندوق حيث حمله (الماء) الى قرب قصر فرعون .

٢- كان (الماء) سبباً في أنقاذ حياة موسى (عليه السلام) من الأقباط إذ قتل شخصا قبطياً وهرب .

٣- كان (الماء) في زواجه من ابنة شعيب وإيوائه عند شعيب ورعايته له .

٤- كان (الماء) سبباً في هلاك فرعون وجنده وأنتصار الدعوة السماوية لسيدنا موسى

(عليه السلام)

ولمفردة (الماء) أيضا أثر في فاعل في تحريك المفردات الأخرى بما يتلاءم مع سياق النص القرآني، واتضح المعنى إن هذا التتابع للأحداث قد أسس لنا مبنياً حكاثياً قام على تتابع الأحداث؛ لأن (المتن الحكائي هو :

(١) تفسير الثعلبي ، الثعلبي : ٣ / ٥٣٤ - ٥٣٥ .

(٢) القصص / ٧ .

الحكاية كما يفترض إنها قد حدثت في الواقع، أي بمراعاة منطق التتابع والترتيب^(١)، فالمتمأمل لقصة يمكن أن يستشف إن تتابع الأحداث كان تتابعا يسير على تطور الأحداث في كل مجريات القصة .

ثالثا : قصة النبي صالح (عليه السلام) وأثر الماء فيها

يأتي الحوار القرآني دائما معضدا بالحجة ، وهو حوار يتجه بأسلوبه إلى برهنة العقيدة والأيمان بالله الواحد الأحد ، فهو حوار نتجه دائما بالدلالة نحو إحقاق الحق والنهي عن الزيف والنأي عن السفه، ولما كان الأسلوب هو الصلة بين القارئ وبين المؤلف للوقوف على الفكرة والشخصيات والحدث^(٢)، فإن الحوار هو الذي يقوم بالوظيفة الدرامية في بعث الحركة النفسية^(٣)، ويأتي الحدث بوصفه متطورا مع تطور القصة ومشاهدها ملتزما بحركة الشخصيات داخل إطار النص القصصي ومن قوة الحوار تتنامى لغة السرد ، وحين نقف عند شخصيات قصة نبي الله صالح (عليه السلام) نجد أيضا الشخصيات التي اشرنا لها في قصة نوح (عليه السلام) إذ إن الشخصيات النامية والتي تتخذ الجانب السلبي من الحدث في إطار القصة حين لا يكون الطرف الآخر منطقيا مع نفسه في سلوكه فإن قوم صالح (عليه السلام) لا يقلون شأنًا عن قوم نوح أو هود أو موسى وحتى قوم محمد (عليهم سلام من الله جميعا) الذين وقفوا ضد ما جاء به رسلهم من الدعوة إلى عبادة الله الواحد الأحد ، وهذه التفاتة أخرى في القصص القرآني، إذ نرى الشخصيات النامية في القصص القرآني التي تقف في الطرف الآخر للدعوة إذ يتخذوا الجانب السلبي، وينقادون إلى دوافعهم النفسية، في حين قد يكون هنالك شخصيات نامية أخرى ولكن تكون منطقية صادقة ثابتة على المبدأ حين يكون الشخص ومن خلال مجريات أحداث القصة متكافئا مع نفسه غير متناقض في مواقفه ثابتا على مبدئه رغم كل التحديات التي تواجهه^(٤)، ومن هنا كان النبي صالح (عليه السلام) نموذجا لتجسيد الشخصية الثابتة كما جاء في الآية المباركة: (وَإِلَىٰ نَوْمُود أَخَاهُ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ

لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا سَوْءٌ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ)^(٥)، نلاحظ في سياق الآية القرآنية ،

أن الحوار بدأ بالوعظ والإرشاد من النبي صالح (عليه السلام) إلى قومه فنبههم إلى صورة حسية تتجلى لهم عن طريق المشاهدة المرئية (قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ) وأيضا يحمل الخطاب في طياته صورة نفسية معنوية تتجسد في قوله (قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ) وكأن المتمأمل يجد بين أطواء النص زجر

(١) نظرية المنهج الشكلي / ٢٢٩ .

(٢) ظ : النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال / ٦٥٨ .

(٣) ظ : المصدر نفسه / ٦٦٠ .

(٤) ظ : النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال / ٥٦٦ .

(٥) الأعراف / ٧٣ .

ونهي وتحذير مبطن، ونلاحظ إن الأعجاز القصصي قد تمثل في إحتواء النص على الشخصيات التي تتطلبها القصة الواحدة ، ومن ثم الإشارة إلى أحداث القصة في نصوص قرآنية أخرى وبصور مختلفة ، فحين جاء الحوار بين صالح (عليه السلام) وقومه وكذلك جاء ذكر القصة ذاتها في سورة قرآنية أخرى كما في قوله تعالى :

(وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ)^(١)، وورد ذكر

القصة ذاتها في سورة أخرى كما جاء في قوله تعالى (قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ شَرِبٌ يَوْمَ تَعْلَمُونَ * وَكَأْتَسُوهَا

بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ)^(٢)، وكذلك تمت الإشارة إلى القصة ذاتها في سورة أخرى من سور القرآن

الكريم كما جاء في قوله تعالى : (فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةُ اللَّهِ وَسَعْيَاهَا)^(٣)، ويصور لنا القرآن الكريم من خلال آياته

البينات أن الأحداث بدأت بالتصاعد بعد النهي والإنذار المتكرر من نبي الله صالح (عليه السلام) إلى قومه الذين تمادوا في غيهم ، ولم يتعظوا من كلام نبيهم ويعودوا إلى رشدهم ، فنجد جوابهم إلى صالح (عليه السلام) كان سلبا وأرتفع الحدث إلى ذروته كما بينت لنا الآيات القرآنية الكريمة، فجاء في قوله تعالى: (فَعَقَرُوهَا

النَّاقَةَ وَعَمَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ أَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)^(٤)، فعقروا الناقة وعثوا عن أمر ربهم ثم

خرجوا عن طوعه مهتدين مستهينين بصالح (عليه السلام)، كما جاء القرآن الكريم معبراً عن قولهم بالآية الكريمة: (وَقَالُوا يَا صَالِحُ أَتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ)، فترى أن الأحداث قد بلغت الذروة بعقر الناقة ، ومن

ثم التحدي لصالح (عليه السلام)، والاستهزاء بما أنذر به من عذاب واقع من الله عليهم في حال مخالفتهم لما جاء به ، العذاب الأليم .

وقد جاء في التفاسير : ((إن الله أوحى إلى صالح: قل لهم: إن الله قد جعل لهذه الناقة من الماء شرب يوم ولكم شرب يوم ، فكانت الناقة إذا كان يوم شربها شربت ذلك اليوم الماء ... فيحلبونها، فلا يبقى صغير ولا كبير إلا شرب من لبنها يومهم ذلك، فإذا كان الليل وأصبحوا، غدوا إلى مائهم فشربوا منه ذلك اليوم ولم تشرب الناقة ذلك اليوم، فمكثوا بذلك ما شاء الله، ثم إنهم عتوا على الله ومشى بعضهم إلى بعض وقالوا:

(١) هود / ٦٤ .

(٢) الشعراء / ١٥٥ - ١٥٦ .

(٣) الشمس / ١٣ .

(٤) الأعراف / ٧٧ .

اعقروا هذه الناقة واستريحوا منها، لا نرضى أن يكون لها شرب يوم ولنا شرب يوم، فجعلوا جعلا لرجل أحمر، أشقر، أزرق، ولد زنا لا يعرف له أب ، يقال له قدرا، شقي من الأشقياء مشؤوم عليهم ، فقتلها وهرب فصيلها ، واقتسموا لحمها فيما بينهم ، فأوحى الله إلى صالح قل لهم : إني مرسل إليكم عذابي إلى ثلاثة أيام ، فإن هم تابوا ورجعوا قبلت توبتهم وصددت عنهم ، وإن هم لم يتوبوا بعثت عليهم عذابي في اليوم الثالث ، فقالوا : يا صالح اتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين، فقال: يا قوم إنكم تصبحون ووجوهكم مصفرة واليوم الثاني حمرة والثالث مسودة، فجاءهم ما قاله لهم فلم يتوبوا ولم يرجعوا، فلما كان نصف الليل أتاهم جبرائيل فصرخ بهم صرخة خرقت أسماعهم وفلقت قلوبهم وصدعت أكبادهم))^(١)

رابعا : قصة النبي يونس (عليه السلام) وأثر (الماء) فيها

قال تعالى : (وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ *)

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَبَجَيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ^(٢)

تحكي لنا الآيات القرآنية المباركة قصة نبي الله يونس (عليه السلام)، الذي لقبه الله سبحانه وتعالى (بذي النون) ، وكيف إن الله استجاب دعوته بعد أن إلتقمه الحوت ، فوردت مفردة (الماء) ضمنا في أطواء الآية القرآنية المباركة ؛ لأن مكان الحوت هو (ماء البحر) ، فدخلت مفردة (الماء) في قصة نبي الله يونس (عليه السلام) . وقد جاء في تفسير هذه الآية المباركة : (ذلك ما حكاه الله عن يونس عليه السلام وقد دعا به وهو في بطن الحوت الذي إلتقمه حيث كان عليه السلام - على ما يقصه القرآن - قد سأل ربه أن ينزل على قومه العذاب فأجابه إلى ذلك فأخبرهم به فلما أشرف عليهم العذاب بالنزول تابوا إلى ربهم فرفع عنهم العذاب، ولما شاهد يونس ذلك ترك قومه، وذهب لوجهه حتى ركب السفينة فاعترضها حوت فساهاهم في أن يدفعوا الحوت بإلقاء رجل منهم إليه ليلتقمه وينصرف عن الباقيين، فخرجت القرعة باسمه فألقى في البحر فالتقمه الحوت فكان يسبح الله في بطنه إلى أن أمره الله أن يلقيه إلى ساحل البحر، ولم يكن ذلك إلا تأديبا إلهيا يؤدب به أنبياءه على حسب ما يقتضيه مختلف أحوالهم، وقد قال تعالى: (فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبَثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ)^(٣) فكان حاله

في تركه العود إلى قومه وذهابه لوجهه يمثل حال عبد أنكر على ربه بعض عمله فغضب عليه فأبق منه وترك خدمته وما هو وظيفة عبوديته فلم يرتض الله له ذلك فأدبه فابتلاه وقبض عليه في سجن لا يقدر فيه أن يتوسع قدر أنملة في ظلمات بعضها فوق بعض فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، ولم يكن ذلك كله إلا لان يتمثل له على خلاف ما كان يمثل حاله أن الله سبحانه قادر على أن يقبض

(١) تفسير الاصفى ، الفيض الكاشاني : ١ / ٣٨٣ - ٣٨٤ .

(٢) الأنبياء / ٨٧ - ٨٨ .

(٣) الصافات / ١٤٣ - ١٤٤ .

عليه ويحبسه حيث شاء، وأن يصنع به ما شاء فلا مهرب من الله سبحانه إلا إليه، ولذلك لقنه الحال الذي تمثل له وهو في سجنه من بطن الحوت أن يقر لله بأنه هو المعبود الذي لا معبود غيره، ولا مهرب عن عبوديته فقال: (لا إله إلا أنت) ولم يناده تعالى بالربوبية، وهذا أوحى دعاء من أدعية الأنبياء عليهم السلام لم يصدر باسم الرب، ثم ذكر ما جرى عليه الحال من تركه قومه دون عدم إهلاكه تعالى إياهم بما أنزل عليهم من العذاب فأثبت الظلم لنفسه ونزه الله سبحانه عن كل ما فيه شائبة الظلم والنقص فقال: (فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ

وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ)^(١) ، ولم يذكر مسأله - وهى الرجوع إلى مقامه العبودي السابق - عدا لنفسه من دون

لياقة الاستعطاء واستحقاق العطاء استغراقا في الحياء والخجل، والدليل على مسأله قوله تعالى بعد الآية السابقة: (فاستجبنا له ونجيناه من الغم) ، والدليل على أن مسأله كانت هي الرجوع إلى سابق مقامه قوله تعالى: (فَتَبَدَّاهُ بِالْعَمَاءِ وَهُوَ سَيِّئٌ * وَأَبْتَنَاهُ عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنْ يَقْطِينٍ * وَأَمْرُسُكُنَّ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ)^(٢) ((٣) .

ومن خلال ما جاء بمجريات أحداث قصة نبي الله يونس (عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام) نجد أن هنالك أثراً أساسياً لمفردة (الماء) في أحداث القصة ، فمن خلال التفاسير نجد ورود المفردات التالية (السفينة التي ركبها بعد أن ذهب مغاضبا ، والسفينة يحملها (الماء) ثم ذكر المفسر هنالك أمواج تتلاقف السفينة خشي الركابون من الأمواج على حياتهم ، وهذه الأمواج هي (الماء) بعينه ، ثم قرروا رمي يونس (عليه السلام) في البحر بعد أن وقعت عليه القرعة لثلاث مرات ، والبحر هو (الماء) ، ثم جاء الحوت بوحى من الله فلتقم يونس (عليه السلام) والحوت من سكان البحر أي (الماء) مكانه ، بعد ذلك تحدثنا الآية الكريمة والمفسرون عن الظلمات التي أحاطت بنبي الله يونس (عليه السلام) وبضمنها ظلمة البحر (الماء) ، وأيضا كان الأعجاز في أن سمع نبي الله يونس (عليه السلام) تسبيح الحجر والحصى والمخلوقات التي في (ماء) البحر ، فكان (الماء) بما فيه أن يكون سببا في أن يتخذ نبي الله يونس (عليه السلام) العبرة من تسبيحهم ويسبح لله ويستغفره عما فعل .

فلو تأملنا بما جاء في الآيات المباركات السابقة نجد أن المشهد القصصي قد تحرك بأذن الله (عز وجل) فجاءت مفردة (الماء) إما صريحة أو منطمة في الإيحاء لتصل إلى ذروة البناء القصصي ، فاستعملت تارة رحمة ربانية ، وتارة تكون أداة لتنفيذ الوعد الإلهي بإزالة العذاب فيهلك بها الكافرين، فوجد البحث حركة كلمة (الماء) داخل إطار النص القصصي القرآني مصدر صيرورة الأحداث والفصل الذي تنطلق منه، وهي مرتبطة بأفعال الناس، فإن هم أحسنوا ، أحسن الله إليهم ، وإن أساءوا عاقبهم الله (سبحانه وتعالى) هلاكاً به ،

(١) الأنبياء / ٨٨ .

(٢) الصافات / ١٤٥ - ١٤٧ .

(٣) تفسير الميزان ، السيد الطباطبائي : ٦ / ٢٨٦ - ٢٨٧ .

أو حرماناً منه ، ونجد كذلك أن مجيء مفردة (الماء) في القصص القرآني قد رافقتها غاية إعجازية فنرى وكما نعرف إن (الماء) مصدر الحياة يصبح مصدر الشؤم والهلاك حين يسئ الناس ، وقد حدثنا القرآن الكريم أن عقوبة الأنبياء كانت هي الأخرى (للماء) أثراً فيها، كما مر بناء في قصة نبي الله يونس (عليه السلام) ، ولو أمعنا النظر في كل القصص التي أشرنا إليها، نجد أن آيات القرآن الكريم السابقة عبارة عن قصة وحكاية مشوقة مملوءة بالعبر، والموعظة معا لبني البشر، قال تعالى: (نَحْنُ نُقْصُ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ

وَكَانَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ)^(١)، مستعملا في كل ذلك المفردات الحية، والتي تعطي دقة في التعبير، فكانت كلمة

(الماء) هي المؤثر الأساس الذي بنيت عليه أحداث القصص القرآنية السابقة ، وقد دخل (الماء) في قصص قرآنية عديدة أخرى، منها : قصة نبي الله يوسف (عليه السلام) وكيف ألقى بالجب (البئر) وفي السياق القرآني الذي تحدث عن قصة نبي الله يوسف (عليه السلام) كما جاء في قوله تعالى

(فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَن يُجْعَلُوهُ فِي غِيَابَةِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)^(٢) نجد كيف إن (ماء)

البئر دخل عنصراً أساساً في الأحداث وكيف كان القحط الذي مر بالبلاد بسبب انعدام (ماء) المطر ، وبنهاية مطاف القصة القرآنية نلاحظ إن (الماء) كان سبباً في نهاية الأزمة التي عصفت بالبلاد وقت ذاك بعد هطول (ماء) المطر .

وكذلك دخل (الماء) عنصراً أساساً في معركة (بدر) ، كما جاء في الروايات والأحاديث المعتبرة وقد حدثنا القرآن الكريم عنها وعن النصر الذي أراده الله (سبحانه وتعالى) للمسلمين كما جاء في قوله تعالى : (وَلَقَدْ

نَصَرَ كُمْ اللَّهُ بَدْرًا وَأَتَمَّ أَذْلَهُ فَأَتَوْا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)^(٣)،

وجاء (الماء) في قصة نبي الله أيوب (عليه السلام) وكان سبباً مهماً في إنهاء معاناته من المرض كما جاء في قوله تعالى: (اِمْرُكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَامْرِدٍ وَشَرَابٌ)^(٤)، حيث جاء في تفسير هذه الآية الكريمة: ((خرج أيوب

(عليه السلام) سالماً من بودقة الامتحان الإلهي، ونزول الرحمة الإلهية عليه يبدأ من هنا، إذ صدر إليه الأمر (اِمْرُكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَامْرِدٍ وَشَرَابٌ) .

(١) يوسف / ٣.

(٢) يوسف / ١٥.

(٣) آل عمران / ١٢٣.

(٤) ص / ٤٢.

فالله الذي فجّر عين زمزم في صحراء يابسة وحارقة تحت أقدام الطفل الرضيع إسماعيل، هو الذي أصدر
أمراً بتفجّر عين باردة لأَيُّوب ليشرّب منها ويغتسل بمائها للشفاء من كافة الأمراض التي أصابته (الظاهرية
والباطنية))^(١).

(١) تفسير القرطبي ، القرطبي : ١٥ / ٢١١

الفصل الثالث

وظائف مفردة (الماء)

في القرآن الكريم

المبحث الأول

الوظيفة النفسية لفردة

(الماء)

في النص القرآني

قبل الخوض في الوظيفة النفسية لمفردة (الماء) في النص القرآني نبين أثر الكلمة من خلال انتظامها في السياق، لقد ألفت العرب إلى أهمية الكلمة في توجيه الدلالة الإيحائية والإسهام في تكوين المعنى منذ زمن بعيد ولعل أبين المقفّع(ت: ١٤٣ هـ) جعلها بمثابة الفص حين قال: وهو يتحدث عن رص الكلمات مشبه إياها بالقلائد والأكاليل (ووضع كل فص موضعه وجمع إلى كل لون شبهه) ^(١)، وألفت سيبويه (ت: ١٨٠ هـ) إلى ذلك أيضاً حين تحدث عن المسند والمسند إليه فضلاً عن الجاحظ (ت: ٢٥٥ هـ) حين قال : (فإنما الشعر صناعة وضرب من النسيج وجنس من التصوير) ^(٢)، وقد دلت رؤية كل من سيبويه وأبن المقفّع والجاحظ إلى ضرورة الاهتمام بتخير اللفظ وقد نبههم إلى ذلك القرآن الكريم إذ إن للقرآن الكريم (خصوصيات في استعمال الألفاظ فقد اختصت كثيراً من الألفاظ باستعمالات خاصة بها مما يدل على القصد الواضح بالتعبير) ^(٣)، ولذلك (بهر العرب بحسن مبادئ الآي والمقاطع وتماسك الكلمات واتساقها في التراكيب ، وقد تأملوه آية آية وعشراً عشراً وسورة سورة فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة يُنكر شأنها أو يرى غيرها أصلح هنالك أو أشبه أو أخرى ، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول وأعجز أهل الحكم والبلاغات) ^(٤)، فللكلمة وظيفة تؤديها في النص القرآني وهي مختارة بعناية آلهية ، ومراعية لأحوال المخاطبين ، وإن العرب فهموا دلالات الكلمات وسياقاتها الصحيحة وهم كانوا على معرفة تامة بآثرها في السياق ولذلك فهموا مقاصدها ووعوا معانيها ، فكان تحدي القرآن لهم قد أسهم في البحث في ماهية الكلمة القرآنية ومضامينها ^(٥)، ولا يخفى على أحد أنه (بين الألفاظ ومعانيها في الجمل ... والكلمات رموز للمعاني ووسيلة للمحاكاة وهي الأداة التي تصاغ منها الاستعارات ... ولم يخرج النقد العربي عن هذه الحدود في علاجه مسألة اللفظ والمعنى) ^(٦)، والكلمة علامة لغوية ؛ لأنها تحمل وظيفة خطابية تحرك مدلول الحقل الدلالي وتحمل معها الإقناع والاحتجاج والمنازعة والمناظرة وكل ما يؤثر في هذا الفلك ^(٧).

ولذا رأى جاكبسن في نظريته المشهورة في وظائف الكلام إن عناصر الكلام :

- الكلام : ويولد الوظيفة التعبيرية
- المرسل: ويولد الوظيفة الانفعالية
- المرسل إليه: ويولد الوظيفة الأفهامية
- السياق : وتولد الوظيفة المرجعية

(١) الأدب الصغير ، ابن المقفّع / ٣١٩.

(٢) التعبير القرآني ، فاضل السامرائي / ١٧.

(٣) ظ : شبكة الانترنت ، موقع من روائع التعبير القرآني المعجز ، يوسف عبد الرحمن ،

<http://www.wata.cc/forums/showthread.php>

(٤) ظ: مقال النظم القرآني جزأته وتناسقه ، د. مصطفى مسلم / ٢١٧.

(٥) ظ : الأداء البياني بين التفسير والنص القرآني ، د. صباح عنوز / ١٤ - ١٥.

(٦) النقد الأدبي الحديث ، محمد غنيمي هلال / ٢٥٢ - ٢٥٣

(٧) ظ : التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره الى القرن السادس ، حمادي صمود / ١٧٨.

• الصلة : وتولد الوظيفة الانتباهية

• السُنن : وتولد الوظيفة المعجمية أي ما وراء اللغة

• الرسالة : وتولد الوظيفة الإنشائية

فتبين لنا إن للكلمة أثراً مهماً فهي تسهم (في توجيه المعنى لكي ... تتحقق القدرة اللغوية التي بواسطتها يتم إقناع السامع) ^(١) فـ(الألفاظ أدلة على إثبات معانيها)^(٢)، فكيف إذا كان الأمر يتعلق بوظيفة المفردة القرآنية ولاسيما وإن القرآن الكريم كتاب منزله ومنزل من الواحد الأحد ، لذا تقوم على بناء مفرداته وإنظامها إلى سياقاتها أحكام فقهية وعقائدية وحياتية، فلا بد أن تكون هنالك علاقة وطيدة بين تخير اللفظ القرآني وبين المقصود الألهي إذ (يستعمل اللفظ بدلالة معينة لا يؤديها لفظ آخر في المعنى الذي تحشد له المعاجم وكتب التفسير عدداً قل أو كثر من الألفاظ)^(٣)، وتظهر قيمة اللفظ في الاستعمال إلى العمق اللغوي والنقد التقويمي في تخير الألفاظ المستعملة من دون سواها ...)^(٤)، ولكي نحقق رغبة البحث في تبيان وظيفة مفردة الكلمة والتي هي (الماء) في بحثنا ، نخرج على مباحث الفصل منطلقين من وظائف مفردة (الماء) التي أختارها الله (سبحانه وتعالى) في نصوص القرآن الكريم وكيف حققت وظائفها الفقهية والعقائدية والحياتية .

وقبل أن نلج في هذه المباحث فقد تابع البحث عدد الآيات التي تواجدت فيها مفردة (الماء) معرفة أو غير معرفة فوجد المجموع الكلي للآيات من دون الترادف لمفردة (الماء) هو (٤٨) آية ، ووجد آيات الترغيب التي احتوت على مفردة (الماء) مساوية لآيات الترهيب وفي ذلك تفكر لأولي الألباب .

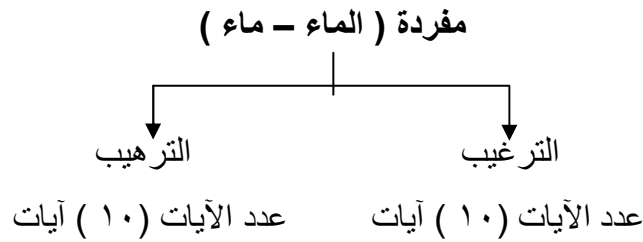
أدت مفردة (الماء) حالة استئناس واستلطاف أو حالة حزن وهلع من خلال ورودها في سياق الآيات القرآنية ، لذا جاء المبحث الأول: ليتناول الوظيفة النفسية لمفردة (الماء) وأثرها في التأثير على الحالة النفسية لدى المتلقي من خلال استماعه أو قراءته لآيات القرآن الكريم، ليتحسس الصور التي ترسمها لنا هذه المفردة من خلال مجيئها في سياق النصوص القرآنية، ومن خلال البحث أتضح إن عدد الآيات التي تتحدث فيها مفردة (الماء أو ماء) عن الترغيب والترهيب (٢٠) آية مبينه في أدناه :

(١) أثر البواعث في تكوين الدلالة البيانية ، د . صباح عنوز / ٢٢ .

(٢) الخصائص ، ابن جني : ٣ / ١٠٠ .

(٣) الأعجاز البياني في القرآن ، د . عائشة عبد الرحمن / ٢١٤ وما بعدها .

(٤) الصورة الفنية في المثل القرآني ، د . محمد حسين علي الصغير / ٢٤٤ .



الآيات التي وردت فيها مفردة (الماء أو ماء) والتي تتحدث عن الترهيب :

١ - قال تعالى: (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا

يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ)^(١) ، جاءت مفردة (الماء) في الآية الكريمة لتعبر عن وصف حال

الكافرين والمنافقين وقسوتهم فهي كالحجارة الصلدة الصماء، ولم تكتفِ الآية بهذا الحد من الوصف بل أعطت بعداً أكبر من خلال مجيء كلمة (أو أشد) قسوة ، وعند مراجعة ما جاء بتفسير هذه الآية المباركة في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (ع) : ((قوله عز وجل: " ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وان منها لما يشقق فيخرج منه الماء ... " قال الإمام عليه السلام: قال الله (عز وجل) : (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ) عست وجفت وبيست من الخير والرحمة قلوبكم معاشر اليهود (مَنْ بَعْدَ ذَلِكَ) من بعد ما بينت من الآيات الباهرات في زمان موسى عليه السلام، ومن الآيات المعجزات التي شاهدتموها من محمد. (فَهِیَ كَالْحِجَارَةِ) اليابسة لا ترشح برطوبة، ولا ينتفض منها ما ينتفع به، أي أنكم لا حق الله تعالى تؤدون، ولا من أموالكم ولا من مواشيكم تتصدقون، ولا بالمعروف تتكرمون وتجدون، ولا الضيف تقرأون، ولا مكروبا تغثون، ولا بشيء من الإنسانية تعاشرون وتعاملون.

(أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) إنما هي في قساوة الأحجار (أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً) أبهم على السامعين ولم يبين لهم، كما يقول القائل: أكلت خبزاً أو لحماً، وهو لا يريد به أني لا أدري ما أكلت، بل يريد به أن يبهم على السامع حتى لا يعلم ماذا أكل، وإن كان يعلم أنه قد أكل. وليس معناه: بل أشد قسوة؛ لأن هذا استدراك غلط، وهو (عز وجل) يرتفع عن أن يغلط في خبر ثم يستدرك على نفسه الغلط؛ لأنه العالم بما كان وبما يكون وبما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون، وإنما يستدرك الغلط على نفسه المخلوق المنقوص.

(١) البقرة / ٧٤.

ولا يريد به أيضا: فهي كالحجارة أو أشد أي وأشد قسوة، لان هذا تكذيب الأول بالثاني، لأنه قال: (فهي كالحجارة) في الشدة لا أشد منها ولا ألين، فإذا قال بعد ذلك: (أو أشد) فقد رجع عن قوله الأول: أنها ليست بأشد، وهذا مثل أن يقول: لا يجيئ من قلوبكم خير لا قليل ولا كثير.

فأبهم (عز وجل) في الأول حيث قال: (أو أشد). وبين في الثاني أن قلوبهم أشد قسوة من الحجارة لا بقوله: (أو أشد قسوة) ولكن بقوله تعالى: (وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَفْجَرُ مِنْهُ الْأنْهَارُ) أي فهي في القساوة بحيث لا يجيئ منها الخير يا يهود وفي الحجارة ما يتفجر منه الأنهار فيجيئ بالخير والغيث لبني آدم.

(وَإِنَّ مِنْهَا) من الحجارة (لَمَا يَشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ) وهو ما يقطر منه الماء فهو خير منها دون الأنهار التي يتفجر من بعضها، وقلوبهم لا يتفجر منها الخيرات ولا يشقق فيخرج منها قليل من الخيرات، وإن لم يكن كثيرا. ^(١)، وعند تأمل ما جاء بالتفسير نرى أن قليله يكفي في إيضاح قسوة قلوب الفئة التي تتحدث عنهم الآية الكريمة واستهافتهم ، فأى قلوب هذه؟ التي يصفها الله سبحانه بهذه القسوة أين إنسانيتهم؟ أين الرحمة التي أودعها الله سبحانه بقلوب مخلوقاته؟ حتى الحيوانات المفترسة فيما بينها رافة وألفة ، فما بال بني البشر؟ ، فنرى من خلال ما جاء بالتفسير كيف وظفت مفردة (الماء) في سياق النص القرآني وأعطت ملامح الصورة النفسية لوصف قلوب الكافرين.

٢- وقال تعالى: (لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطٍ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ

وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ) ^(٢)، تدل مفردة (الماء) في النص القرآني على وصف حال الكافر الذي يكون

خالي الوفاض ولا رجاء لرحمته ، فقد جاء بتفسير الثوري بيان لحال المشركين والتي تتحدث الآية عنهم: ((في قوله: يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ، قال القائم على البئر يناول بكفيه الماء ولا يناول الماء كذلك ألتهم لا يستجيبون لهم)) ^(٣).

وقد قال الشوكاني بخصوص ما جاء بهذه الآية الكريمة ((فإن عبادة الله هي الحق والصدق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء أي والآلهة الذين يدعونهم يعني الكفار من دون الله عز وجل لا يستجيبون لهم بشيء مما يطلبونه منهم كأننا ما كان إلا استجابة كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد فإنه لا يجيبه لأنه جماد لا يشعر بحاجته إليه ولا يدري أنه طلب منه أن يبلغ فاه ولهذا قال وما هو أي الماء ببالغه أي يبالغ فيه

(١) تفسير الإمام العسكري (ع) ، المنسوب إلى الإمام العسكري / ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(٢) الرعد / ١٤ .

(٣) تفسير الثوري ، سفيان الثوري / ١٥٢ .

قال الزجاج إلا كما يستجاب للذي يبسط كفيه إلى الماء يدعو الماء إلى فيه والماء لا يستجيب أعلم الله سبحانه أن دعاءهم الأصنام كدعاء العطشان إلى الماء يدعوهم إلى بلوغ فمه وما الماء ببالغه وقيل المعنى أنه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل في كفه شيء منه وقد ضربت العرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلاً بالقبض على الماء كما قال الشاعر فأصبحت مما كان بيني وبينها * من الود مثل القابض الماء باليد وقال الآخر * ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض * على الماء خائته فزوج الأصابع وقال الفراء إن المراد بالماء هنا ماء البئر لأنها معدن للماء وأنه شبهه بمن مد يده إلى البئر بغير رشاء ضرب الله سبحانه هذا مثلاً لمن يدعو غيره من الأصنام وما دعاء الكافرين إلا في ضلال^(١).

٣- قال تعالى : (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَهَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرٌ نَازِلٌ لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِبِ الْإِنْسُ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)^(٢)، جاءت مفردة (ماء) لتوصف لنا الحياة الدنيا وزخرفها وما تؤول إليه حال أهلها بعد عزهم وتفاخرهم وإطمأنانهم بما لديهم فيها فيأتي أمر الله (سبحانه وتعالى) فتكون هباء منثوراً ، فقد في تفسير الأمل: ((مرت الإشارة في الآيات السابقة إلى عدم استقرار ودوام الحياة الدنيا، ففي الآية الأولى من الآيات التي نبحثها تفصيل لهذه الحقيقة ضمن مثال لطيف وجميل لرفع حجب الغرور والغفلة من أمام نواظر الغافلين والطغاة (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ).

إن قطرات المطر هذه تسقط على الأراضي التي لها قابلية الحياة. و بهذه القطرات ستتمو مختلف النباتات التي يستفيد من بعضها الإنسان، ومن بعضها الآخر الحيوانات (فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ).

إن هذه النباتات علاوة على أنها تحتوي على الخواص الغذائية المهمة للكاننات الحية الأخرى، فإنها تغطي سطح الأرض وتضفي عليها طابعاً من الجمال (حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَهَّتْ) في هذه الأثناء إذ تنفتح الجناذب وتورق أعالي الأشجار وتعطي ذلك المنظر الزاهي وتبتسم الأزهار وتتلاأ الأعشاب تحت أشعة الشمس، وتتمايل الأغصان طرباً مع النسيم، وتظهر حبات الغذاء والأثمار أنفسها شيئاً فشيئاً وتجسم جانباً دائم الحركة من الحياة بكل معنى الكلمة، وتملأ القلوب بالأمل، والعيون بالسرور والفرح، بحيث (وَضَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ

(١) فتح القدير ، الشوكاني : ٣ / ٧٤.

(٢) يونس / ٢٤.

قَادِرُونَ عَلَيْهَا).. في هذه الحال وبصورة غير مرتقبة يصدر أمرنا بتدميرها، سواء ببرد قارص، أو ثلوج كثيرة، أو إعصار مدمر، ونجعلها كأن لم تكن شيئاً مذكوراً (أَنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنِبْ بِالْأَمْسِ).

(لم تغن) مأخوذة من مادة (غنا) بمعنى الإقامة في مكان معين، وعلى هذا فإن جملة (ولم تغن بالأمس) تعني أنها لم تكن بالأمس هنا، وهذا كناية عن فناء الشيء بالكلية بصورة كأنه لم يكن له وجود مطلقاً!. وللتأكيد تقول الآية في النهاية: (كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ). إن ما ذكر أعلاه تجسيم واضح وصريح عن الحياة الدنيوية السريعة الانقضاء والخداعة، والملئنة بالتزاويق والزخارف، فلا دوام لثرواتها ونعيمها، ولا هي مكان آمن وسلامة^(١).

٤- قال جل من قائل (مَنْ وَرِثَ جَهَنَّمَ يُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ)^(٢)،

تحدث هذه الآية المباركة عن (ماء) جهنم ونوعه الذي أخص الله (سبحانه وتعالى) الكافرين به بعد إقامتهم في جهنم جزاء على ما اقترفوه من ذنوب في حياتهم الدنيا، وقد جاء تفسيراً لهذه الآية في سنن الترمذي ((عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله: (ويسقى من ماء صديد . يتجرعه). قال يقرب إلى فيه فيكرهه ، فإذا أدنى منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه ، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره .

يقول الله تبارك وتعالى : (وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم) ، ويقول : (وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بُِسْ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا) ... وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " كالمهل قال :

كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه " وبهذا الإسناد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لسرادق النار أربعة جدر ، كثف كل جدار مسيرة أربعين سنة " وبهذا الإسناد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " لو أن دلوا من غساق يراق في الدنيا لأنتن أهل الدنيا " وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية : (اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ)^(٣) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا لأفسدت على أهل الدنيا معاشهم ، فكيف بمن يكون طعامه ")^(٤).

(١) تفسير الأمل ، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي / ٣٣٥ - ٣٣٦.

(٢) إبراهيم / ١٦.

(٣) آل عمران / ١٠٢.

(٤) سنن الترمذي ، الترمذي : ٤ / ١٠٧ - ١٠٨.

٥- (إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا)^(١)،

أعاذنا الله وإياكم من هذه الصورة المرعبة التي تكون ماثلة أمام المتأمل فيها من خلال ما توصفه الآية الكريمة لحال الكافرين الماكثين في جهنم، وقد تحدثت كتب التفسير عند الفريقين عن هذه الآية الكريمة وتناولتها بشيء من الإسهاب والتفصيل وقد عضد ما جاء بتفاسيرهم بالأحاديث الشريفة والروايات صحيحة السند عن الرسول الكريم (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) وعن أئمة المسلمين (عليهم السلام)، فقد جاء بكتاب التخويف من النار: ((الماء الذي كالمهل خرج الإمام أحمد والترمذي من حديث دراج عن أبي الهيثم عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في قوله كالمهل قال كعكر الزيت فإذا قرب إلى وجهه سقطت فردة وجهه فيه قال عطية سئل ابن عباس عن قوله كالمهل قال غليظ كدردي الزيت قال علي بن أبي طالب عن ابن عباس أسود كمهل الزيت وكذا قال سعيد بن جبير وغيره قال الضحاك أذاب ابن مسعود فضة من بيت المال ثم أرسل إلى أهل المسجد فقال من أحب أن ينظر إلى المهمل فليتنظر إلى هذا وقال مجاهد بماء كالمهل مثل القيح والدم أسود كعكر الزيت وخرج الطبراني من طريق تمام بن نجيع عن الحسن عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لو أن غربا جعل من حميم جهنم وجعل وسط الأرض لآذى ريحه وشدة حره ما بين المشرق والمغرب وفي موعظة الأوزاعي للمنصور قال بلغني أن جبريل قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لو أن ذنوباً من شراب جهنم صب في ماء الأرض جميعاً لقتل من ذاقه))^(٢).

٦- قال تعالى : (وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ

وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا)^(٣)، يبين الله سبحانه وتعالى للمتمسكين بهذه الحياة الفانية إن مصيرها إلى

زوال وستؤول كهشيم تقلبه الرياح بلا مستقر وثبات ، وما أكثر العبر وقليل من يعنبر، فقد ورد في نهج البلاغة من كلام أمير البلاغة والكلام الإمام علي (عليه السلام) ما فيه وصف لحال الدنيا وأهلها وذم لعيشها وزخرفها حيث جاء في تحذيره (عليه السلام) عن الدنيا وعدم الاغترار بإقبالها وعدم الأسف على إدبارها: ((أما بعد فإنني أحذركم الدنيا فإنها حلوة خضرة حفت بالشهوات وتحببت بالعاجلة وعمرت بالأمال وتزينت بالغرور فلا تدوم حبرتها ولا تؤمن فجعتها، غرارة ضرارة زائلة نافذة نابذة أكالة غوالة لا تعدو إذا هي تناهت إلى أمنية أهل الرغبة فيها والرضا بها أن تكون كما قال الله : " كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدراً " .

(١) الكهف / ٢٩.

(٢) التخويف من النار ، ابن رجب الحنبلي / ١١٤ - ١١٥.

(٣) الكهف / ٤٥.

مع أن أمراً لم يكن منها في حبرة إلا أعقبته بعدها عبرة ولم يلق من سرائها بطناً إلا محتته من ضرائها ولم تطله فيها ديمة رخاء إلا وهنت عليه مزنة بلاء وحري إذا هي أصبحت له منتصرة أن تمسي له متنكرة ، وإن جانب منها إغذوب وأحلولي أمر عليه منها جانب فأوبي وإن لبس امرؤ من غضارتها رغبا أرهقته تحببت بالعاجلة، وراقت بالقليل، وتحلت بالآمال، وتزينت بالغرور، لا تدوم حبرتها، ولا تؤمن فجعتها ، غررة ضرارة حائلة زائلة نافذة بائدة ، ... نوائبها تعباً ولم يمس امرؤ منها في جناح أمن إلا أصبح في أخوف مخوف ، غرارة غرور ما فيها ، فانية فان من عليها ، لا خير في شيء من زادها إلا التقوى، من أقل منها استكثر مما يؤمنه ، ومن استكثر منها لم يدم له وزال عما قليل عنه ، كم من واثق بها قد فجعته ، وذو طمأنينة إليها قد صرعه ، وذو خدع قد خدعته وذو أبهة فيها قد صيرته حقيراً، وذو نخوة فيها قد ردتته جائعاً فقيراً وذو تاج قد كبته للبيدين وللغم، سلطانها دول وعيشها رنق، وعذبها أجاج وحلوها صبر وغداؤها سمام وأسبابها رمام وقطافها سلع، وحيها بعرض موت، وصحيحها بعرض سقم، ومنيعها بعرض إهتضام ، وملكها مسلوب، وعزيزها مغلوب، وأمنها منكوب، وجارها محروب . ثم من وراء ذلك سكرات الموت وزفرائه، وهول المطلع ، والوقوف بين يدي الحكم العدل (لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى) ^(١).

أو لستم في مساكن من كان قبلكم ممن كان أطول منكم أعماراً ، وأعز آثاراً وأعد ، لا ينال امرؤ من غضارتها رغبا إلا أرهقته من نوائبها تعباً ، ولا يمسي منها في جناح أمن إلا أصبح على قوادم خوف ، ... وذو أبهة قد جعلته حقيراً ، وذو نخوة قد ردتته ذليلاً . . .)) ^(٢)

٧- وقال تعالى: (وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ) ^(٣)

الآية المباركة توضح قدرة الله (جل وعلا) على فناء الأشياء؛ لأنه هو مصدرها ومنشرها ومنزلها فهي إنذار إلى اللاهيين والفرحين بأن الدنيا دار متاع وفناء والله قادر على زوالها، وقد جاء في تفسير الأمل تفسيراً للآية المباركة: ((يرسل الله المطر بقدرة وبخبرة منه، فإن زاده صار سيلاً، وإن نقصه كثيراً ساد الجفاف في الأرض... وهذه علامة على قدرة الله غير المتناهية)) ^(٤).

(١) النجم / ٣١.

(٢) المعيار والموازنة ، أبو جعفر الإسكافي / ٢٦٥.

(٣) المؤمنون / ١٨.

(٤) الأمل ، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : ١٠ / ٣٨٩.

٨- قال تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوْقَهُ

حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ) ^(١)، هذا إنذار وبيان لحال الكافرين والمرائين بأن أعمالهم لا قيمة لها فهي كسراب

يحسبون إنها نافعة لهم والحقيقة هي وبال عليهم، وقد قال السيد ابن طاووس في تفسير ذلك: ((قوله جل جلاله

: "وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا " فهذا بيان قد اخرج ما لا يقع

عليه الحاسة إلى ما تقع وقد اجتمعا في بطلان المتوهم مع شدة الحاجة وعظم الفاقة ولو قيل يحسبه الرائي له ماء ثم يظهر انه على خلاف قدر لكان بليغا وابلغ منه لفظ القرآن لأن الظمان اشد حرصا عليه وتعلق قلبا به ثم بعد هذه الحس حمل الحساب الذي يصيره إلى عذاب الأبد في النار نعوذ بالله من هذه يقول على بن موسى بن طاووس ولعل في التشبيه غير ما ذكره الروماني لأن تعالى لو قال كسراب بروضة ولم يذكر بقيعة ما كان التشبيه على المبالغة التي ذكرها لأنه كانت أجساد الكفار الذين يعملون أعمالا كالسراب كالسعة في الجواب الخالية من النبات واستعمال فوائد الألباب صارت كالسعة حقيقة ولعل معنى التشبيه أن يحسبه الظمان ماء إن الكفار لما ادعوا في الحياة أعمالهم ينفعهم وحكى الله تعالى عنهم في القيمة وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون يدل على أنهم يعولون على أعمالهم التي صاروا يعتقدونها تخلصهم من الأهوال والهوان كما حسب الظمان السراب يزيل عنده من الظما فحصل في الخيبة وذهاب الحياة والتف بالعيان وكذلك خاف الكفار في أعمالهم وحصلوا في تلك النفوس عذاب الطغيان)) ^(٢).

٩- قال تعالى : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ) ^(٣)، يخاطب الله (سبحانه وتعالى)

الطاغون ، المتكبرون ، المتجبرون مالكم لا تتعضون أرايتم إن أصبح ماءكم غورا فمن القادر على أن يأتيكم به غير الله أفلا تعقلون ؟

وجاء في تفسير قوله تعالى: ((" قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ " الغور ذهاب الماء

ونضوبه في الأرض والمراد به الغائر، والمعين الظاهر الجاري من الماء، والمعنى: أخبروني إن صار ماؤكم غائرا ناضبا في الأرض فمن يأتيكم بماء ظاهر جار)) ^(٤).

(١) النور / ٣٩.

(٢) سعد السعود ، السيد ابن طاووس الحسني / ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٣) الملك / ٣٠.

(٤) تفسير الميزان ، السيد الطباطبائي : ١٩ / ٣٦٦ .

١٠ - قال تعالى : (وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجًا) ^(١)، يبين الله (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة بأنه المنزل للماء

من المعصرات فيوصف الحالة كحال المرأة التي تعتصر من الألم و هذا الماء سيكون ماءً كثيراً لربما يأتي كالسيل الهادر الذي لا يبق ولا يذر ، وجاء في تفسير ذلك ((الثجج: شدة انصباب المطر والدم قال تعالى: (ماء ثجاجا) أي متدفقا ويقال: (ثجاجا) أي سيلا)) ^(٢).

أما الآيات التي تتحدث عن الترغيب فهي مساوية لآيات الترهيب وفي ذلك حكمة ربانية لا بد من وقفة وتفكر فيها، وفي أدناه بيان لآيات الترغيب :

١ - قال تعالى : (قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ

الْمُغْرَقِينَ) ^(٣)، جاءت هذه الآية الكريمة مبينة لحال ابن نبي الله نوح (عليه السلام) وهو يمني نفسه ويرغبها

بأنه من الناجين وقد خاب ظنه ، وجاء القول الآتي تفسيرا للآية الكريمة في ميزان الحكمة : ((كان نوح (عليه السلام) عندما ركب السفينة لم يركبها واحد من أبنائه، وكان لا يصدق أباه في أن من تخلف عنها فهو غريق لا محالة، فرآه أبوه وهو في معزل فناداه: يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين، فرد على أبيه قائلا: " قَالَ سَآوِي

إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ"، قال نوح (عليه السلام): " قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ " يريد أهل

السفينة - فلم يلتفت الابن إلى قوله وحال بينهما الموج فكان من المغرقين. ولم يكن نوح (عليه السلام) يعلم منه إبطان الكفر كما كان يعلم ذلك من امرأته، ولو كان علم ذلك لم يحزنه أمره وهو القائل في دعائه: (رَبِّ لَا تَذَرُ

عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا) ^(٤) الدعاء، وهو القائل: * (فَافْتَحْ

بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحاً وَبَيْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) ^(٥) وقد سمع قوله تعالى فيما أوحى إليه: (وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ

مُغْرَقُونَ) ^(٦).

(١) النبا / ١٤.

(٢) تفسير غريب القرآن ، الشيخ فخر الدين الطريحي / ١٥٣.

(٣) هود / ٤٣.

(٤) نوح / ٢٧.

(٥) الشعراء / ١١٨.

(٦) هود / ٣٧.

فوجد نوح (عليه السلام) وحزن فنادى ربه من وجده قائلاً: رب إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وعدتني بإنجاء أهلي وأنت أحكم الحاكمين لا تجور في حكمك ولا تجهل في قضائك، فما الذي جرى على ابني؟ فأخذته العناية الإلهية وحالت بينه وبين أن يصرح بالسؤال في نجاة ابنه - وهو سؤال لما ليس له به علم - وأوحى الله سبحانه إليه: يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح، فإياك أن تواجهني فيه بسؤال النجاة فيكون سؤالاً فيما ليس لك به علم، إني أعظك أن تكون من الجاهلين. فانكشف الأمر لنوح (عليه السلام) والتجأ إلى ربه تعالى قائلاً: رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم، أسألك أن تشملني بعنايتك وتستتر علي بمغفرتك، وتعطف علي برحمتك، ولولا ذلك لكنت من الخاسرين.

٢- قال تعالى: (إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ) ^(١)، يخاطب الله (جل وعلا) الناس ألم تعوا وتعلموا بأننا

الذين مننا عليكم عندما طغى ماء الطوفان حملناكم وأنتم في أصلاب آبائكم على ظهر السفينة التي صنعها نوح (عليه السلام) وأنجيناكم وأهلكم من الغرق المحتوم، قد جاء في تفسير هذه الآية الكريمة ((قال تعالى: "وَقَوْمَ

نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ" ^(٢) ولم يبعث إليهم إلا نوح فقط وقد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله عز

وجل ويحذرهم نقمه " فما آمن معه إلا قليل " ولهذا أغرقهم الله جميعاً ولم يبق منهم أحداً ولم يترك من بني آدم على وجه الأرض سوى أصحاب السفينة فقط " وجعلناهم للناس آية " أي عبرة يعتبرون بها كما قال تعالى: " إنا لما طغى الماء حملناكم في الجارية لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية " أي وأبقينا لكم من السفن ما تركبون في لجج البحار لتذكروا نعمة الله عليكم من أنجاكم من الغرق وجعلكم من ذرية من آمن به وصدق أمره)) ^(٣).

٣- قال جل من قائل: (إِنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا) ^(٤)، في هذه الآية المباركة بيان للناس بأن الله (سبحانه وتعالى) ينزل

النعم والأرزاق والخيرات بلا عدد وحد على الخلائق كما يصب الماء الكثير، وجاء في تفسير الميزان قول السيد الطباطبائي في هذه الآية المباركة: ((الإنسان المذكور في هذه الآية المأمور بالنظر فإنه عام شامل لكل إنسان، ولذلك أظهر ولم يضم. قوله تعالى: " أنا صببنا الماء صبا - إلى قوله - ولأنعامكم " القراءة الدائرة " أنا بفتح الهمزة وهو بيان تفصيلي لتدبيره تعالى طعام الإنسان نعم هو مرحلة ابتدائية من التفصيل وأما القول المستوفي لبيان خصوصيات النظام الذي هيأ له هذه الأمور والنظام الواسع الجاري في كل من هذه الأمور

(١) الحاقة / ١١.

(٢) الفرقان / ٣٧.

(٣) تفسير ابن كثير، ابن كثير: ٣ / ٣٣١ - ٣٣٢.

(٤) عبس / ٢٥.

والروابط الكونية التي بين كل واحد منها وبين الإنسان فمما لا يسعه نطاق البيان عادة... وقوله: " أنا صببنا الماء صبا " الصب إراقة الماء من العلو، والمراد بصب الماء إنزال الأمطار على الأرض لإنبات النبات، ولا يبعد أن يشمل إجراء العيون والأنهار فإن ما في بطن الأرض من ذخائر الماء إنما يتكون من الأمطار))^(١).

٤- قال (جل شأنه): (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)^(٢)، يبين الله (عز وجل) للناس

في هذه الآية الكريمة إنه هو الذي يرزقهم وأنعمهم وهو الذي ينزل عليهم الماء لينبت به الأرض وفي ذلك رزقاً لهم ولأنعمهم ومنه شراب لهم ولدوابهم، وقد ذكر الطبري في تفسيره : ((هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ

مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ) يقول تعالى ذكره: والذي أنعم عليكم هذه النعم وخلق لكم الأنعام والخيول وسائر

البهائم لمنافعكم ومصالحكم، هو الرب الذي أنزل من السماء ماء، يعني: مطرا لكم من ذلك الماء شراب تشربونه ومنه شراب أشجاركم وحياة غروسم ونباتها))^(٣).

٥- قال (عز وجل): (وَأَمْسَكْنَا بِالنَّاصِيَةِ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْزَلْنَاهُ فَاخْرُجْكَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ)^(٤)، الله (سبحانه) هو

منزل المطر والخير والنفع، وهو المنزل من السحاب ماءً لشراب الناس والأرض والمواشي، وما هم بقادرين على خزنه وادخاره، ولكن يخزنه الله رحمة منه، وإحساناً من لدنه ورأفة بالعالمين ، وقد جاء في تفسير مجمع البيان في تفسير هذه الآية: ((وليس من شيء ينزل من السماء، وينبت من الأرض.

(إلا عندنا خزائنه) معناه إلا ونحن مالكوه، والقادرون عليه، وخزائن الله سبحانه: مقدراته، لأنه تعالى يقدر أن يوجد ما شاء من جميع الأجناس، ويقدر من كل جنس على ما لا نهاية له.

وقيل: المراد به الماء الذي منه النبات، وهو مخزون عنده إلى أن ينزله، وقال بعض علماء أهل العصر: إن من الأسرار التي كشف عنها الوحي الإلهي، ما في هذه الآية، حيث إنها دلت على أن كل ما ينبت في الأرض له وزن خاص، وقد ثبت أخيراً أن كل نوع من أنواع النبات مركباً من أجزاء خاصة على وزن مخصوص، بحيث لو زيد في بعض أجزائه، أو نقص، لكان ذلك مركباً آخر، وإن نسبة بعض الأجزاء إلى بعض من الدقة، بحيث لا يمكن ضبطها تحقيقاً بأدق الموازين المعروفة للبشر. ونبات الأرض وثمارها إنما تثبت بماء السماء... والمطر خزائن كل شيء (وما ننزله) أي: وما ننزل المطر (إلا بقدر معلوم) تقتضيه الحكمة، وقيل:

(١) تفسير الميزان ، السيد الطباطبائي : ٢٠ / ٢١٠ .

(٢) النحل / ١٠ .

(٣) جامع البيان ، ابن جرير الطبري : ١٤ / ١١٦ .

(٤) الحجر / ٢٢ .

انه سبحانه استعار الخزائن للقدرة على إيجاد الأشياء، وعبر عن الإيجاد بالإنزال، لأن الإنزال في معنى الإعطاء والرزق، والمعنى: ان الخير كله من عند الله، لا يوجد ولا يعطي، إلا بحسب المصلحة والحاجة، ثم بين سبحانه كيفية الإنزال، فقال: (وأرسلنا الرياح لواقح) أي: أجرينا الرياح لواقح، أي: ملفحة للسحاب، محملة بالمطر (فأنزلنا من السماء ماء) أي: مطرا (فأسقيناكموه) أي: فأسقيناكم ذلك الماء، ومكانكم منه (وما أنتم له بخازنين) أي: وما أنتم أيها الناس له بحافظين، ولا محرزين، بل الله يحفظه، ثم يرسله من السماء، ثم يحفظه في الأرض، ثم يخرج من العيون بقدر الحاجة، ولا يقدر أحد على إحراز ما يحتاج إليه من الماء في موضع))^(١).

٦- قال تعالى: (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ)^(٢)، جاءت الآية الكريمة لتبين للناس صفة ماء

الجنة التي وعدها الله تعالى للمتقين فيها أنهارٌ عظيمة دائمة الجريان وماؤها غير متغير طعمه كماء الدنيا بل يكون لذة للشاربين وسروراً للناضرين، و((أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ) أي الماء الذي لا يتغير طعمه ورائحته ولونه

لطول البقاء))^(٣)، أي ترغيب هذا من لدن القادر المنان، فلا يرهب العباد بوعده ووعيده، ولكن يرغبهم بما لديه من نعم وقرة أعين لهم في الآخرة، ينالونها بالعبادة والطاعة، وبالامتثال لأوامره والصد عن معاصيه، وقد جاء في تفسير الطبري وصف (للماء) غير الآسن الذي وعد به المتقون من عباد الرحمن ((يقول تعالى ذكره: صفة الجنة التي وعدها المتقون، وهم الذين أتقوا في الدنيا عقابه بأداء فرائضه، واجتناب معاصيه فيها أنهار من ماء غير آسن يقول تعالى ذكره في هذه الجنة التي: ذكرها أنهار من ماء غير متغير الريح وأنه لا تمسه يد، وأنه يجئ الماء هكذا حتى يدخل في فيه))^(٤).

٧- (وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ)^(٥)، يبين الله (جل وعلا) في هذه الآية الكريمة للخلق

إنه هو الذي ينزل الماء من السماء بقدرته ليكون بركة في الأرض ولينبت به الحقائق الغناء والبساتين المثمرة وكذلك حب الحصاد الذي منه يأكلون.

(١) تفسير مجمع البيان، الشيخ أبي علي بن الحسن الطبرسي: ٦ / ١١١ - ١١٢.

(٢) محمد / ١٥.

(٣) الأمثال في القرآن الكريم، الشيخ جعفر السبحاني / ٢٥٠.

(٤) جامع البيان، ابن جرير الطبري: ٢٦ / ٦٤ - ٦٥.

(٥) ق / ٩.

وقد ورد في تفسير الآية الكريمة: ((" وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا " ، قال: ليس من ماء في الأرض إلا وقد خالطه ماء السماء ، وعنه... عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: اشربوا ماء السماء فإنه يطهر البدن ويدفع الأسقام قال الله تبارك وتعالى: (وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ) ^(١).

ورواه البرقي في (المحاسن) عن القاسم بن يحيى مثله ^(٢).

وعنه، عن عمران بن موسى، عن علي بن أسباط، عن أبيه، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: البرد لا يؤكل لأن الله عز وجل يقول: "يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ" ^(٣)، وعن محمد بن يعقوب، عن علي ابن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير عن الحسين بن عثمان وعن محمد بن أبي حمزة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ما أخال أحدا يحنك بماء الفرات إلا أحبنا أهل البيت ^(٤).

وقال: (عليه السلام) لا مرئ: (ما سقى أهل الكوفة ماء الفرات إلا لأمر ما).

وقال: يصب فيه ميزابان من الجنة ^(٥)، وعن محمد بن يحيى، عن أحمد بن محمد، عن ابن فضال، عن ابن بكير، عن بعض أصحابنا، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (يدفق في الفرات كل يوم دفقات من الجنة) ^(٦)، وعنه، عن علي بن الحسين، عن ابن أورمة، عن الحسين ابن سعيد رفعه قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: (نهركم هذا يعني الفرات يصب فيه ميزابان من ميازيب الجنة. قال: وقال أبو عبد الله عليه السلام لو كان بيننا وبينه أميال لأتيناها فنستشفي به) ^(٧) وعنه، عن علي بن الحسين يرفعه قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: (كم بينكم وبين الفرات ؟ فأخبرته فقال: لو كان عندنا لأحببت أن آتية طرفي النهار.) ^(٨) ^(٩).

(١) الأنفال / ١١.

(٢) المحاسن ، للبرقي : ٢٥ / ٥٧٤ و الكافي ، للشيخ الكليني : ٦ / ٣٨٨.

(٣) يونس / ١٠٧.

(٤) الكافي ، الشيخ الكليني : ٦ / ٣٨٨.

(٥) الكافي ، الشيخ الكليني : ٦ / ٣٨٨ / ٢.

(٦) المصدر نفسه : ٦ / ٣٨٨ / ٣.

(٧) المحاسن ، للبرقي : ٢٦ / ٥٧٥.

(٨) الكافي ، للكليني : ٦ / ٣٨٨ / ٤.

(٩) وسائل الشيعة (آل البيت)، الحر العاملي : ٢٥ / ٢٦٧ - ٢٦٨.

٨- (وَجَعَلْنَا فِيهَا مِرَاسِي شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا)^(١)، جاءت هذه الآية الكريمة لتوضح جزء من نعم الله

سبحانه على الخلق حيث جعل الماء الفرات العذب السائغ هو شرابهم وهو سقياهم في الحياة الدنيا وهذا من أنعم الله (جل وعلا) على بني البشر وإن شكروا الله على هذه الأنعم فلديه مزيد وقرة أعين لهم في الدار الآخرة .

وجاء في بحار الأنوار : ("وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا " قال ابن عباس: أي وجعلنا لكم سقيا من الماء العذب).

وجاء في تفسير القرطبي : ((قال: (وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا) أي وجعلنا لكم سقيا. والفرات: الماء العذب يشرب

ويسقى منه الزرع. أي خلقنا الجبال وأنزلنا الماء الفرات.

وهذه الأمور أعجب من البعث. وفي بعض الحديث قال أبو هريرة: في الأرض من الجنة الفرات والدجلة ونهر الأردن.

وفي صحيح مسلم: سيحان وجيحان والنيل والفرات كل من أنهار الجنة))^(٢).

٩- قال (جل شأنه): (وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ)^(٣)، في هذه الآية المباركة يوصف لنا الله (سبحانه) حال أصحاب اليمين

الفائزين بجنات الخلد لما قدمت أيديهم وبما قدموا من عمل يرضي الله سبحانه فسيخلدون بجنات الخلد التي نعيمها دائم وماءها مسكوب وظلها ممدود وحياتها سرمدية.

جاء في تفسير الأمثل تفسيراً للآية المباركة وتصوير رائع يعكس لنا الصورة الفنية المنعشة للنفس والمؤثرة فيها والمنية لها والمرغبة لهواها فيما تكون عليه حياة الجنة ، وبذلك ترغيب من الله (سبحانه وتعالى) لخليفته في الأرض وحث على عبادته والتزام أوامره : ((الجنة أهلها في ظلال لطيفة واسعة تلطف الروح.

وينتقل الحديث إلى مياه الجنة إذ يقول سبحانه: (وماء مسكوب). "مسكوب" من مادة (سكب) على وزن "حرب" وتعني في الأصل الصب، ولأن صب الماء يكون من الأعلى إلى الأسفل بصورة تيار أو شلال فإنه بذلك يصور لنا مشهداً رائعاً حيث إن خيرير المياه ينعش الروح.

وببهر العيون، وهذه هي إحدى الهبات التي منحها الله سبحانه لأهل الجنة، ومن الطبيعي أن هذه الجنة المليئة بالأشجار العظيمة، والمياه الجارية، لا بد أن تكون فيها فواكه كثيرة، وهذا ما ذكره))^(٤).

(١) المرسلات / ٢٧ .

(٢) تفسير القرطبي ، القرطبي : ١٩ / ١٦٣ .

(٣) الواقعة / ٣١ .

(٤) التفسير الكبير ، الفخر الرازي : ٢٩ / ١٦٢ و تفسير الأمثل ، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : ١٧ / ٢٦٢ .

وجاء في تحفة الأحوذى في معنى تفسير الآية الكريمة : ((قوله وماء مسكوب أي جار دائما وقيل يسكب لهم أين شاء وكيف شاء بلا تعب))^(١).

١٠- قال (عز من قائل): (وَالْوَاسِقَاتُ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا)^(٢)، يوضح الله سبحانه للكفار من الإنس

والجن في هذه الآية المباركة إنهم لو ساروا على هدى الإسلام، ولم يحددوا عنه لأنزل الله عليهم ماءً كثيراً، ولوسع عليهم أرزاقهم في الدنيا ،

وقد جاء في تفسير مجمع البيان تفسيراً للآية المباركة : (("وَالْوَاسِقَاتُ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقِيَنَّهُمْ مَاءً غَدَقًا " هذا ابتداء

حكم من الله سبحانه، أي لو استقام الإنس والجن على طريقة الإيمان، عن ابن عباس، والسدي. وقيل: أراد مشركي مكة أي لو آمنوا واستقاموا على الهدى، لأسقيناهم ماء كثيراً من السماء، وذلك بعد ما رفع ماء المطر عنهم سبع سنين، عن مقاتل. وقيل: لو آمنوا واستقاموا لوسعنا عليهم في الدنيا، وضرب الماء الغدق مثلاً، لأن الخير كله والرزق يكون في المطر، وهذا كقوله: (ولو أنهم أقاموا التوراة)، إلى قوله: (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم)، وقوله: (فَتَحْنًا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ)^(٣) وقيل معناه لو استقاموا على طريقة الكفر،

فكانوا كفاراً كلهم لأعطيناهم ما لا كثيراً، ولوسعنا عليهم تغليظاً للمحنة في التكليف، ولذلك قال: (لنفتنهم فيه) أي لنختبرهم بذلك، عن الفراء، وهو قول الربيع والكلبي والثمالي وأبي مسلم وابن مجلز ودليله: (فَلَمَّا نَسُوا مَا

ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَاهُمْ عَلَيْهِمْ)^(٤).

وقيل: لنفتنهم معناه لنعاملهم معاملة المختبر في شدة التعبد بتكليف الانصراف عما تدعو شهواتهم إليه. وفي ذلك المحنة الشديدة وهي الفتنة.

والمثوبة على قدر المشقة في الصبر عما تدعو إليه الشهوات.

وروي عن عمر بن الخطاب أنه قال في هذه الآية: أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة. وقيل: معناه لنختبرهم كيف يكون شكرهم للنعم، عن سعيد بن المسيب وقتادة ومقاتل والحسن. والأولى أن تكون الاستقامة على الطريقة محمولة على الاستقامة في الدين والإيمان، لأنها لا تطلق إلا على ذلك، ولأنها في موضع التلطف والاستدعاء إلى الإيمان، والحث على الطاعة. وفي تفسير أهل البيت عليهم السلام عن أبي

(١) تحفة الأحوذى ، المباركفوري : ٩ / ١٢٩ .

(٢) الجن / ١٦ .

(٣) الأعراف / ٩٦ .

(٤) الأنعام / ٤٤ .

بصير قال قلت لأبي جعفر عليه السلام قول الله (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) قال: هو والله ما أنتم عليه، ولو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا. وعن بريد العجلي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: معناه لأفدناهم علما كثيرا يتعلمونه من الأئمة^(١).

وقد جاء في تفسير القرطبي (("ماء غدقا " أي واسعا كثيرا، وكانوا قد حبس عنهم المطر سبع سنين، يقال: غدقت العين تغدق، فهي غدقة، إذا كثر ماؤها. وقيل: المراد الخلق كلهم أي " لو استقاموا على الطريقة " طريقة الحق والإيمان والهدى وكانوا مؤمنين مطيعين " لاسقيناهم ماء غدقا " أي كثيرا (لنفقتهم فيه) أي لنختبرهم كيف شكرهم فيه على تلك النعم. وقال عمر في هذه الآية: أينما كان الماء كان المال، وأينما كان المال كانت الفتنة. فمعنى " لاسقيناهم " لوسعنا عليهم في الدنيا، وضرب الماء الغدق الكثير لذلك مثلا؛ لأن الخير والرزق كله بالمطر يكون، فأقيم مقامه، كقوله تعالى: (ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء

والأرض)^(٢) وقوله تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ)^(٣)

أي بالمطر))^(٤).

(١) تفسير مجمع البيان ، الشيخ الطبرسي : ١٠ / ١٥٢ .

(٢) الأعراف / ٩٦ .

(٣) المائدة / ٦٦ .

(٤) تفسير القرطبي ، القرطبي : ١٩ / ١٩ .

المبحث الثاني
الوظيفة الحياتية لفردة
(الماء)
في النص القرآني

((إن أهم ما تتميز به عبارة القرآن هي أنها تشع بالصورة الحية ، وظلال المشاهد المتحركة ، وكان لابد لهذه الصورة من أن تتناسق، إذ تتمثل بالتناسق وحدة الانسجام من حيث الدقة والقوة ، ومن حيث الإثارة والتأثير ، ومن حيث الهدف الذي من أجله صيغت الصورة ، ونبتعت من محيط البيئة العربية ، لتظل الذهن البشري بظلال الصورة الحسنة ليدرك المغزى، ويزداد عمقاً في فهم كنه القرآن في تعابيره الفنية وأسلوبه وخصائصه وفلسفته))^(١) ، وقد جاء في حديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) قال فيه : ((إن الله تعالى قد جعل (الماء) مفتاح قرابة ومناجاته دليلاً إلى بساط خدمته ، وكما أن رحمة الله تطهر ذنوب العباد كذلك النجاسات الظاهرة يطهرها (الماء) لا غير)^(٢) ، فكما أحيي به كل شيء من نعيم الدنيا كذلك برحمته وفضله جعل حياة القلب والطاعات والتفكير صفاء (الماء) ورقته وطهره وبركته ولطيف امتزاجه بكل شيء وأستعمله في تطهير الأعضاء التي أمرك الله بتطهيرها وتعبك بأدائها في فرائضه وسننه فإن تحت واحدة منها فوائد كثيرة فإذا أستعملها بالرحمة انفجرت لك عيون فوائده عن قريب ثم عاشر خلق كامتزاج (الماء) بالأشياء يؤدي كل شيء حقه ولا يتغير معناه ؛ (فلا حياة لشيء خلق من الماء إلا بـ(الماء))^(٣)، ونرى أن الآيات القرآنية من خلال ما جاء بها وبكتب التفسير قد جعلت (الماء) أساس الحياة ، ولم يتوقف الأمر على آراء المفسرين بل جاء العلم الحديث ليخضع لما جاء به القرآن الكريم من حقائق قبل ألف وخمسمائة عام تقريباً، ويتوصل العلم إلى تلك الحقائق بعد دراسات وأبحاث وتجارب كثيرة ومتطورة ، فقد ورد في كتاب القرآن وإعجازه العلمي: ((وَجَعَلْنَا

مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) تفسير علماء الدين: فسرها المفسرون السابقون بأن الله خلق جميع الأحياء من

ماء الذكر والأنثى، وأن كل شيء من الكائنات الحية يحتاج إلى الماء في حياته، أفلا يؤمن أهل مكة بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالقرآن ؟ النظرة العلمية: يقرر العلم الحديث في تفسير هذه الآية الكريمة أن الماء يدخل في بناء أي جسم حي إذ هو في الحقيقة قوام حياته، فالماء في نظر العلم هو المكون الأصلي في تركيب مادة الخلية، والخلية هي وحدة البناء في كل شيء حي نباتاً كان أو حيواناً، كما أن علم الكيمياء في أبحاثه الحديثة قد أثبت أن الماء عنصر لازم وفعال في كل ما يحدث من التحولات والتفاعلات التي تتم داخل الأجسام فهو إما وسط أو عامل مساعد أو داخل في هذا التفاعل أو ناتج عنه، وتقول الآيات الكريمة في قصة خلق آدم أبى البشر عليه السلام أنه خلق من طين، والطين هو خليط من الماء والتراب أي أن الماء عنصر أساسي في تكوين أي شيء حي))^(٤).

(١) الإعجاز الفني في القرآن الكريم ، عمر السلامي / ١٩٨ .

(٢) دعوات الراوندي / ١٦ ، عنه في البحار : ٨٠ / ٣١٢ ، الحديث ٢٩ .

(٣) كنز العمال ، المتقي الهندي : ٧ / ٨٣٤ .

(٤) القرآن وأعجازه العلمي ، محمد إسماعيل إبراهيم / ٨٧ .

وجاء عن الإمام الصادق (عليه السلام) ((إنه سئل عن (وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون)... كان عرشه على الماء والماء على الهواء والهواء لا يحد ولم يكن يومئذ خلق غيرهما والماء يومئذ عذب فرات فلما أراد الله أن يخلق الأرض أمر الرياح فضربت الماء حتى صار موجا ثم أزيد فصار زبدا واحدا فجمعه في موضع البيت ثم جعله جبلا من زبد ثم دحا الأرض من تحته فقال الله تبارك وتعالى إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً ثم مكث الرب تبارك وتعالى ما شاء فلما أراد أن يخلق السماء أمر الرياح فضربت البحور حتى أزيدتها فخرج من ذلك الموج والزبد من وسطه دخان ساطع من غير نار فخلق منه السماء وجعل فيها البروج والنجوم ومنازل الشمس والقمر وأجراها في الفلك وكانت السماء خضراء على لون الماء الأخضر وكانت الأرض غبرا على لون الماء العذب وكانتا مرتوقيتين ليس لهما أبواب ولم يكن للأرض أبواب وهو النبت ولم تمطر السماء عليها ففتق السماء بالمطر وفتق الأرض بالنبات وذلك قوله أو لم ير الذين كفروا الآية وجعلنا من الماء كل شيء حي وخلقنا من الماء كل حيوان كقوله والله خلق كل دابة من ماء؛ لأنه أعظم مواده ولفرط احتياجه إليه وانتفاعه به بعينه أو صيرنا كل شيء حي بسبب من الماء لا يحيى دونه القمي قال نسب كل شيء إلى الماء ولم يجعل للماء نسباً إلى غيره. وفي الكافي عن الباقر عليه السلام مثله. وعن الصادق عليه السلام إنه سئل عن طعم الماء فقال طعم الماء طعم الحياة، حيث قال الله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ))^(١).

وجاء مستدرك سفينة البحار: ((في أن أصل الأشياء كلها الماء: سأل رأس الجالوت أمير المؤمنين (عليه السلام) عن أصل الأشياء، فقال: هو الماء لقوله تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) ، وعن الأمام الباقر (عليه السلام) في حديث مسائل الشامي، قال: فأول شيء خلقه من خلقه الشيء الذي جميع الأشياء منه وهو الماء. فقال السائل: فالشيء خلقه من شيء أو من لا شيء؟ فقال: خلق الشيء لا من شيء كان قبله ولو خلق الشيء من شيء إذا لم يكن له انقطاع أبداً ولم يزل الله إذا معه شيء، ولكن كان الله ولا شيء معه، فخلق الشيء الذي جميع الأشياء منه، وهو الماء))^(٢).

(١) التفسير الصافي، الفيض الكاشاني: ٣ / ٣٣٩.

(٢) مستدرك سفينة البحار، الشيخ علي النمازي: ١ / ١٥٢.

الماء أس الحياة :

عندما نتأمل في قوله تعالى : (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ)^(١).

نجد إن ما تعنيه هذه الآية الكريمة، هو أن الماء سبب حياة كل شيء حي على وجه الأرض فلولا الماء لما كان هنالك شيء حي . وقد أثبت العلم الحديث أن الماء هو المكون الأساس في تركيب الخلية لذا يمنحها الحياة ، لذا فالماء هو وحدة البناء في كل كائن حي نباتاً كان أو حيواناً. فقد ورد في تفسير الميزان : ((وقوله: " وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ " ظاهر السياق أن الجعل بمعنى الخلق و " كل شيء حي " مفعوله والمراد أن للماء دخلاً تاماً في وجود ذوي الحياة كما قال:

"والله خلق كل دابة من ماء"^(٢)، ولعل ورود القول في سياق تعداد الآيات المحسوسة يوجب انصراف الحكم بغير

الملائكة ومن يحذو حذوهم، وقد اتضح ارتباط الحياة بالماء بالأبحاث العلمية الحديثة.))^(٣).

وجاء في تفسير آخر للآية الكريمة ((وقوله " وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ " والمعنى إن كل شيء صار حياً، فهو

مجمعول من الماء. ويدخل فيه الشجر والنبات على التبع .

وقال بعضهم: أراد بالماء النطف التي خلق الله منها الحيوان. والأول أصح.

وقوله " أفلا يؤمنون " معناه أفلا يصدقون بما أخبرتهم.))^(٤) وقد جاء تفسير للآية الكريمة في بحار الأنوار :

((عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) قال: كل شيء خلق من

الماء)^(٥).

وعن وهب قال: قال عزيز: رب أمرت الماء فجمد في وسط الهواء فجعلت منه سبعا وسميت السماوات ثم أمرت الماء ينفق عن التراب، وأمرت التراب أن يتميز من الماء، فكان كذلك فسميت جميع ذلك الأرضيين وجميع الماء البحار، ثم خلقت من الماء أعين بصيرته^(٦) ومنها. أصم آذان أسمعته، ومنها ميت أنفس أحبيته خلقت ذلك بكلمة واحدة منها ما عيشه الماء ومنها ما لا صبر له على الماء خلقاً مختلفاً في الأجسام والألوان جنسته أجناساً، وزوجته أزواجا وخلقت أصنافاً وألهمته الذي خلقتة.

(١) الأنبياء / ٣٠

(٢) النور / ٤٥.

(٣) تفسير الميزان ، السيد الطباطبائي : ١٤ / ٢٨٠.

(٤) تفسير التبيان ، الشيخ الطوسي : ٧ / ٢٤٤.

(٥) الدر المنثور : ٣ / ٣٢٢.

(٦) ظ : المصدر نفسه : ٤ / ٣١٧.

ثم خلقت من التراب والماء دواب الأرض وما شيتها وسباعها فمنهم من يمشي على بطنه، ومنهم من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع ومنهم العظيم والصغير ثم زرعت ثم وعظته بكتابك وحكمتك ثم قضيت عليه بالموت لا محالة ثم أنت تعيده كما بدأته وقال عزيز: اللهم بكلمتك خلقت جميع خلقك فأتى على مشيتك ثم زرعت أرضك كل نبات فيها بكلمة واحدة وتراب واحد وتسقى بماء واحد، فجاء على مشيتك مختلفاً أكله ولونه وريحه وطعمه، منه الحلو، ومنه الحامض والمر، و الطيب ريحه والمنتن، والقبيح والحسن...) ^(١). قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ) ^(٢).

تخبرنا الآية الكريمة إن الماء قد كان سبباً في وجود كل شيء بعد إرادة الله سبحانه وهو المرید بأن يجعل للماء هذا الشأن الكبير ، وقد جاء في تفسير قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً) أي المطر. (فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ) أي كل صنف من النبات. وقيل: رزق كل حيوان. (فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا) ... والخضر: المادة الخضراء في النبات وهي مادة الحياة. وهي من أسرار قدرة الباري سبحانه. ^(٣).

وقد جاء في تفسير التبيان إيضاح لما جاء بسياق الآية الكريمة: ((وقوله " فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ " معناه أخرج بالماء الذي أنزله من السماء من غذاء الأنعام والبهائم والطيور والوحش وأرزاق بني آدم وأقواتهم ما يتغذون به ويأكلونه فينبتون عليه وينمون، ويكون معنى قوله " فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ " أخرجنا به ما ينبت كل شيء وينمو عليه ويصلح. ويحتمل أن يكون المراد أخرجنا به جميع أنواع النبات فيكون كل شيء هو أصناف النبات. ^(٤)،

وعند إطلاع البحث على ما جاء بتفسير الثعالبي عندما يتعرض لسياق هذه الآية القرآنية المباركة نجده يفسرها بقوله : ((قوله تعالى: " أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ": السماء في هذا الموضع السحاب وكل ما أظلك فهو سماء وقوله نبات كل شيء قيل معناه مما ينبت وقال الطبري المراد بكل شيء كل ما ينمو من جميع الحيوان والنبات والمعادن وغير ذلك لأن ذلك كله يتغذى وينمو بنزول الماء من السماء ، ومنه قوله عليه السلام الدنيا خضرة حلوة بمعنى خضراء وكأن خضرا إنما يأتي لمعنى النضارة وليس للون فيه...وحبا متراكبا يعم جميع السنابل وما شاكلها كالصنوبر والرمان وغير ذلك وقوله النخل تقديره ونخرج من النخل الطلع أول ما

(١) بحار الأنوار ، العلامة المجلسي : ٤٥ / ٢٠٩ - ٢١٠ .

(٢) الأنعام / ٩٩ .

(٣) تفسير القرطبي ، القرطبي : ٧ / ٤٨ .

(٤) تفسير التبيان ، الشيخ الطوسي : ٤ / ٢١٧ .

يخرج من النخل في أكمامه وقنوان جمع قنو وهو العذق وفي بكسر العين وهي الكباسة والعرجون عوده الذي فينتظم التمر ودانية معناه قريبة من التناول^(١).

وعندما نتابع ما جاء في القرآن الكريم من آياتِ بيناتٍ قد دخلت مفردة (الماء) في سياقها القرآني، نجد أن الماء هو بيئة مناسبة لوجود كثير من المخلوقات والكائنات الحية ، حيث جاء في قوله جل شأنه: (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا)^(٢).

ينبها الله جل وعلا من خلال ما جاء بالآية الكريمة أن مياه البحر صالحة لحياة الأحياء البحرية ومن ثم تكون الأخيرة سبباً في نمو وتكاثر نعم الله سبحانه التي يتغذى عليها الإنسان مما يضمن المحافظة على سلالة بني البشر واستمرارها بالحياة على ظهر الأرض ،وقد جاء بتفسير الآية الكريمة: ((وقوله: " لِتَأْكُلُوا " أي لتصطادوا منه السمك وتأكلوا لحمه. وقوله: " حلية تلبسونها " أي اللؤلؤ والمرجان أنتم ونساؤكم تزينون بها.))^(٣).

وجاء في تفسير مجمع البيان : (("وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ " أي: الله لكم، وسهل لكم الطريق إلى ركوبه،

واستخراج ما فيه من المنافع (لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا) أي: لتصطادوا منه أنواع السمك، وتأكلوا لحمه (طَرِيًّا) . ولا يجوز أن يهمز طريا، لأنه من الطراوة^(٤)

ولاشك أن الآيات القرآنية تفيض بالكلمة الربانية والأعجاز العلمي فعندما نطالع الأعجاز العلمي لما جاء بسياق الآية القرآنية المباركة بعد إطلاعنا على التفسير الفقهي في كتاب القرآن وأعجازه العلمي نجد أن : ((قال تعالى : (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَنَرَى الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَتَلْتَبِغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَكُمْ كُودُ

تَشْكُرُونَ) تفسير علماء الدين: وهو الذي ذلل البحر وجعله في خدمتكم لتصطادوا ولتأكلوا منه لحم الأسماك طريا طازجا، وتستخرجوا منه ما تتحلون به كالمرجان واللؤلؤ، وترى أيها الناظر المتأمل السفن تجري فيه شاقة مياهه تحمل الأمتعة والأقوات، وقد سخره الله لذلك لتنتفعوا بما فيه وتطلبوا من فضل الله الرزق عن طريق التجارة وغيرها، ولتشكروه على ما هيأه لكم وذلك لخدمتكم.

(١) تفسير الثعالبي ، الثعالبي : ٥٠٠ / ٢ - ٥٠١ .

(٢) النحل / ١٤ .

(٣) تحف العقول ، ابن شعبة الحراني / ٤٧٢ .

(٤) تفسير مجمع البيان ، الشيخ أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي : ١٤٦ / ٦ .

أما النظرة العلمية: يجد العلم في هذه الآية مجالا للنظر في أهمية لحم الأسماك في التغذية سواء كان طازجا أو مجففا أو مملحا فهو لا يقل أهمية عن لحم الحيوانات والطيور، وذلك لاحتوائه على المواد البروتينية وعلى نسبة من المواد الدهنية كما يحتوى أيضا على بعض الأملاح المعدنية ولذلك فهو غذاء هام لنا ونأخذ منه بعض الزيوت المحتوية على الفيتامينات الهامة ولاسيما زيت سمك القرش والحوت كما أن الأسماك مصدر من مصادر اليود وخصوصا الأسماك البحرية ...))^(١)، قال تعالى : (أَحْلِلْ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ سَاعًا لَكُمْ

وَلَسِيَّامَةً)^(٢)، تشير الآية الكريمة إلى أن كل مياه تحوي على صيد بحري وإن كان نهرا وليس بحرا أو غديرا

مهما كان حجمه وسعته، لذا فمن نعم الله المنان على البشر أن سخر لهم ما في البر والبحر من مخلوقاته ليقتات عليها ، وقد كان (للماء) النصيب الأوفر بأن يكون البيئة الواسعة والملائمة التي تتناسب البيئة البرية في إيجاد طعام الإنسان ، فذلك كان (الماء) سببا للحياة ودوامها ، فقد دخل في مكونات ومكونات كل الأشياء من النطفة إلى النمو ثم إلى النسبة الكبيرة التي يشكلها في الجسم البشري ونمو الخلايا حتى كان سببا في نمو النبات الذي يتغذى عليه الإنسان ومن ثم كان السبب المباشر في إيجاد طعام ابشر الذي يقتات عليه ولم يتوقف عند ذلك فحسب بل كان البيئة الملائمة لتكاثر هذه الأحياء التي أحل صيدها الله سبحانه وتعالى لتكون طعاما ومتاعا للماكثين والساعيين ، وجاء في تفسير ذلك : ((الصيد الاصطياد مباح في البحر في حق كافة الناس، وفي... قوله تعالى: (أَحْلِلْ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ) لان الكسب مباح في الأصل، وما يصيده قد يؤكل، وقد ينتفع بجلده

وبشعره، ونحو ذلك. ثم ما يباح أكله من الصيد المأكول))^(٣).

و من خلال ما جاء بسياق الآيات القرآنية الكريمة التي تطرق البحث إليها في أعلاه نجد أن كلمة (الماء) قد وردت في القرآن بمرادفات عدة وبمواضع شتى وأعطت معاني مختلفة حسب مجيء المفردة في سياق النص القرآني وبما أرادها الله سبحانه لتحقيق الدلالة الإلهية المقصودة ، فمرة جاءت كلمة (الماء) معبرا عنها: بالغيث أو المطر أو البحار أو الأنهار وغير ذلك لأهميتها القصوى. وغالب كان ورودها بمعنى "النعمة"، وكونها ضرورة للحياة والأحياء والتي لا تقوم الحياة إلا بها، فلنتأمل في قوله تعالى : (وَرَمَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا

الْمَاءَ فَاهْتَرَّتْ وَرَبَّتْ وَأَتَبَتْ مِنْ كُلِّ نَزْوٍ بِهِجٍ)^(٤).

(١) القرآن وأعجازه العلمي ، محمد إسماعيل إبراهيم / ٦١.

(٢) المائدة / ٩٦.

(٣) تحفة الفقهاء ، السمرقندي : ٣ / ٧٤.

(٤) الحج / ٥.

نرى أن كلمة (الماء) كانت سبباً لاختضار الأرض بعد أن كانت جرزاً، وهي سبباً كذلك لإحيائها بعد همود وخشوع . والآيات القرآنية التي أعطت الدلالة ذاتها كثيرة في القرآن الكريم . وقد جاء في تفسير مجمع البيان ما فيه إيضاح تطبيقي لمعنى الآية الكريمة : فقال: (وترى الأرض هامدة) يعني هالكة، عن مجاهد. أي: يابسة دراسة من أثر النبات (فإذا أنزلنا عليها الماء) وهو المطر (اهتزت) أي: تحركت بالنبات. والاهتزاز: شدة الحركة في الجهات (وربت) أي: زادت أي: أضعفت نباتها. وقيل: انتفخت لظهور نباتها، عن الحسن. (وأنبئت) يعني الأرض (من كل زوج) أي: من كل صنف (بهيج) مؤنق للعين، حسن الصورة واللون. (ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير))^(١) وجاء قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُبَشِّرُكُمْ بِهِ الْزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)^(٢).

نرى أن مفردة (الماء) أعطت دلالة في سياق النص القرآني بأنها هي قوام الحياة؛ لأن بها تخرج مكونات الأرض مما يتغذى عليه الحيوان والإنسان لتحقيق خلافة البشر على الأرض كما أرادها الله تعالى. وقد جاء في تفسير الآية المباركة: ((في دلالة إحياء الأرض بالمطر على وجود الصانع المدبر للعالم وذلك أن البرد في الشتاء يوجب كثافة الهواء والأرض والشجر ويبس ظاهرها فتعود القوى النباتية والحرارة الغريزية في الشجر والنبات، وتستقر في بطونها وأصولها وتهئ فيهما مواد الثمار وتولد الأمثال فإذا نزل الماء وقت الربيع الذي هو وقت بروز ما في البطون وظهور ما في الكمون انتفخت الأرض واهتزت وتحركت القوى والحرارة وتتولد المواد الكامنة في الشتاء فيطلع النبات ويتنور الأشجار والأزهار ويخرج أصناف مختلفة مونة رايقة من الثمار التي يتمتع بها الإنسان وغيره من أنواع الحيوان، كما قال سبحانه: (وَرَبَّى الْأَرْضَ هَامِدَةً

فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَبْتَتْ مِنْ كُلِّ نَوْحٍ بِهِيج) ، وقال: (وأنزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً لنخرج به حبا ونباتا وجنات

ألفافا)^(٣)، فالعاقل اللبيب إذا نظر هذه الحركات والانقلابات وفي صنوف مختلفة من النباتات والأشجار

والأزهار والأثمار من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة على اختلاف أنواعها وأصنافها مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والروائح يفضل بعضها على بعض في الأكل والمنافع مع أن جميعها يخرج

(١) تفسير مجمع البيان ، الشيخ الطبرسي : ١٣٠ / ٧ .

(٢) النحل / ١-١١ .

(٣) النبأ / ١٤

من أرض واحدة ويسقى من ماء واحد، وتفكر ما في النباتات من ضروب المنافع وصنوف المآرب فالثمار للغذاء والنبات للعلف والحطب للوقود والخشب لكل شيء من أنواع التجارة وغيرها واللحاء والورق والأصول والعروق والصموغ وغيرها لضروب المنافع فبعضها يقوي وبعضها يغذي، وبعضها يقتل وبعضها يحيى، وبعضها يسخن وبعضها يبرد، وبعضها يدفع السوداء وبعضها يسهل للصفراء، وبعضها يقمع البلغم إلى غير ذلك من الفوائد غير المحصورة، ورأى ما في الأوراق من شبه العروق مبنوثة في جرمها أجمع فمنها غلاظ ممتدة في طولها وعرضها لإمسакها وحفظها عن التمزق والاضطراب ولإيصال الماء إلى أطرافها بمنزلة الجداول ومنها دقاق تتخلل تلك الغلاظ لإيصال الماء والغذاء إلى كل جزء من أجزائها بمنزلة العروق المبنوثة في البدن.))^(١)

قال تعالى : (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ)^(٢).

في هذا النص المبارك أعطت مفردة (الماء) بعداً غير البعد الذي تحدثت عنه الآيات السابقة ، فقد وردت هنا لتكون هي (أديم) الخلق وهي قوام الحياة لأنه أصل كل دابة كما تشير الآية الكريمة هو (الماء) ، وهذه الدواب كلها مسخرة لخدمة الإنسان وغذائه وكسائه وترحاله.

وقد جاء في بحار الأنوار تفسير وإيضاح لما جاء بالآية الكريمة : ((قوله سبحانه: " وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ "

في هذه الآية أسئلة : الأول: قال الله: " خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ " مع أن كثيرا من الحيوانات غير مخلوقة من الماء كالملائكة ، وهو أعظم المخلوقات عدداً، وأنهم مخلوقون من النور، وأما الجن فهم مخلوقون من النار، وخلق الله آدم من التراب^(٣) وخلق الله عيسى من الريح لقوله: " فنحن فيه من روحنا"^(٤).

وأيضا نرى أن كثيرا من الحيوانات يتولد لا عن النطفة. والجواب من وجوه: أحدها وهو الأحسن ما قاله الفقهاء: وهو أن "من ماء" صلة "كل دابة" وليس هو من صلة "خلق" أن كل دابة متولدة من الماء فهي مخلوقة لله.

وثانيها: أن أصل جميع المخلوقات الماء على ما روي " أول ما خلق الله تعالى جوهرة فنظر إليها بعين الهيبة فصارت ماء ثم من ذلك الماء خلق النار والهواء والنور " .

والمقصود من هذه الآية بيان أصل الخلقة وكان الأصل الأول هو الماء لا جرم ذكره على هذا الوجه.

(١) شرح أصول الكافي ، مولي محمد صالح المازندراني : ١ / ١٠٢ - ١٠٣ .

(٢) النور / ٤٥ .

(٣) ظ : آل عمران / ٥٩ .

(٤) التحريم / ١٢ .

وثالثها: أن المراد من الدابة، الذي يدب على وجه الأرض ومسكنهم هناك لتخرج الملائكة والجن، ولما كان الغالب جدا من هذه الحيوانات كونهم مخلوقين من الماء إما لأنها متولدة من النطفة، وإما لأنها لا تعيش إلا بالماء لا جرم أطلق الكل تنزيلا للغالب منزلة الكل.

الثاني: لم سُمي الزحف على البطن مشيا؟ والجواب هذا على سبيل الاستعارة كما يقال: فلان لا يمشي له أمر، وعلى طريق المشاكلة.

الثالث: أنه لم تنحصر القسمة، لأننا نجد ما يمشي على أكثر من أربع مثل العناكب والعقارب ومثل الحيوان الذي له أربع وأربعون رجلا الذي يسمى دخال الأذن.

والجواب: القسم الذي ذكرتم كالنادر فكان ملحقا بالعدم، ولأن الفلاسفة يقولون: ماله قوائم كثيرة فالاعتماد له إذا مشى على أربع جهاته لا غير فكأنه يمشي على أربع ولأن قوله: "يخلق الله ما يشاء" تنبيه على أن الحيوانات كما اختلف بحسب كيفية المشي فكذا هي مختلفة بحسب أمور أخر^(١).

قال تعالى: (أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَلَمْ يَكُنْ مِنْ الْمُنْزِلِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ * لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ)^(٢).

ولما كان للماء هذه الأهمية القصوى، فقد نبه الله سبحانه وتعالى كثيرا من خلال ما جاء بالآيات القرآنية على وجوب معرفة هذه النعمة التي لا تعد ولا تحصى والتي أنعم بها جل شأنه على الإنسان ، وأمره بدوام شكرها والتحدث بها.

قال عز وجل: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ)^(٣).

أتضح من خلال ما جاء بمضمون الآيات السابقة أن (للماء) منزلة كبرى وشأنًا عظيمًا، فمن الطبيعي أن تتوقف عجلة الحياة عن الدوران إذا نضب الماء أو ندر، فجاء التساؤل في هذا النص القرآني ليكون بمثابة الوخزة البسيطة والصغيرة لبني البشر إذا (غار الماء) من الذي يستطيع الإتيان به ، وأي قوة تستطيع أن تخرجه من تخوم الأرض إن لم يشأ الله سبحانه وتعالى إخراجها، وإلى أي شيء ستؤول أمور الحياة ، قطعاً يكون الجواب وبلا تأمل ولا تردد جواب الواثق العارف ، ستؤول إلى فناء وخراب لا بعده خراب ، فكيف سيكون حال الحياة بلا (ماء) والذي منه كل شيء حي ، فهو أديمها وسبب بقائها ، ولهذا تضافرت نصوص الشريعة الإسلامية في الحث على المحافظة على موارد المياه وعلى حماية الماء من كل العوامل التي تسبب فساده وتلوثه.

(١) بحار الأنوار ، العلامة المجلسي : ٦١ / ١٤ - ١٥ .

(٢) الواقعة / ٦٨ - ٧٠ .

(٣) الملك ، ٣٠ .

وقال تعالى : (وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ)^(١) ، منشأ الوجود من العدم ، ومسبب الأسباب بلا سبب ، يبين لنا تجليات

قدرته في هذه الآية الكريمة بأن الله جل وعلا هو المنشأ للسحاب التي تقل (الماء) الذي هو سبب لدوام الحياة واستمرارها وهو القادر على كل شيء ، فلينظر الإنسان إلى السحاب كيف تكوّن ومن أين جاء وأي قوة التي تجعل الهواء الذي ليس له كتلة محسوسة كالجدار وغيره أن يحمل السحاب المحملة بـ (الماء) الثقيل من أين جاء السحاب؟ وكيف يستطيع حمل الماء والسير به في أعالي الجو، وينزله الله سبحانه على الأرض أين ما شاء ووقت ما شاء وكيف ما شاء ، فهو لم ينشأ من العدم وليس لديه القدرة على إيجاد نفسه بنفسه وإنما أنشأه الله سبحانه وتعالى ليكون مصدراً رئيسياً لوجود (الماء) على الأرض، فمن (ماء) المطر تكونت الأنهار والبحار، ومن (ماء) المطر تكونت المياه الجوفية، ومن (ماء) المطر يشرب الإنسان ، ومن (ماء) المطر يسقى الزرع والأشجار، ومن (ماء) المطر استمرت الحياة ، فما أعظمه وما أجله من قادر مقتدر .

وجاء في تفسير ذلك : ((جعل الماء الممزوج بالتراب سببا في إخراجها ومادة لها كالنطفة للحيوان بأن أجرى عادته بإفاضة صورها وكيفياتها على المادة الممزوجة منهما أو أبدع في الماء قوة فاعلة وفي الأرض قوة قابلة تتولد من اجتماعهما أنواع الثمار وهو قادر على أن يوجد الأشياء كلها بلا أسباب ومواد، كما أبدع نفوس الأسباب والمواد، ولكن له في إنشائها مدرجا من حال إلى حال صنعا وحكما يجدد فيها لأولي الأبصار عبراً وسكونا إلى عظم قدرته ليس في إيجادها دفعة، و"من" الأولى للابتداء سواء أريد بالسماء السحاب فإن ما علاك سماء، أو الفلك))^(٢).

وقال البيضاوي: (السماء يحتمل الفلك والسحاب وجهة العلو)^(٣). وقال الرازي: فإن قيل: أفنقولون إن الماء ينزل من السماء على الحقيقة أو من السحاب أو تجوزون ما قاله بعضهم من أن الشمس تؤثر في الأرض فتخرج منها أبخرة متصاعدة، فإذا وصلت الجو بردت فتقلت فنزلت من فضاء المحيط إلى ضيق المركز اتصلت، فتتولد من اتصال بعض تلك الذرات ببعض قطرات هي قطرات المطر.

قلنا: بل نقول: إنه ينزل من السماء كما ذكر الله تعالى وهو الصادق في خبره، وإذا كان قادرا على إمساك الماء في السحاب فأبي بعد في أن يمسكه في السماء ؟ وأما قول من يقول إنه من بخار الأرض فهذا ممكن في نفسه لكن القطع بأنه كذلك لا يمكن إلا بعد القول بنفي الفاعل المختار وقدم العالم وذلك كفر، لانا متى جوزنا أن الفاعل المختار قادر على خلق الجسم فكيف يمكننا مع إمكان هذا القسم أن نقطع بما قالوه؟^(٤).

" فأحيى به الأرض " أي بالنبات مجازا " وبث فيها من كل دابة " قال البيضاوي: عطف على " أنزل " كأنه استدل بنزول المطر وتكون النبات به و بث الحيوانات في الأرض، أو على " أحيى " فإن الدواب ينمون

(١) الرعد ، ١٢ .

(٢) أنوار التنزيل : ١ / ٤٦ .

(٣) أنوار التنزيل : ١ / ١٢٦ .

(٤) ظ : مفاتيح الغيب : ٢ / ١٠٠ .

بالخصب و يعيشون بالحياة، والبث النثر والتفريق^(١) وقال الرازي في تصريف الرياح وجه الاستدلال أنها مخلوقة على وجه يقبل التصريف وهو الرقة واللطافة، ثم إنه سبحانه يصرفها على وجوه يقع بها النفع العظيم في الإنسان والحيوانات ثم ذلك من وجوه: أحدها أنها مادة النفس التي لو انقطع ساعة عن الحيوان لمات لا جرم كان وجدانه أسهل من وجدان كل شيء، وبعد الهواء تأتي الحاجة الى الماء؛ لأن الماء لا بد منه ، لكن مع وجود الدلائل القاطعة الحاصلة من التجارب العلمية يمكن حصول العلم العادي به كحصول العلم بوجود سائر المعاليل الطبيعية عند وجود عللها .

فيه من تكلف الاعتراف بخلاف الهواء، فإن الآلات المهيأة لجذبه حاضرة ، ثم الحاجة إلى الطعام شديدة لكن من دون الحاجة إلى الماء، فلا جرم كان تحصيل الطعام أصعب من تحصيل الماء، وبعد الطعام الحاجة إلى تحصيل المعاجين والأدوية النادرة قليلة، فلا جرم عزت هذه الأشياء، وبعد المعاجين الحاجة إلى أنواع الجواهر من اليواقيت والزبرجد نادرة جداً، ولا جرم كانت في نهاية العزة فثبت أن كلما كان الاحتياج إليه أشد كان وجدانه أسهل، وكلما كان الاحتياج إليه أقل كان وجدانه أصعب، وما ذلك إلا رحمة منه على العباد، ولما كانت الحاجة إلى رحمة الله سبحانه أعظم الحاجات نرجو أن يكون وجدانها أسهل من وجدان كل شيء.

وثانيها لولا تحرك الهواء لما جرت الفلك، وهذا مما لا يقدر عليه أحد إلا الله تعالى، فلو أراد كل من في العالم أن يقلب الريح من الشمال إلى الجنوب إذا كان الهواء ساكناً أن يحركه لتعذر ذلك . "والسحاب المسخر بين السماء والأرض" سمي السحاب سحاباً لإنسحابه في الهواء، ومعنى التسخير التذليل، وإنما سماه مسخراً لوجوه: أحدها أن طبع الماء يقتضي النزول، فكان بقاؤه في جو الهواء على خلاف الطبع، فلا بد من قاهر يقسره على ذلك، ولذلك سماه بالمسخر. الثاني أن هذا السحاب لو دام لعظم ضرره من حيث إنه يستر ضوء الشمس ويكثر الأمطار، ولو انقطع لعظم ضرره لأنه يفضي إلى القحط وعدم العشب. الثالث أن السحاب لا يقف في موضع معين بل يسوقه الله تعالى بواسطة تحريك الرياح إلى حيث أراد وشاء، وذلك هو التسخير^(٢) وقد جاء في تفسير جامع البيان تفسيراً لهذه الآية المباركة جاء فيه : ((قوله: وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ: ويثير السحاب الثقال بالمطر، ويبدئه، يقال منه: أنشأ الله السحاب: إذا أبدأه، ونشأ السحاب: إذا بدأ ينشأ نشأ. والسحاب في هذا الموضع وإن كان في لفظ واحد فإنها جمع ومفردها سحابة، ولذلك قال: الثقال، فنعتها بنعت الجمع، ولو كان جاء: السحاب الثقيل كان جائزاً، وكان توحيدها للفظ السحاب، كما قيل: جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل))^(٣).

في ضوء كل ما تقدم نلاحظ إن للكلمة بصورة عامة في السياق القرآني أثراً مهماً لتعطي الدلالة والمعنى المراد منها من خلال انضمامهما وانتظامهما في السياق القرآني ، فضلاً عن ملاحظتنا الى الكيفية التي أدت بها كلمة

(١) ظ : أنوار التنزيل : ١ / ١٢٦.

(٢) ظ : بحار الأنوار ، العلامة المجلسي : ٥٦ / ٣٤٩ - ٣٥٠ - ٣٥١.

(٣) جامع البيان ، ابن جرير الطبري : ١٣ / ١٦٣.

(الماء) أثناء انضمامها إلى النص القرآني ، فقد أدت أثراً في رسم الصورة الإيحائية لدى المتلقي ، ومن ثم إيصال المعنى المراد منها ، وبذلك أدت الكلمة الوظيفة المطلوبة منها من خلال مجيئها في سياق الآيات القرآنية .

المبحث الثالث
الوظيفة الفقهية لفردة
(الماء)
في النص القرآني

دخلت مفردة (الماء) لبنة أساس في الحقل الفقهي فقد كثرت النصوص القرآنية وما أثمر عنها من تفسير في الحقل الفقهي عند المسلمين وأصبحت الوظيفة التعبيرية وهي النازلة من الله سبحانه وتعالى وهو المرسل ، لذلك تتولد الوظيفة الأفهامية لدى المرسل إليه وهي الوظيفة التي تختص بالمتلقي البشري حسب نظرية جاكبسن وكان مرجع هاتينوظيفتين هو النص القرآني وانبثقت الوظيفة المعجمية للغة أما وراء اللغة الذي فسر فقها من القصيدة الألهمية التي هي الرسالة المؤداة إلى البشر فكانت الوظيفة الإنشائية التي تدور حولها مدارك الناس وعقولهم واجتهاداتهم في تفسير حركة كلمة (الماء) في سياق النص القرآني وكانت كلمة (الماء) قد أدت أثرها الفقهي في النص القرآني ؛ لأن الوظيفة الفقهية :- هي الأحكام الشرعية المستنبطة من النص القرآني ، وهذا الحكم يعد وظيفة ثانوية بالنسبة إلى الوظيفة الأولية (وهي معرفة معنى الآية وهذه الوظيفة تعني حكم الآية في الوجوب أو الندب أو التحريم أو الكراهية أو الإباحة) ^(١).

ونجد أن الوظيفة الفقهية اعتمدت اعتماداً مباشراً على السياق فمجيء مفردة (الماء) بشكل عام جعلت المفسرين ينتقلون من حكمها التفسيري إلى أحكام فقهية رافقت ما يطرأ على الطبيعة من أحداث وبذلك أدت كلمة (الماء) بوصفها أس الحياة وظيفتها الفقهية والحياتية معاً ، وقد وردت مفردة (الماء أو ماء) في سياق النصوص القرآنية بصيغة الحكم الفقهي بـ (ست) آيات سيتطرق البحث لها مبيناً ما جاء بتفاسيرها لأجل الوقوف على ما لمفردة (الماء) من أثر في مجمل الآيات التي وردت فيها وما يهمننا في هذا المبحث هو أثر مفردة (الماء) في الحكم الفقهي سواء أكانت معرفة بـ (أل) أم وردت غير معرفة (بأل) في السياق القرآني .

١- قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنْأً إِلَّا غَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا) ^(٢).

جاء في تفسير هذه الآية الكريمة: ((بعد تسليم الفرد إلى الاضطراب بمقتضى الآيات المشار إليها أعلاه والأخبار المتواترة مثل قوله صلى الله عليه وآله: (إن رب الماء هو رب الصعيد) ^(٣).

^(١) ظ : الصورة الفنية في المثل القرآني ، د . محمد حسين الصغير / ٣٧٠ ، و ظ : أثر تعدد المعنى في تفسير النص القرآني دراسة تفسيرية ، هدى عبد الحسين مير زوين / ٢٦٥ .

^(٢) النساء / ٤٣ .

^(٣) الوسائل ، الحر العاملي ، باب ٢٣ من أبواب التيمم : ٢ / ٩٩٤ .

وقوله عليه الصلاة والسلام: (التيمم أحد الطهورين) ^(١) ((٢)).

وقد فسرت الآية الكريمة في موضع آخر: ((" فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا " تضمنت الآية بيان حكم

المريض الذي يخاف ضرر استعمال الماء وحكم المسافر الذي لا يجد الماء إذا كان جنباً أو محدثاً لأن قوله تعالى ... أو لامستم النساء مفيد لحكم الجنابة في حال عدم الماء ولما يستدل عليه إن شاء الله تعالى وقد دل ظاهر قوله وإن كنتم مرضى على إباحة التيمم لسائر المرضى بحق العموم لولا قيام الدلالة على أن المراد بعض المرضى فروي عن ابن عباس وجماعة من التابعين أنه المجذور ومن يضره الماء ولا خلاف مع ذلك أن المريض الذي لا يضره استعمال الماء لا يباح له التيمم مع وجود الماء وإباحة التيمم للمريض غير مضمنة بعدم الماء بل هي مضمنة بخوف ضرر الماء على ما بينا وذلك لأنه تعالى قال وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا فأباح التيمم للمريض من غير شرط عدم الماء وعدم الماء إنما هو مشروط للمسافر دون المريض ... مع عدم وجود الماء ... لأن الماء إنما يعدم في السفر في الأعم الأكثر فإنما ذكر السفر إبانة عن الحال التي يعدم الماء فيها في الأعم الأكثر ... فكان فائدة ذكر المسافر مع شرط عدم الماء ما وصفنا وليس كذلك المريض لأن المريض لا تعلق له بعدم الماء فعلمنا أن مراده ما يلحق من الضرر باستعمال الماء)) ^(٣).

٢- قال جل شأنه: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَمْزِجْكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ

لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا

فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ مِمَّا يَرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) ^(٤).

(١) ظ: الوسائل، الحر العاملي، باب ٢٣ من أبواب التيمم، باب ١٤، حديث ١٥، وباب ٢١، حديث ١، من أبواب التيمم: ٩٨٤ / ٢ و ٩٩١.

(٢) ظ: تقريرات في أصول الفقه، الشيخ علي الأشتهاردي / ٦١.

(٣) أحكام القرآن، الجصاص: ٤٦١ / ٢.

(٤) المائدة / ٦.

تناول الفقهاء ما جاء بسياق الآية الكريمة ليستنبطوا حكماً شرعياً ليكون منجياً للأمة من غياهب الاجتهادات الذاتية الخاطئة التي لم تبين على أساس علمي رصين ، فقد ورد في تفسير هذه الآية الكريمة : ((ظاهر قوله تعالى: (فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً) لأنه يقتضي نقلنا عن الماء إلى التراب من غير واسطة، ومن أجاز الوضوء بغير الماء، فقد جعل بينهما واسطة، وزاد في الظاهر ما لا يقتضيه. والوضوء بالماء المغصوب لا يرفع الحدث، ولا يبيح الصلاة بالإجماع، وأيضا فالوضوء عبادة يستحق بها الثواب، فإذا فعل بالماء المغصوب خرج عن ذلك إلى أن يكون معصية يستحق بها العقاب، فينبغي أن لا يكون مجزئاً، ولأن نية القرية فيه مندوب إليها بلا خلاف، والتقرب إلى الله تعالى بمعصية محال))^(١).

٣- قال (عز من قائل): (وَأَذَىٰ أَصْحَابِ النَّارِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَرَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ)^(٢)

فسرت هذه الآية الكريمة : ((اللغة:الإفاضة: إجراء المائع من علو، ومنه قولهم أفاضوا في الحديث أي: أخذوا فيه من أوله لأنه بمنزلة أعلاه، وأفاضوا من عرفات إلى المزدلفة: صاروا إليها... (أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَرَقَكُمُ اللَّهُ) ثم قال (حَرَّمَهَا) ولم يقل حرمه، وإن كان التقدير أفيضوا أحد هذين، لأنه جاء على قولهم جالس الحسن، أو ابن سيرين، فيجوز مجالستهما جميعاً...ثم ذكر سبحانه كلام أهل النار، وما أظهره من الافتقار، بدلا مما ...كانوا عليه من الاستكبار، فقال (ونادى) أي: وسينادي (أَصْحَابُ النَّارِ) وهم المخلدون في النار، وفي عذابها (أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ، أي: صبوا علينا من الماء نسكن به العطش، أو ندفع به حر النار (أَوْ مِمَّا رَرَقَكُمُ اللَّهُ) أي: أعطاكم الله من الطعام، عن السدي، وابن زيد (قالوا) يعني أهل الجنة جوابا لهم (إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ). ويسأل، فيقال: كيف ينادي أهل الجنة، وأهل النار، وأهل الجنة في السماء على ما جاءت به الرواية، وأهل النار في الأرض، وبينهما أبعد الغايات من البعد ؟ وأجيب عن ذلك

(١) غنية النزوع ، ابن زهرة الحلبي / ٥٠.

(٢) الأعراف / ٥٠.

بأنه يجوز أن يزيل الله تعالى عنهم ما يمنع من السماع، ويجوز أن يقوي الله أصواتهم فيسمع بعضهم كلام بعض^(١).

وعندما نبحت في تفسير آخر لمضمون سياق الآية القرآنية لتوضح لنا حال أهل النار وإحاحهم بطلب (الماء) من أهل الجنة ، فقد جاء في تفسير ابن كثير: (وَنَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ)

، يخبر تعالى عن ذلة أهل النار وسؤالهم أهل الجنة من شرابهم وطعامهم وأنهم لا يجابون إلى ذلك قال السدي " ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله " يعني الطعام وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم يستطعمونهم ويستسقونهم وقال الثوري عن عثمان الثقفي عن سعيد بن جبير في هذه الآية قال ينادي الرجل أباه أو أخاه فيقول له قد احترقت فأفرض علي من الماء فيقال لهم أجيبوهم فيقولون " إن الله حرمهما على الكافرين " .

وروى من وجه آخر عن سعيد عن ابن عباس مثله سواء وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم " إن الله حرمهما على الكافرين " يعني طعام الجنة وشرابها قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا نصر بن علي أخبرنا موسى بن المغيرة حدثنا أبو موسى الصفار في دار عمرو بن مسلم قال سألت ابن عباس أو سئل أي الصدقة أفضل؟ فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم " أفضل الصدقة الماء ألم تسمع إلى أهل النار لما استغاثوا بأهل الجنة قالوا أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله " ^(٢).

- قال (جل جلاله): (وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا) ^(٣).

تناول المفسرون الأحكام الفقهية لمفردة (الماء) من خلال وجودها في سياق النصوص القرآنية لما لهذه المفردة من أهمية فقهية تدخل في أغلب جوانب الحياة ونواحيها ، ولتعدد أنواع (الماء) وما يشتق منه فقد أفردوا لكل نوع أحكاماً خاصة به، وعند تأتي مفردة (الماء) متوائمة مع مفردة (طهور) في سياق الآية القرآنية الكريمة يتبادر إلى ذهن المتلقي أن هذا (الماء) مباح استعماله فيما يريد لأنه طاهر مطهر و(طهور) صيغة مبالغة في طهارته ، ويتضح ذلك من خلال ولوجنا في ما جاء بتفسير الفقهاء ، فنرى ما جاء بتفسير غنية النزوع بتفسير قوله: (وأنزلنا من السماء ماء طهوراً) وهذا ينطلق عليه اسم الماء، ومن ادعى أن التغير اليسير يسلبه إطلاق اسم الماء فعليه الدليل، لأن إطلاق الاسم هو الأصل، والتقييد داخل عليه، كالحقيقة والمجاز. والماء المستعمل في الوضوء والاغسال المندوبة طاهر مطهر يجوز الوضوء به والاغتسال مرة أخرى بلا خلاف بين أصحابنا،

(١) تفسير مجمع البيان، الشيخ الطبرسي : ٢٦٤ / ٤ - ٢٦٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ، ابن كثير : ٢ / ٢٢٨ .

(٣) الفرقان / ٤٨ .

ويدل عليه أيضا ما تلوناه من ظاهر القرآن. فأما المستعمل في الغسل الواجب ففيه خلاف بين أصحابنا^(١)، وظاهر القرآن مع من أجراه مجرى المستعمل في الوضوء إلا أن يخرج دليل قاطع. ومن يقول: إن الاستعمال على كل حال يخرج عن تناول اسم الماء بالإطلاق، يحتاج إلى دليل، ولأن من شربه وقد حلف أن لا يشرب ماء يحنث بلا خلاف، وهذا يبطل قوله. ولا يجوز الوضوء بغير الماء من المائعات، نبيذ تمر كان أو ماء ورد أو غيرهما، بدليل الإجماع المذكور... والوضوء بالماء المغصوب لا يرفع الحدث، ولا يبيح الصلاة بالإجماع، وأيضا فالوضوء عبادة يستحق بها الثواب، فإذا فعل بالماء المغصوب خرج عن ذلك إلى أن يكون معصية يستحق بها العقاب^(٢).

وجاء في تفسير الصافي بخصوص الآية المباركة : ((وصفاً بليغا في الطهارة وصفه به إشعاراً بالنعمة فيه وتتميماً للمنة فيما بعده فان الماء الطهور أهناً وانفع مما خالطه ما يزيل طهوريته))^(٣).

٥- قال تعالى : (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءٌ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)^(٤).

يقول القرآن في هذا الصدد: (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءٌ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ).

((فحركه هذا المشهد... حفنة من الشبان الغلاظ يملأون الماء ويسقون الأغنام، ولا يفسحون المجال لأحد حتى يفرغوا من أمرهم.. بينما هناك امرأتان تجلسان في زاوية بعيدة عنهم، وعليهما آثار العقة والشرف، جاء إليهما موسى (عليه السلام) ليسألهما عن سبب جلوسهما هناك و (قَالَ مَا خَطْبُكُمَا).

ولم لا تتقدمان وتسقيان الأغنام؟! لم يرق لموسى (عليه السلام) أن يرى هذا الظلم، وعدم العدالة وعدم رعاية المظلومين، وهو يريد أن يدخل مدينة مدين، فلم يتحمل ذلك كله، فهو المدافع عن المحرومين ومن أجلهم ضرب قصر فرعون ونعمته عرض الحائط وخرج من وطنه، فهو لا يستطيع أن يترك طريقته وسيرته وأن يسكت أمام الجائرين الذين لا ينصفون المظلوم !!.. فقالت البنتان: إنهما تنتظران تفرق الناس وأن يسقي هؤلاء الرعاة أغنامهم: "تذودان" ، فهما إذا كانتا تذودان أغنامهما لئلا تختلط بالأغنام الأخرى.

ما خطبكما: أي ما شأنكما وما شغلكما هنا؟! (قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ).

(١) ظ : المختلف : ١ / ٢٣٣ ، من الطبع الحديث.

(٢) غنية النزوع ، ابن زهرة الحلبي / ٥٠ - ٥١.

(٣) تفسير الصافي ، الفيض الكاشاني : ٤ / ١٩.

(٤) القصص / ٢٣.

ومن أجل أن لا يسأل موسى: أليس لكما أب؟ ولماذا رضي بإرسال بناته للسقي مكانه، أضافنا مكملتين كلامهما (وأبونا شيخ كبير) فلا هو يستطيع أن يسقي الأغنام، وليس عندنا أخ يعينه على الأمر فلا حيلة لنا إلا أن نؤدي نحن هذا الدور. فتأثر موسى (عليه السلام) من سماعه حديثهما بشدة. فأى أناس هؤلاء لا ينصفون المظلوم، ولا هم لهم غير أنفسهم. فتقدم وأخذ الدلو وألقاها في البئر.. يقال: إن هذه الدلو كان يجتمع عليها عدة نفر ليخرجوها بعد امتلائها من الماء، إلا أن موسى (عليه السلام) استخرجها بقوته وشكيمته وهمته بنفسه من دون أن يعينه أحد (فَسَقَى لَهُمَا) أغنامهما. ويقال: إن موسى (عليه السلام) حين اقترب من البئر لام الرعاء، قال: أي

أناس أنتم لا همّ لكم إلا أنفسكم! وهاتان البنتان جالستان؟! ففسحوا له المجال وقالوا له: هلمّ وأملأ الدلو، وكانوا يعلمون أن هذه الدلو حين تمتلئ لا يستخرجها إلا عشرة أنفار من البئر. ولكن موسى (عليه السلام) بالرغم من تعب السير في الطريق والجوع ملأ الدلو وسحبها بنفسه وسقى أغنام الأمراتين جميعها..^(١).

لو تأملنا ما جاء بتفسير الآية الكريمة ، لوجدنا هنالك أحكاماً كانت سائدة في تلك الحقبة الزمنية ، وهي أن الرجال يتقدمون على النساء وهذا واضح من سياق الآية المباركة (قَالَتَا لَأَنْسُقِيَ حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ) ، هذا من جانب

أما من جانب آخر فنرى أن القوي يقدم الضعيف كما جاء بقوله تعالى : (وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ) أو قوله :

(وَلَمَّا وَرَدَ مَاءٌ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ

وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ*فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ ...) نلاحظ مفردة (فَسَقَى لَهُمَا) بالرغم وجود الرعاء فكان للقوة سلطان

على الوهن في ذلك الزمن، ويندرج ذلك تحت الأحكام العرفية .

٦- قال جل من قائل : (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْمَاءِ قَسَمَ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرْبٍ مُخْتَضِرٌ)^(٢)، دخلت مفردة (الماء) في هذه الآية

الكريمة لتكون مدار الحكم الشرعي الصادر من الله سبحانه ، ولتكون محل اختبار لمدى التزام القوم بالأمر الرباني والحكم الشرعي ، فلقد صدر الأمر الإلهي من الله إلى نبيه صالح (عليه السلام) بأن يكون (الماء) قسمة بين القوم وبين الناقة يوم يسقون هم ويوم تسقى الناقة ، فأن كان يوم شربهم تمنع الناقة من الورود ، ويوم يكون

(١) تفسير الأمثل ، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي : ١٢ / ٢١٠ - ٢١١

** مشتقة من "نود" على زنة "زرد" ومعناها المنع

(٢) القمر/ ٢٨.

شرب الناقة يمنعون من (الماء) ، وقد جاء في تفسير الآية المباركة : ((وَبَيْنَهُمْ) أي أخبرهم (أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ

بَيْنَهُمْ) يوم للناقة، ويوم لهم (كُلُّ

شَرِبَ مُخْتَضِرٌ) أي كل نصيب من الماء يحضره أهله، لا يحضر آخر معه، ففي يوم الناقة تحضره الناقة، وفي

يومهم يحضرونه هم.

وحضر واحتضر بمعنى واحد.

وإنما قال (قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ) تغليبا لمن يعقل.

والمعنى: يوم لهم ويوم لها ، وقيل: إنهم كانوا يحضرون الماء إذا غابت الناقة، ويشربونه.. إذا حضرت حضروا اللبن، وتركوا الماء لها، عن مجاهد. (فنادوا صاحبهم) أي دبروا في أمر الناقة بالقتل))^(١).

نرى إن مفردة (الماء) هي المحور في إصدار الحكم الشرعي وإيجاد ضوابط القسمة الشرعية ، لذا لا بد أن نتعرف على ماهية القسمة وأركانها الشرعية وذلك من خلال الاطلاع بما جاء عنها في تفسير البحر الرائق : ((نحتاج إلى معرفة شرعية القسمة وتفسيرها وركنها وشرطها وحكمها وسببها ودليلها. أما دليل المشروعية فهو قوله تعالى : (وَبَيْنَهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرِبَ مُخْتَضِرٌ)^(٢)، وقوله تعالى : (قَالَ هَذِهِ نَاقَةُ لَهَا شَرِبٌ وَلَكُمْ

شَرِبٌ يَوْمَ مَعْلُومٍ)^(٣)، ومن السنة ما روي أنه عليه الصلاة والسلام فتح خيبر وقسمها بين الغانمين وعليه إجماع

الأمة. وأما تفسيرها لغة فهو عبارة عن الاقتسام كالقدرة للاقتدار والأسوة للأتساء. وأما شرعا فسيذكرها المؤلف. وأما ركنها فالفعل الذي يقع به الإقرار. وأما شرطها فمتاع لا تتبدل منفعته بالقسمة ولا يفوت. وأما حكمها فتعين نصيب كل واحد منهما من نصيب الآخر ملكا وانتفاعا وسببها طلب كل واحد من الشريكين الانتفاع بنصيبه على الخصوص. وأما محاسنها أن أحد الشريكين يحصل له من صاحبه سوء الخلق وضيق الفطن وقوة الرأس وليس له مخرج من هذه الأمور إلا الركون إلى الاقتسام. وأما صفتها فهي واجبة على الحاكم عند طلب بعض الشركاء))^(٤).

ونظراً لأهمية (الماء) في الحياة وما له من أثر في استمرارها ، فقد تناول المفسرين مفردة

(١) تفسير مجمع البيان ، الشيخ الطبرسي : ٣٢٠ / ٩ .

(٢) القمر / ٢٨ .

(٣) الشعراء / ١٥٥ .

(٤) البحر الرائق ، ابن نجيم المصري : ٢٦٨ / ٨ .

(الماء) وقسموها على عدة أنواع وأفردوا لكل كل نوع من هذه الأنواع أحكاماً فقهية خاصة استنبطوها من القرآن الكريم أو من أحاديث الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) أو من خلال ما جاء عن الأئمة الأطهار (عليهم أفضل الصلاة والسلام) بالروايات الصحيحة السند

قد أدت مفردة (الماء) وظيفتها الفقهية من خلال ما جاء بالأحكام الشرعية .

وقد أنبرى المفسرون الى إظهار إبداعهم وآرائهم من خلال عملية التأمل ومتابعة كل ما يمت بصلة الى أثر المفردة القرآنية في تكوين السياق ومن ثم التوصل الى معرفة ما يدر به من قصد .

وعندما نبحت عن مفردة عيون (أي عيون (الماء) في القرآن الكريم ، فنجدها قد وردت عشر مرات ولم تأت إلا بمعنى (عيون الماء) وكثيراً ما صاحبها مفردة (جنات) فنجدها قد لازمت مفردة عيون مفردة (جنات) في تسع آيات ، ولم ترتبط بها في أية واحدة فقط فثمة علاقة بين (عين الماء) والحدائق الحافة بها، وعندما نتأمل مفردة (عيون الماء) في الآيات التالية :

١ - (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) ^(١) .

٢ - (فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) ^(٢)

٣ - (وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) ^(٣)

٤ - (فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) ^(٤)

٥ - (وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ) ^(٥)

٦ - (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) ^(٦)

٧ - (فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) ^(٧)

(١) الحجر / ٤٥ .

(٢) الشعراء / ٥٧ .

(٣) الشعراء / ١٣٤ .

(٤) الشعراء / ١٤٧ .

(٥) يس / ٣٤ .

(٦) الدخان / ٢٥ .

(٧) الدخان / ٥٢ .

٨ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ)^(١)

٩ - (وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَمَى الْمَاءَ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ)^(٢)

١٠ - (إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ)^(٣)

نجد أن مفردة (عيون الماء) قد جاءت مجازاً عقلياً في كل هذه الآيات العشر ومرتبطة بعلاقة مكانية شأنها شأن سياق الآيات القرآنية التي تتحدث عن الأنهار في (تجري من تحتهم الأنهار)، إذ إن العيون مكان (للماء) مثلما الأنهار هي مكان (للماء) أيضاً، وهذه العلاقة المكانية فيها يسند الفعل أما في معناه إلى مكان المسند إليه وهي لها القابلية في (إيصال الدلالة الإيحائية عبر الترابط الوثيق بين العلاقة الكلام في المجاز العقلي)^(٤)؛ لأن (المجاز العقلي في صورته العامة يتعلق في التركيب والجملة ويخرج عن دائرة الكلمة)^(٥)، فإن كلمة (عيون) التي كانت المستقر الذي تجري فيه المياه قد حققت (للماء) وظيفة فقهية عبر مجيئها في السياق؛ لأن ما نبع من الأرض ماء العيون والآبار والأنهار والبحار، وقد ألفت الفقهاء إلى (ماء العيون) ووضعوا أحكاماً فقهية خاصة له إن كان مالاً أو عذباً أو غير ذلك، فمثلاً يكره استعمال (ماء العيون الحامية في التداوي)^(٦)، وكما جوز بعضهم صلاة الاستسقاء عند قلة الأمطار ونضب (ماء العيون) ومياه الآبار^(٧)، ويرى بعضهم لا كراهة في استعمال (ماء العيون الحمئة)^(٨)، وقال بعضهم يكره استعماله في التداوي؛ لأنه من فوح جهنم^(٩)، وللفقهاء في ذلك آراء كثيرة وقف عندها الفقهاء ونظر بعضهم إلى (ماء العيون بقوله: (فإن هذه المياه المتبقنة التي لاشك في إرادتها تكفي لتصحيح الامتنان من دون حاجة إلى افتراض الإطلاق الذي يصلح أن يكون مرجعاً في موارد الشك، والحاصل إن الامتنان غالى طهورية (الماء) بنحو القضية المهمة إنما لايتأتى فيما إذا لم يكن للقضية المهمة قدر متيقن وإلا فلامتنان في محله فلا قرينة على الإطلاق بطهورية الماء)^(١٠).

ولقد كثرت الأحكام الفقهية حول (الماء) سواء كان (ماء) جارياً أو ماءً منزل من السماء أو ماء الأرض، ولا أحكام فقهية لغير ذلك، أي لم تقم الآراء الفقهية التي تختص بماء الأرض والإنسان إلا في مسألة عيون

(١) الذاريات/ ١٥.

(٢) القمر/ ١٢.

(٣) المرسلات/ ٤١.

(٤) الأداء البياني في لغة الحديث الشريف، د. صباح عنوز / ٥٦.

(٥) المصدر نفسه / ٥٥.

(٦) ظ: السرانر، ابن إدريس الحلبي: ١ / ٩٥.

(٧) ظ: تذكرة الفقهاء، العلامة الحلبي: ٤ / ٢٢٢.

(٨) ظ: مستند الشيعة، النراقي: ١ / ١٢٥.

(٩) ظ: الكافي، الشيخ الكليني / ٣٨٩ و ظ: الوسائل، الحر العاملي: ١ / ٢٢١.

(١٠) شرح العروة الوثقى، محمد باقر الصدر / ٢٤.

الماء النابعة من الأرض والآبار والبحار وعلى وفق ذلك وضع الفقهاء اجتهاداتهم الفقهية بما توصلوا إليه من معارف استندت على القرآن الكريم والسنة النبوية والرواية والإفادة من اللغة ، لذا جاءت الأحكام الفقهية مستنبطة ومستوحاة ومبنية على أسس رصينة قوامها كلام الله المنزل على رسوله المرسل وما وصل من روايات صحيحة المتن والسند ليرسموا من خلاله القوانين الشرعية ويسنوا الأحكام الفقهية ليتفقه بها العامة وليتمكنوا من معرفة ما التبس عليهم من أمور دينهم ودنياهم .

الختمة والنتائج

الخاتمة والنتائج

بعد أن مَنَّ الله تعالى عليَّ بإتمام هذه الرسالة لأبد لي من الإشارة إلى أهم النتائج التي توصلت إليها في رحلتي مع (حركة الكلمة في النص القرآني " الماء أنموذجاً ")، فأوجز ما توصلت إليه في هذه الرحلة الممتعة :

- تبين من خلال البحث أن حركة كلمة (الماء) في السياق القرآني ترتبط بغايةٍ آلهيةٍ مراعيةٍ حال المخاطب والحدث من جانب ، ومن جانب آخر جمعت بين تكوين الخطاب القرآني أسلوبياً وبين قصديته ، فأنصهر المضمون في بنية النص ، الأمر الذي جعلها أي (الكلمة) قطباً تدور حولها المعاني لإيصال مرام الخطاب الالهي إلى المتلقي .

- كان لكلمة (الماء) أثر مهم في توجيه المعنى ، وأضحت لها وظيفة معنوية أثرت السياق القرآني، لأنها مختارة بعنايةٍ آلهيةٍ ومراعيةٍ لأحوال المخاطب .

- وجد البحث أن هنالك أثراً مميزاً لحركة مفردة (الماء) في تفعيل و تثوير الرؤى الاستنباطية للفقهاء، الأمر الذي أسهم في تعدد الآراء والاجتهادات الفقهية في ما يخص أحكام مفردة (الماء).

- كشف البحث عن أن الدواعي الفنية ما هي إلا صياغات جمالية ، نهضت على قصدية قرآنية ، فأصبحت معبرة بأساليب بلاغية من خلال احتوائها لمعنى كلمة (الماء) وحركتها في السياق القرآني غير منفصلة عن المراد الالهي ، وفي الوقت نفسه كانت مراعية لأسباب النزول ، وهذا مرد الإعجاز في هذا الجانب .

- وجد البحث أن حركة كلمة (الماء) بحسب الدواعي التفسيرية قد جاءت راکزةً في النص ومؤدية غرضها التفسيري بالدواعي التي أريد لها أو الأهداف التي تواجدت من اجلها كلمة (الماء) في النص القرآني ، ولا يمكن لكلمة أخرى أن تؤدي هذا الغرض المعنوي .

- تبين من خلال البحث أن القرآن الكريم هو كتاب هداية وتشريع وهو ليس كتاباً علمياً مطلوباً منه أن يلبي كل حاجات الإنسان العلمية في العلوم الصرفه .

- ظهر للبحث إن كامل عناصر القصة القرآنية التي تضمنت مفردة (الماء) مبنوثة في سور أخرى، فبان تكامل الموضوع القصصي ووحدته مع بنية القصة القرآنية ، بينما لا نجد الأمر ذاته في القصة البشرية التي تتطلب تتابعاً في الأحداث تكتب في زمان واحد .

- وجد البحث أثراً مهماً لمفردة (الماء) من خلال انضمامها إلى السياق القرآني ، ويتجلى ذلك في تحريك السياق حركةً إعجازيةً مزجت بين الإيحاء الدلالي والتعبير الفني وأسباب النزول ، للوصول إلى تحقيق قصدية النص القرآني .

- تبين للبحث أن هنالك تنوعاً في أساليب التعبير المراعية للنفس الإنسانية ، وكان المحرك لها هو مجئ مفردة (الماء) في السياق القرآني، فأسهمت الكلمة في رسم صور بيانية ، فمرةً جاءت الصور البيانية ترغيباً ، وتارةً ترهيباً، الأمر الذي جعل لحركة كلمة (الماء) في السياق القرآني وظيفة نفسية عالية المضامين، فهي من جانب نفعية إرشادية مشجعة للإنسان على سلوك طريق الخير ، ومن جانب آخر إنها إفهامية موضحة له

وبال الأعمال السيئة عليه في اليوم الآخر ، وكان ذلك باستعمال مرادفات مفردة (الماء) الدالة على ذلك، فحققت حركة كلمة (الماء) وظائف نفعية إفهامية أسهمت في جعل المتلقي على بينةٍ من عواقب الأمور .

- كشف البحث أن هناك صوراً تقابلية في القرآن الكريم قد دورثها مفردة (الماء) بأساليب فنيةٍ مختلفة من خلال إنضمامها الى سياق النص القرآني ، فمرة تأتي هذه الصور التقابلية مصورةً حركية إهتزاز الأرض ومن ثم بعث الحياة فيها ، ومرة ترسم جفاف الأرض وموتها ، وتارة يكون (الماء) نازلاً من السماء ، وأخرى يكون (الماء) فائراً من الأرض ، وفي صور يكون (الماء) فيضاناً ، وفي غيرها يكون غائراً ، ومرة يكون بارداً ، وفي ثانية يكون حميماً ، وفي أخرى يصبح سائغاً ، وتارة يكون كالمهل ... وهكذا تتلون المعاني بالصور التقابلية على وفق المراد الالهي المراعي لحال المخاطب ، فجاءت حركة مفردة (الماء) في السياق القرآني مؤدية المعنى القرآني المقصود .

والحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

القرآن الكريم .

- ١- أثر البواعث في تكوين الدلالة البيانية ، د. صباح عباس عنوز ، مطبعة الضياء ، النجف الأشرف ، ١٤١٨ هـ - ٢٠٠٧ م.
- ٢- إجماليات فقه الشيعة ، السيد إسماعيل الحسيني المرعشي ، تحقيق إسماعيل أبن أحمد ، ط ٢.
- ٣- أحكام القرآن ، أبي بكر بن علي الرازي الجصاص ، ضبط عبد السلام محمد علي شاهين، ط ١ ، ج ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ١٤١٥ - ١٩٩٤.
- ٤- الأداء البياني في لغة الحديث الشريف ، د. صباح عباس عنوز ، التميمي للنشر والتوزيع ، النجف الأشرف ، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.
- ٥- الأداء البياني في لغة القرآن الكريم ، د. صباح عباس عنوز ، التميمي للنشر والتوزيع ، النجف الأشرف ، ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م.
- ٦- الأدب الصغير، عبد الله بن المقفع ، تحقيق أحمد زكي باشا ، ط ١ ، دار الأمل بالاسكندرية ، ١٣٤٩ هـ - ١٩٤٤ م.
- ٧- الأصفى في تفسير القرآن ، الشيخ محمد حسن الفيض الكاشاني ، تحقيق مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية ، قم المقدسة ، ط ١ ، مكتب الأعلام الإسلامي ، ١٤١٨ ق - ١٣٧٦ ش.
- ٨- الأصول العامة للفقه المقارن ، السيد محمد تقي الحكيم ، ط ٢ ، مؤسسة آل البيت (ع) للطباعة والنشر، ١٩٧٩ م.
- ٩- الأصول من الكافي ، أبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني الرازي ، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري ، ط ٣ ، دار الكتب الإسلامية ، ١٣٨٨.
- ١٠- إقبال الأعمال ، السيد رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاووس ، تحقيق، جواد القيومي الأصفهاني ، ط ١ ، مركز النشر والأعلام الإسلامي ، قم المقدسة ، ١٤١٤ هـ.ق.
- ١١- الأمثال في القرآن الكريم ، تأليف المحقق جعفر السبحاني.
- ١٢- الأمثال في القرآن الكريم ، شمس الدين محمد بن أبي بكر الدمشقي المعروف بأبن القيم الجوزي ، ط ١ ، ج ٢ ، مكتبة الصحابة بطنطا ، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.
- ١٣- الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل ، الشيخ ناصر مكارم الشيرازي ، قسم الترجمة والنشر لمدرسة الأمام أمير المؤمنين (ع).
- ١٤- أوضح المسالك الى ألفية ابن مالك ، جمال الدين أبو محمد عبد الله الأنصاري ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية ، مصر ، ١٨٨٦.

- ١٥- بحار الأنوار ، الشيخ محمد باقر المجلسي ، ط ٢ ، ج ٦ ، مؤسسة الوفاء بيروت - لبنان ، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- ١٦- البحر الرائق في شرح كنز الدقائق ، زين الدين الحنفي المصري ، تحقيق زكريا عميرات ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧م.
- ١٧- البرهان في علوم القرآن ، محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط ١ ، دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٥٧م.
- ١٨- البيان والتبيين ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام محمد هارون ، ط ٧ ، دار النشر مكتبة الخانجي ، مصر ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨م.
- ١٩- تأويل الآيات ، السيد شرف الدين علي الحسيني الأستريادي النجفي ، تحقيق ونشر مدرسة الإمام المهدي (عج) ، ط ١ ، قم المقدسة ، ١٤٠٧ هـ . ق - ١٣٦٦ هـ . ش.
- ٢٠- التبيان في تفسير القرآن ، الشيخ أبي جعفر محمد الطوسي ، تحقيق وتصحيح ، أحمد حبيب قصير العاملي ، ط ١ ، دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠٩ هـ . ق.
- ٢١- تحف العقول عن آل الرسول ، الشيخ أبو محمد الحسن أبن علي ابن الحسين ابن شعبه الحراني ، ط ٥ ، مؤسسة الأعلمي بيروت ، ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م.
- ٢٢- تحفة الفقهاء ، علاء الدين السمرقندي ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤م.
- ٢٣- تحفة الأحوزي بشرح جامع الترمذي ، أبي العلا محمد عبد الرحمن أبن عبد الرحيم المباركفوري ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م.
- ٢٤- التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار ، ابن رجب الحنبلي البغدادي الدمشقي ، ط ٢ ، دار الرشيد للطباعة والنشر ، دمشق ، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤م.
- ٢٥- تذكرة الفقهاء ، الحلي الحسن بن يوسف بن المطهر ، تحقيق مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث ، قم المقدسة.
- ٢٦- تفسير أبين كثير ، أبين كثير الدمشقي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م.
- ٢٧- تفسير الإمام الحسن العسكري (ع) ، التفسير المنسوب الى الإمام أبي محمد الحسن أبين علي العسكري (ع) ، تحقيق ونشر مدرسة الإمام المهدي (عج) ، ط ١ ، مطبعة مهر ، قم المقدسة ، ١٤٠٩.
- ٢٨- تفسير التبيان ، الشيخ الطوسي ، تحقيق أحمد حبيب قصير العاملي ، ط ١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٩ هـ . ق.

- ٢٩- تفسير الثوري ، أبي عبد الله سفيان بن سعيد ابن مسروق الثوري ، تصحيح ومراجعة لجنة من العلماء ، ط ١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- ٣٠- تفسير الجلالين ، المحلي ، السيوطي ، دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان.
- ٣١- تفسير الصافي ، الفيض الكاشاني ، تصحيح وتعليق الشيخ حسين الأعلمي ، ط ٢ ، مؤسسة الهادي ، قم المقدسة ، ١٤١٦ ق.
- ٣٢- تفسير العياشي ، محمد بن مسعود العياشي ، تصحيح وتعليق السيد هاشم الرسولي ، ج ١ ، المكتبة العلمية ، طهران.
- ٣٣- تفسير القرآن الكريم ، السيد مصطفى الخميني ، تحقيق مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني ، ط ١ ، مؤسسة العروج ، ١٤١٨.
- ٣٤- تفسير القرطبي ، القرطبي ، ج ١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.
- ٣٥- تفسير القمي ، علي ابن إبراهيم القمي ، تصحيح وتعليق السيد طيب الموسوي الجزائري ، ج ٢ ، مطبعة النجف الأشرف ، ١٣٨٧ هـ.
- ٣٦- تفسير جوامع الجامع ، الشيخ ابي علي الفضل ابن الحسن الطبرسي ، تحقيق مؤسسة النشر الإسلامي ، قم المقدسة ، ط ١ ، ١٤١٨ هـ.
- ٣٧- تفسير سورة الحمد ، السيد الشهيد محمد باقر الحكيم ، ط ١ ، مجمع الفكر الإسلامي ، قم المقدسة ، ١٤٢٠ هـ . ق.
- ٣٨- تفسير غريب القرآن ، فخر الدين الطريحي ، تحقيق ونشر محمد كاظم الطريحي.
- ٣٩- تفسير كنز الدقائق ، الميرزا محمد المشهدي ، ط ١ ، مؤسسة النشر الإسلامي ، قم المقدسة ، ١٤٠٧ هـ.
- ٤٠- تفسير نور الثقلين ، الشيخ عبد علي العروسي الحويزي ، تصحيح وتعليق السيد هاشم الرسولي المحلاتي ، مؤسسة إسماعيليان للطباعة ، قم ، إيران ، ١٤١٢ هـ . ق - ١٣٧٠ هـ.ش.
- ٤١- التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره الى القرن السادس الهجري ، حمادي صمود ، ط ١ ، المطبعة الرسمية ، تونس ١٩٨٩ م.
- ٤٢- قرارات في أصول الفقه ، الشيخ علي الأسترهاري ، ط ١ ن مؤسسة النشر الإسلامي ، قم المقدسة ، ١٤١٧ .
- ٤٣- تهذيب اللغة ، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري ، تحقيق محمد عبد السلام هارون و محمد علي النجار وآخرون ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، ١٣٨٧ هـ - ١٩٦٤ م.
- ٤٤- جامع البيان ، ابن جرير الطبري ، دار الفكر للطباعة والنشر ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

- ٤٥- الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، عبد الرحمن أبى محمد بن مخلوف الثعالبي المكي ، تحقيق علي معوض و عادل عبد الموجود ، ط ١ ، دار أحياء التراث ، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م.
- ٤٦- جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام ، الشيخ الجواهري ، حققه وعلق عليه الشيخ عباس القوجاني ، دار الكتب الإسلامية ، طهران ، ١٣٦٥ .
- ٤٧- حاشية الخضري على شرح ابن عقيل ، الشيخ محمد الخضري الدمياني ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، مصر .
- ٤٨- حاشية السجاعي على شرح القطر ، احمد بن أحمد ، دار الطباعة البهية ، مصر ، ١٢٧٠ هـ - ١٩٢٥ م.
- ٤٩- حاشية الصبان على شرح الأشموني على ألفية أبى مالك ، محمد بن علي الصبان تحقيق طه عبد الرؤوف سعيد ، المطبعة الوهبية ، مصر ، ١٢٨٨ هـ .
- ٥٠- الخلاف ، الشيخ أبى جعفر محمد أبى الحسن الطوسي ، تحقيق جماعة من المحققين ، مؤسسة النشر الإسلامي ، قم المقدسة ، ١٤٠٧ هـ .
- ٥١- الدر المنثور ، جلال الدين السيوطي ، دار الفكر ، بيروت ، لبنان .
- ٥٢- الذكري ، الشهيد محمد أبى مكي المعروف بالشهيد الأول .
- ٥٣- زاد المسير ، لأبى الجوزي ، تحقيق محمد بن عبد الرحمن عبد الله ، ط ١ ، دار الفكر للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٧ م .
- ٥٤- السرائر ، أبى جعفر محمد أبى منصور الحلي ، تحقيق لجنة من المحققين ، ط ٢ ، مؤسسة النشر الإسلامي ، قم المقدسة ، ١٤١٠ هـ . ق .
- ٥٥- شرح أبى عقيل الهمداني على ألفية أبى مالك ، ج ١ ، ط ١٤ ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م .
- ٥٦- شرح أصول الكافي ، المولى محمد صالح المازندراني ، تعليق الميرزا أبى الحسن الشعراني ، ط ١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت - لبنان ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م .
- ٥٧- شرح أصول الكافي ، للمولى محمد صالح المازندراني ، تعليق الميرزا أبى الحسن الشعراني .
- ٥٨- شرح الرضي على الكافية ، لرضي الدين الاستربادي ، ج ١ ، جامعة قاريونس ، تصحيح وتعليق يوسف حسن ، ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .
- ٥٩- شرح العروة الوثقى ، السيد الشهيد محمد باقر الصدر (قدس سره) ط ١ ، مطبعة الآداب ، النجف الأشرف ، ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م .

- ٦٠- شرح شافية ابن الحاجب ، الشيخ رضي الدين محمد بن إسحاق الأستربادي النحوي ، تحقيق وشرح وضبط محمد نور الحسن محمد الزفزاف ومحمد يحيى عبد الحميد ، دار الكتب العلمية ، بيروت - لبنان ، ١٣٩٥ - ١٩٧٥.
- ٦١- شرح قطر الندى وبل الصدى ، أبو محمد عبد الله الأنصاري ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط ١١ ، القاهرة ، ١٣٨٣.
- ٦٢- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ، محمد إسماعيل بن حماد الجوهري ، تحقيق ، أحمد عبد الغفار عطار ، ط ١ ، دار العلم للملايين ، القاهرة ، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٦ م.
- ٦٣- الصورة الفنية بين حسيته وإيقاع المعنى ، د. صباح عباس عنوز ، دار السلام ، بيروت ، ١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م.
- ٦٤- الصورة الفنية في المثل القرآني ، محمد حسين الصغير ، دار الهادي للطباعة ، ١٩٩٢ م.
- ٦٥- علوم القرآن ، السيد محمد باقر الحكيم ، ط ٣ ، مجمع الفكر الإسلامي ، قم المقدس ، ١٤١٧ هـ . ق.
- ٦٦- غنية النزوع الى علمي الأصول والفروع ، السيد حمزة بن علي الحلبي ، تحقيق الشيخ إبراهيم البهادري ، ط ١ ، مطبعة إعتقاد ، قم المقدسة ، ١٤١٧ هـ.
- ٦٧- الفتاوى الميسرة ، السيد علي الحسيني السيستاني (دام ظله) ، ط ٣ ، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.
- ٦٨- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، الحافظ شهاب الدين ابن حجر العسقلاني ، ط ٢ ، ج ١ ، المطبعة الكبرى الميرية ببولاق ، مصر ، ١٣٠٠ هـ.
- ٦٩- فتح القدير ، محمد بن علي بن محمد الشوكاني ، ج ١ ، مطبعة البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ١٣٤٧ هـ.
- ٧٠- فقه السنة ، الشيخ سيد سابق ، ط ٣ ، دار الكتاب العربي ، بيروت - لبنان ، ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م.
- ٧١- القاموس المحيط ، الشيخ مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي ، تحقيق الشيخ نصر الهوريني ، ج ٣ ، دار العلم للجميع ، بيروت - لبنان.
- ٧٢- القرآن وإعجازه العلمي ، محمد إسماعيل إبراهيم ، دار الفكر العربي ، ودار الثقافة العربية.
- ٧٣- الكافي ، الشيخ أبي جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني ، تصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري ، ط ٣ ، دار الكتب الإسلامية ، طهران ، ١٣٨٨ هـ.ش.
- ٧٤- كتاب الحيوان ، عمر بن بحر الجاحظ ، تحقيق محمد عبد السلام هارون ، ط ١ ، دار إحياء التراث العربي ، مصر ، ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥ م.
- ٧٥- كتاب الصحابي أبي أيوب الأنصاري عند العرب والترك ، حسين نجيب المصري.

- ٧٦- كتاب العين ، الخليل أبْن أحمد الفراهيدي ، تحقيق د. مهدي المخزومي و د. إبراهيم السامرائي ، ط٢، مؤسسة دار الهجرة ، إيران ، ١٤٠٩.
- ٧٧- كتاب المبسوط ، للشيخ الطوسي ، تحقيق وتصحيح السيد محمد رضا الكشفي ، المطبعة الحيدرية ، طهران ، نشر المكتبة المرتضوية لإحياء آثار الجعفرية.
- ٧٨- كتاب سعد السعود ، العالم رضي الدين أبي القاسم علي بن موسى بن جعفر بن طاووس الحسني الحسيني ، منشورات الرضي ، قم المقدسة ، ١٣٦٣.
- ٧٩- كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، لعلاء الدين علي المتقي الهندي ، ضبط وتفسير غريبه الشيخ بكري حياني والشيخ صفوة السقا ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.
- ٨٠- لسان العرب ، لأبن منظور ، ط ١ ، أدب الحوزة ، قم ، إيران ، ١٤٠٥ هـ - ١٣٦٣ ق.
- ٨١- لسان العرب ، لأبن منظور ، ط ١ ، أدب الحوزة ، قم ، إيران ، ١٤٠٥ هـ - ١٣٦٣ ق.
- ٨٢- مجالس ثعلب ، أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب ، تحقيق عبد السلام هارون ، نشر دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٠ م.
- ٨٣- مجمع البحرين ، الشيخ فخر الدين الطريحي ' تحقيق السيد أحمد الحسيني ، ط ٢ ، ج ٣ ، نشر مكتبة الثقافة الإسلامية.
- ٨٤- مجمع البيان في تفسير القرآن ، الشيخ الطبرسي ، تحقيق لجنة من العلماء والمحققين ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ط ١ ، بيروت ، لبنان ، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.
- ٨٥- المحاسن ، الشيخ أبي جعفر بن محمد بن خالد البرقي ، تحقيق السيد جلال الدين الحسيني المحدث ، ط ١ ، دار الكتب الإسلامية ، طهران ، ١٢٣٧.
- ٨٦- المختلف ، أبو حفص عمر أبْن أحمد البغدادي المعروف بأبن شاهين ، تحقيق عبد الرحيم بن محمد القشيري ، ط ١ ، مكتبة الرشد الرياض ، السعودية ، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م.
- ٨٧- المدخل الى دراسة النحو العربي على ضوء اللغات السامية ، عبد المجيد عابدين ، القاهرة ، ١٩٥١.
- ٨٨- المرتجل ، أبْن الخشاب أبو محمد عبد الله أبْن احمد ، تحقيق علي حيدر ، دار الحكمة ، دمشق ، ١٩٧٢ م.
- ٨٩- المسائل المنتخبة ، السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي.
- ٩٠- مستدرك سفينة البحار ، الشيخ علي النمازي الشهرودي ، تحقيق نجل المؤلف الشيخ حسن أبْن علي النمازي / مؤسسة النشر الإسلامي ، قم المقدسة، ١٤١٩ هـ. ق.
- ٩١- مستند الشيعة ، أحمد بن محمد مهدي الزاقي ، تحقيق مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث ، ط ١، مطبعة ستارة ، قم المقدسة ، ١٤١٥ هـ.

- ٩٢- مسند أحمد ، أحمد بن حنبل ، دار صادر ، بيروت ، لبنان.
- ٩٣- معاني القرآن ، أبو زكريا يحيى بن زياد الفراء ، ط ٣ ، ج ٢ ، دار عالم الكتاب ، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- ٩٤- معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، دار إحياء التراث ، بيروت ، لبنان.
- ٩٥- معجم لغة الفقهاء ، د . محمد رواس قلعة جي ، ط ١ ، دار النفائس للطباعة ، بيروت ، لبنان ، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٨ م.
- ٩٦- المعيار والموازنه ، الشيخ أبي جعفر الأسكافي ، تحقيق الشيخ محمد باقر المحمودي ، ط ١ ، ١٤٠٢ هـ - ١٩٨١ م.
- ٩٧- مفاتيح الغيب ، فخر الدين الرازي ، دار الفكر ، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- ٩٨- منهاج الصالحين ، السيد محمد الروحاني ، ط ٢ ، مكتبة الألفين ، الكويت ، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.
- ٩٩- المهذب ، القاضي عبد العزيز الطرابلسي ، تحقيق ثلة من الفقهاء ، ط ١ ، مؤسسة سيد الشهداء العلمية ، ١٤٠٦ هـ.ق.
- ١٠٠- الميزان في تفسير القرآن ، السيد الطباطبائي ، منشورات جماعة المدرسين في الحوزة العلمية ، قم المقدسة.
- ١٠١- همع الهوامع في شرح جمع الجوامع ، عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي ، تحقيق د. عبد العال سالم مكرم ، ط ١ ، مؤسسة الرسالة ودار البحوث العلمية.
- ١٠٢- وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة ، الشيخ محمد بن الحسن الحر العاملي ، تحقيق مؤسسة آل البيت (ع) ، ط ٢ ، مطبعة إحياء التراث ، قم المقدسة ، ١٤١٤ .

الرسائل الجامعية :

- ١٠٣- أثر تعدد المعنى في تفسير النص القرآني ، أطروحة دكتوراه ، هدى عبد الحسين مير زوين ١٩ / .

مواقع الانترنت :

- ١٠٤- شبكة الانترنت ، موقع طريق الإسلام - نعمة الإسلام ، البحث الأول ، <http://akhawat.islamway.com/forum/index.php?showtopic=248489>
- ١٠٥- شبكة الانترنت : الموقع <http://forum.sedty.com/tlbqq30.html>
- ١٠٦- شبكة الانترنت ، موقع إعجاز القرآن الكريم <http://dc307.4shared.com/doc/R4pleprp/preview.html>

- ١٠٧- شبكة الانترنت ، موقع <http://www.aadd2.com/vb/t77312.html>
- ١٠٨- شبكة الانترنت ، موقع عبد الدائم الكحيل ، للإعجاز العلمي في القرآن والسنة ،
<http://www.kaheel7.com/modules.php?nam>
- ١٠٩- شبكة الانترنت ، موقع أفكار علمية ، من أسرار القرآن الكريم ،
<http://www.afkaaar.com/html/content-45.html>
- ١١٠- شبكة الانترنت ، موقع من روائع التعبير القرآني المعجز ، يوسف عبد الرحمن ،
<http://www.wata.cc/forums/showthread.php>

المجلات والصحف:

- ١١١- مجلة الكوثر ، قم المقدسة ، العدد ٢ لسنة ١٤١٦ هـ
- ١١٢- مجلة (نور الإسلام) البيروتية ، زاوية (هذا خلق الله) ، العدد ٦١-٦٢ السنة السادسة ، عام ١٩٩٦م.



Ministry of Higher Education & Scientific Research
University of kufa
College of Jurisprudence
Sciences of Quran & Hadith Department

THE WORD MOVEMENT IN THE QURANIC TEXT

" WATER " AS A SAMPLE

AN EXPLANATORY STUDY

A thesis

submitted to the Council of College of Jurisprudence\University of kufa

As partial fulfillment of the Requirements for M.A Degree in

In Islamic Studies

By :

Ali KADHEM MANHA AL-FALADH

SUPERVISED BY:

Prof. Dr. Sabah Abbas Ennooz

Abstract

The subject of this thesis was chosen due to its great importance in terms of explanation to learn some secrets of the Holy Quran; therefore, the thesis is entitled "THE WORD MOVEMENT IN THE QURANIC TEXT " WATER " AS A SAMPLE AN EXPLANATORY STUDY". The study elements have been studied within three chapters :-

Chapter (1): is devoted to study (The explanatory reasons of the word movement in the Holy Qur`an). It includes three topics -

Topic (1): linguistic and contextual reasons of the word in the Quranic text.

Topic (2):the technical reasons of the movement of the word "water" in the Quranic text.

Topic (3): the explanatory reasons of the movement of the word in the Quranic texts.

Chapter (2): is devoted to study (The explanatory purpose of using the word "water" in the Quranic text) . It includes three topics

Topic (1):the word “water”, The explanatory purpose of the term " water " and its synonyms in the Qura`nic texts.

Topic (2):the word "water" and its miracle significance in the Quranic verses.

Topic (3): the effect of the word "water" in the Quranic narration.

Chapter (3):deals with the functions of the term " water " in the Qura`nic texts. It also includes three topics

Topic (1): The psychological function of the term " water " in the Qura`nic texts.

Topic (2): The bio- function of the term " water " in the Qura`nic texts.

Topic (3): The jurisprudential function of the term " water " in the Qura`nic texts

Throughout the motioned divisions the researcher tried to obtain the aimed purpose which is the term " water " movement and its suggestive and explanatory significances as well as its different functions depending on the Holy Qur`an and the Muslim explanations getting use of the ancient and modern references and resources.

The study is concluded with the conclusion that contains the most important results of the research following by the bibliography and an abstract in of the thesis in English.